الشواهد والنصوص من كتاب الأغلال
على ما فيه من زيغ وكفر وضلال
بالعقل والنقل

بقلم

محمد عبد الرزاق حمزه

المدرس بالحرم المكي الشريف

قدّم له وعلق عليه

محمد احمد الغمراوى

مؤلف « النقد التحليلي » و « فى سنن الله الكونية »

قال الله تعالى (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون) سورة الاعراف

مطبعة الإمام

١٠ - الدمالشة عابدين مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله ، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم باحسان إلى يوم الدين .

وبعد فهذا كتاب فى الرد على كتاب « هذى هى الأغلال » كتبه أخى فى الله الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة المدرس بالحرم المكى الشريف ، تأييدا وتتميما للرسالة المقنعة الممتعة التى كتبها علامة القصيم الشيخ عبد الرحمن السعدى فى نقد نفس الكتاب ، والتى سماها (تنزيه الدين وحماته ورجاله مما افتراه القصيمى فى أغلاله)

وكتاب الأغلال ألفه شاب نجدى مغمور وطبعه ونشره فى مصر فلم يكن له من الأثر إلا ما يكون للحصاة يلقى بها فى اليمّ : مقالات قليلة كتبت هنا وهنالك أكثرها كان فى تحقير الكتاب وتسفيه صاحبه ، وأقلها كان فى جانبه من بعض من يذهب مذهبه فى الدين ونشوئه . وقد أقنعتنى جميعها بتفاهة الكتاب وسخفه ، فصدتنى عن قراءته فضلا عن الاهتمام بنقده رغم رجاء أحد تلامذتى وزملائى إياى أن أنقده لأنه كما قال كتاب سوء يحارب الاسلام بكل وسيلة ومن كل سبيل.

لكن الموقف تغير حين طلب إلىّ أخي وصديقي الشيخ محمد

عبد الرزاق حمزة أن أعلق على كتابه وأن أقدم له إن أمكن ، وحين ارسل إلىّ مع كتابه رسالة الشيخ السعدى هدية من نبيل جدة ووجيهها الشيخ محمد نصيف .

قرأت رسالة الشيخ السعدى ثم قرأت كتاب الشيخ حمزة فاذا بى أمام أمور فظيعة منسوبة إلى صاحب الأغلال ، ونصوص شنيعة منقولة عن كتابه لم يذهب بى الخيال يوما إلى أن مثلها يمكن أن يصدر عن مسلم كان له يوما فى الاسلام قدم ، بل كان له فى سبيل الاسلام عند أهل بلده جهاد . ولم أجد بدا حين قرأت الكتابين من أن أقرأ كتاب الأغلال من أوله إلى آخره لأعرف حقيقته عن غير واسطة إن كنت كاتبا مقدمة لرد عليه . قرأته فاذا الأمر أفظع حتى مما يبدو من خلال الكتابين .

وجدت كتابا ينبض بالضغن ويفيض بالقدح فى الاسلام وأهله فقد نقض صاحبه ما وصلت إليه يده من كتب المتقدمين حتى إذا وقف على بعض أقوال لا يقول بها أحد يعتد به اليوم — ولا يخلو من مثلها تاريخ أمة حتى فى هذا العهد الحديث — اتخذ تلك الأقوال ذريعة إلى الطعن فى المسلمين أجمعين فى عشرة القرون الأخيرة من تاريخ الاسلام ، مؤكدا للقارىء وللناس أن المسلمين جميعا عاشوا طوال تلك الحقبة لا يرون الاخذ بالأسباب معتقدين أن التوكل على الله معناه النوم وترك التدبير اتكالا على أن الله سيرزقهم من غير سعى ولا عمل ويحميهم من غير إعداد عدة ولا جهاد ، واكتفاء فى ذلك كله بالدعاء والانقطاع لعبادة الله من نحو صوم أو صلاة ، فتأخروا فى زعمه عن ركب الانسانية ألف عام ناموها

وسارها غيرهم من مختلف الشعوب والاديان .

ولو اقتصر الأمر على مثل هذا الزعم لهان على شناعته ، فكل عارف بتاريخ الاسلام يعلم أن المسلمين لم يكونوا كلهم أو جلهم يعتقدون ذلك يوما من الأيام ، ولعل فترات عزهم فى الألف عام الأخيرة كانت أكثر من فترات ذلهم ، بعكس الغربيين الذين يسبح صاحب الاغلال بحمدهم وحمد مدنيتهم ويقدس لها ولهم . وعلى فرض أن المسلمين كانوا كما وصف طوال تلك القرون العشرة فليسوا هم كذلك الآن فكلهم يريد الأخذ بالأسباب ، وكلهم يدعو إلى الأخذ بأسباب النهوض والعزة ، وإن اختلفوا فى الاسباب ذاتها اختلاف أية أمة ناهضة أو شعب فى كل عصر وعلى الأخص فى هذا العصر . ففيم إذن الهمز واللمز والطعن والذم والاستهزاء والسخرية وقد انقضى سببها المزعوم إن كان قد وجد يوما من الأيام ؟ أليس من الحمق والغباوة ، أو من الغرور وتلمس شهوة المال والشهرة من أسوأ طريق ، أن يفترض صاحب الأغلال وجود مالم يوجد أو استمرار ما قد انقطع وانقضى ليجاهده وينازله كما كان دُن كويشوت فى كتاب سرفنتيس يجاهد وينازل طواحين الهواء يظنها مردة وعماليق تقطع على الناس الطريق ؟ ثم أليس من الغرور والحمق معا أن يعتقد صاحب الأغلال أن الاربعمائة المليون المسلم - على حد تعبيره - خاضعة اليوم لسلطان تلك الخرافات التى يزعم ، ثم يطمع أن يزحزحها هو عن ذلك بسفاهته وبذاءته التى بثها فى كتابه ، والتى ستصد عنه كل من يقترب منه كما تصد الرائحة الخبيثة عن مكان الجيفة ؟ فلو أن إنسانا أحسن الدعوة من وجهها

وجاء إلى المسلمين يدعوهم ليقودهم بزمام دينهم — والاسلام كله مقاد إلى الخير والعز والفلاح — لكان عجبا مع ذلك أن يطمع بمفرده فى تحريك العالم الاسلامى وقد قعد عن العمل بالاسلام، طالت مدة القعود أو قصرت، فكيف بهذا المغرور الضال الذى لا يرى سبيلا إلى نهوض المسلمين إلا أن يكفروا بماضيهم كله، وينزلوا عن ميراثهم كله، ويحتقروا كل ما أُلف فى ألف سنة فى أى علم أو فن لأنه صورة من كتاب واحد ألف فى علمه أو فنه قبل أن تبدأ الألف أو بعد أن بدأت الألف، وأن يُنزلوا أى رواية أو رأى يجمع عليه أو عليها مؤلفو تلك الكتب الكثيرة منزلة رواية الفرد الواحد ورأى الشخص الواحد، هكذا يدعى وإلى ذلك يدعو هذا المغرور المفتون فى إعادة وتكرار ومبالغة وتوكيد. واقرأ له إن شئت لترى إلى أى مدى يذهب الغرور بصاحبه، ولتحكم أعن عقل يصدر فى كلامه أم عن تخليط. قال من ص ٣٠٦ من كتابه: (والخطوط من عندنا)

« إننا نعدّ فى علم التاريخ مئات الكتب وألوفها، وكذا فى الحديث والفقه والتفسير وفى كل علم، ولكننا عند التحقيق لا نجد إلا كتابا واحدا فانسان ألف منذ ألف سنة مثلا مؤلفا فى علم من هذه العلوم وأودع فيه ما أودع من أباطيل وأكاذيب وغيرها. فاذا جاء بعده ألف مؤلف فى هذا العلم فانهم جميعا سيأخذون علومهم وحقائقهم عنه وعن كتابه بلا نظر أو تفكير وهذا هو الشأن فى جميع المؤلفات التى تغص بها المكتبات والفهارس العامة اليوم والتى يفوت إحصاؤها.

« وعلى هذا فمن الخطأ الذى يقع فيه الجميع أن نجد رواية أو رأيا فى مئات الكتب لمئات المؤلفين فنزعم أن تلك الرواية أو ذلك الرأى قد قال به ورواه هذا العدد العديد . والصحيح أن نقول إنها أو إنه «رواية أو رأى» إنسان واحد فى مؤلف واحد نقله هؤلاء الجاهلون المقلدون بلا بحث وبلا عقل ، فلا ننخدع ونخدع بالكثرة ونقول : كيف لا تكون تلك الحكاية أو الرواية صحيحة وقد رواها وصدقها عشرات العلماء أو مئاتهم ! وكيف تكون كذبا ثم يخفى حالها على كل هؤلاء ؟ إن من السهل على الانسان ألا يثق برواية إنسان واحد وبرأيه ، ولكن من العسير عليه أن يشك فى رواية العشرات ورأيهم ولا سيما إن كانوا ممن يجل ويحترم »

دعوى يلقيها هذا الأحمق كأنه قرأ تلك الألوف المؤلفة فى جميع العلوم فى عشرة قرون فجاء يعلن نتيجة بحوثه ويزين له شيطانه أن سيسمع له الناس!

والحمق والغرور الظاهران من هذه الفقرة التى نقلناها لك من كتاب الأغلال ، هما الطابع الذى طبع به على الكتاب كله ، لا يكاد يخلو من أماراتهما صفحة من صفحاته . فأنت إذا تناولت الكتاب وجدت ذلك الطابع على غلافه الخارجى إذ تقرأ :

« سيقول مؤرخو الفكر انه بهذا الكتاب
قد بدأت الامم العربية تبصر طريق العقل .. »

كأن الأمم العربيه عامية عن العقل وطريقه وستبدأ تبصرهما ولكن على يد صاحب الأغلال !

فاذا أنت قلبت الغلاف وجدت نفس الطابع مرة أخرى إذ تقرأ

على الغلاف الداخلى :

ثورة فى فهم العقل والحياة . دراسة عميقة للعوامل النفسية والاعتقادية والتاريخية والخلقية التى قضت بانحلال المسلمين عربهم وعجمهم وذهابهم فى طوفان الغرب الطاغى .. ثم كيف يمكن أن ينحسر عنهم هذا الطوفان ..

أرأيت إلى هذا الأحمق المغرور ؟ إنه يثور لا على المسلمين وحدهم ، ولكن على الانسانية جميعا فيما يبدو ، يثور عليهم وعليها فى فهم العقل ! ثم فى فهم الدين ! ثم فى فهم الحياة !

وكأنه أراد ألا يدَعك فى شك من مدى غروره وفجوره فى ثورته ودعوته فكتب لك فى أول صفحة تلقاها داخل الغلاف : —

« إن ما فى هذا الكتاب هو من الحقائق الأزلية الأبدية التى تفقدها أمة فتهوى لأنها فقدت حقيقة من حقائقها الطبيعية ، وتأخذ بها امة أخرى فتنهض لأنها قابلت الطبيعة الكاملة بطبيعتها الكاملة . . . ولن يوجد مسلم واحد بين الأربعمائة المليون المسلم يستغنى عن هذه الأفكار إذا أريدت له حياة صحيحة طبيعية »

يعنى أنه هو وحده من بين المسلمين أو من بين البشر يأتي بثورة فى فهم العقل والدين والحياة ثم لا يكون ما يأتى به — فى كل الكتاب لا بعضه — إلا حقائق أزلية أبدية ! صادقة منذ القدم قبل أن يوجد الانسان ، صادقة إلى الأبد بعد أن يفنى الانسان ، فليت شعر العقل إن كان

مافى كتابه كذلك فكيف يكون ثورة فى فهم العقل أو الدين أو الحياة؟ أفلم تهتـد الانسانية بنفسها أو برسل ربها إلى مقومات الحيـاة والدين الأزلية الأبدية قبل عبد الله بن على القصيمى أو قبـل كتاب هـذى هى الأغلال ؟

وإذا كان كتابه ثورة فكيف يكون كله حقائق ، وحقائق أزلية أبدية ؟ لو كان بعضه حقـا جديدا يضاف إلى ما بيد النـاس دهمائهـم وعلمائهم من الحق فيما يتعلق بالعقل والدين والحياة لكان عجبا من القصيمى وفتحا للقصيمى لا للناس ، لأن كل حق جديد يكشف عنه يجب أن يتفق مع ما بيد الناس من حق معروف من قديم كى يثبت أنه حق ؛ إذ المحك الذى يعرف به الحق من الباطل فى العلم وعند البحث هو أن يتفق الجديد مع كل المعروف من الحق حتى يمكن أن يفتح له الباب ليدخل فى حظيرة الحق . ان الحق لا يتناقض ولا يمكن أن يتناقض ، إنما الذى يتناقض مع نفسه ومع غيره هو الباطل .

والناس فى العلم وفى غير العلم يستعملون مابيدهم من الحق محكا لـكل جديد يأتيهم يزعم أنه حق : إن اتفق مع المعروف من الحق قبلوه وضموه إلى مابيدهم من الحق ، وازدادت به ثروتهم من الحقائق قليلا او غير قليل ، حسب مقدار المكشوف الجديد ، وكان تقـديرهم للكاشف عن الجزئية الجديدة من الحق فى هذه الحالة تقديراً صادقا ، صغرت الجزئية او عظمت. أما اذا كان الشىء الجديد منافياً لشىء من الحق المعروف فان هذا يكون دليلا لا يرد وشاهداً لا يكذب على أن الجديد زائف باطل ليس من قبيل

الحق فى شىء ، فكيف إذا نافت القضية أو القضايا الجديدة كثيراً من الحق المعروف للناس علمائهم وجهلائهم على السواء ؟ إنها عندئذ تكون لاتستحق النظر وإن نادى عليها صاحبها من الصبح إلى المساء .

فصاحب الاغلال حين وصف كتابه بأنه ثورة فى فهم العقل والدين والحياة ، وأنه فى الوقت نفسه حقائق أزلية أبدية قد دل على نفسه أنه دعىّ فى أهل الحق ، لايدرى ما الحق ولا ما علامات الحق ، إنه قد دمغ كتابه بالبطلان حين طبعه بطابع الثورة على المعروف للناس أجمعين فى أمر العقل والدين والحياة . فان كان فى الناس من يصدقه مع جمعه بين النقيضين فهو مثله لايدرى ما الحق ولا ما التفكير

ثورته على الحياة والدين

ثورته فى فهم الحياة هى فى الواقع ثورته على الاسلام وأهله ، فهو لايفهم الاسلام كما فهمه المسلمون ويفهمونه ، ولايحب أهله ، يرى المسلمين ضعفاء فيحتقرهم لضعفهم وفقرهم ، لأن القوة والمال والجاه عنده هى الجديرة بالاحترام ، وبالسعى فيها والعمل لها ، أما المروءة وأما فضائل الأخلاق فهو إن سواها بالقوة المادية والثراء فقد تساهل معها فى الحساب

ثم هو يرى أن ضعف المسلمين ليس من تركهم الدين ؛ ولكن من اتباعهم إياه ، فهو لذلك يحارب الدين ويستهزىء بقوانينه التى وضعها للناس كلما وجد الى الاستهزاء سبيلا ، أى كلما أمن عواقب الاستهزاء ، فان لم يأمن وظن أن رأيه الذى يعتقد ويود لو اتبعه الناس يعرضه لسخطهم ولرميهم اياه بما هم لابد راموه به من الزندقة والالحاد أو ماهو أكبر منهما لف ودار ، وقرر رأيه بجميع الصور ، ثم تبرأ فى الهامش أو فى الصلب

أن يكون قصد كفراً او إلحاداً ولكنه قصد تقرير الحقيقة ، أو أنه فعل مافعل وأورد ماأورد للاعتبار !

ولا نجد شيئاً اسلامياً سلم من سلاطة هذا الرجل وبذاءته ، لا الدهماء ولا العلماء ، لا الفقراء ولا الأغنياء ، لا الملوك ولا السوقة ، لا الأمم ولا الأفراد ، لا العرب ولا العجم . لا معاهد العلم ولا جهود المسلمين فى سبيله فى الماضى والحاضر . لا شىء من ذلك للاسلام يلقى من صاحب الأغلال الا الغل والضغن ، كأن ذلك كله حال فى الماضى ويحول فى الحاضر بين صاحب الأغلال و بين مايبتغيه من جاه وقوة وثراء

ولو كان هذا الرجل ينبض قلبه بشىء من الحب للاسلام وأهله لكان سبيله فى تنبيههم غير سبيل تجاهل المحاسن وتلمس المساوىء والمعايب ، الموجود منها والموهوم ، واتخاذها وسيلة للتحقير والتسفيه والزراية والتشهير ، ولدعاهم إلى مادعاهم ربهم اليه من العمل بدينه كما فى كتاب الله وسنة رسوله ، بدلا من أن يحاول صرف ذلك كله عن وجهه وصرفهم عنه تارة بسوء التأويل الذى لايمكن أن يكون كله راجعاً الى الجهل ، وتارة بالكتمان الذى لايمكن أن يكون كله راجعاً إلى النسيان ، وتارة بالتشكيك فى الأصول وتارة بالانكار حتى لما هو معروف من الدين بالضرورة كفضل الدعاء وأثر طاعة الله فى حياة الانسان هنا فى الدنيا ، وفضل التوكل على الله حتى مع الأخذ بما شرع من أسباب ، ثم ماهو أدهى وأمر من إنكاره تصرف الله المطلق فى ملكه يفعل فيه مايشاء

وليس يهمنا هنا إثبات شىء من هذا على هذا الرجل المفتون فسترى

مايكفى وفوق ما يكفى لهذا فيما أورده الشيخ حمزة فى رده البليغ من نصوص ؛ إنما الذى يهمنا الآن هو الوقوف على سبب تطور نفسية هذا الرجل ذلك التطور الذى نقله من آخر مراكز البندول فى اليمين إلى آخر مواقف البندول فى اليسار — من التطرف فى الدين إلى التطرف فى التنكر للدين.

وتطرف الرجل فى الدين فى الماضى يحدثنا به الرجل نفسه فى فقرة عجيبة من كتابه لعلها من أغرب الاعترافات . إنها تدلك على حاضر الرجل وماضيه معاً فاقرأها: « إن ذكرى تفيض بالمرارة والحسرة تعاودنى كلما مر بخاطرى عصر مشئوم قضيته مسحوراً بهذه الآراء، كنت أفر من الحياة ومما يعلى من قيمة الحياة ، فقد كنت لا أجد ما يحملنى على أن أرفع قدمى لو علمت أنى إذا رفعتها تكشف ما تحتها عن أعز ما عليه يتقاتل الأحياء ! وقد ضاعت علىّ من أجل ذلك فرص كان يمكن الافادة منها ، لا يمكن استرجاعها ! كان الغرور الدينى قد أفسد علىّ كل شعور بالوجود وبجماله ، وكنت مؤمنا بأن من فى المجتمع لو كانوا يرون رأيي ويزهدون زهدى لوقفت الأعمال كلها ، ولما وجد العالمَ بداً من أن يخرب ! كنت أنظر إلى من يهتمون بالحياة وبمن فيها ، ومن يعملون لها ويجاملون ويخالقون من أجلها، بعين أقل ما فيها الاحتقار والاستصغار ! وكنت لا أبالى بأحد مهما كان عظيما ومهما كان قادرا على النفع والضر . وما كنت أفكر فى أن أجد فرصة للقائه أو للقرب منه أو للاتصال به ! وكنت لا أخالق إنسانا رغبة فيما يتخالق الآخرون من أجله . وكان شعارى فى تلك الفترة قول ذلك المغرور

المخدوع مثلى :

إذا صح منك الود فالكل هين وكل الذى فوق التراب تراب
فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذى بينى وبينك عامر وبينى وبين العالمين خراب

نعم كنت أعتقد أن الكل هين ، وأن جميع ما فوق التراب وما فى العالم من جمال وطيبات وحاجيات ، ومن أقوام وأمم وشعوب ، تراب ! وكنت لا أبالى أن يحلو لى شيء من ذلك أو يمر ، ولا أن يرضى أو يغضب ، ولا أن يعمر أو يخرب ، كما يقول هذا الشاعر المسكين . وكنت أرى أنى ابذلك أرضى الله ، وانى إذا أرضيته فلن يضيرني شيء .. وكانت الدنيا كلها تدور من حولى من غير أن أدور معها أو أحس دورانها ! وكان يخيل إلىّ وإلى غرورى الدينى الأعمى أنه لا قوة كقوتى ؛ لأن الله معى واهب القوى ! « التعجب من عند صاحب الأغلال » فليقو العالم كما يشاء ، وليجمع من لأسباب ما طاب له ، وليحاول من أجل نفسه مايحاول ؛ فان ذلك كله لاقيمة له ولا خطر بالنسبة إلى قوة من استقوى بطاعة الله ، ومن ترك الإسباب جملة مستمسكا بأسباب الله وحدها . وكان يبدو لى أنه بقدر إيمان الانسان بذلك ، وبقدر كراهته العالم والوجود والدنيا والانسانية كلها ، وبقدر استصغاره لها واحتقاره إياها وكفره بها ومغاضبتها ومجانبتها — بل سبها ولعنها — يكون قربه من الله ورضاه عنه ودلاله عليه . وكانت هذه الاعتقادات او الخيالات تهبط بى وتعلو ، وتجعل لى وجوداً خاصاً ، وعالما خاصاً ودنيا خاصة ، تدور من اجل واحد وتوجد من اجل واحد

ايضاً ـ واحد أرضى الله ووهب له كل معانيه فوهب الله له على حسب مايظن ، كل مايريد ولو كان فى جملة مايريد إعزاز الامم وإذلالها »

***

هذا ملْك كان هذا الرجل فيـه من غير شك ، دونه ملك الثراء والقوة والجاه . ان هذه العزة النفسية التى تملأ جوانب كل متدين متوكل على الله حق توكله ، وتملأ نفس من يكون مع الله بالقلب والنفس والروح والبدن ، هى أقصى ثمرة الملك المادى فى الدنيا ، ثم لاينالها كثير من أهل المال والسلطان، ومع ذلك فقد استبدل بها ذلك الرجل طائعاً مختارا حالا الله أعلم بها وبه فيها ،فما اظنه نال من القوة والمال كثيرا ، وسيدأب وينصب فى سبيلهما من غير ان ينال مايصبو اليه منهما كل من يرى المادة هى كل شىء وأن ليس بعد الدنيا شىء ، وسيجـد نفسه مضطرا إلى النزول على حكم الدنيا وأهلها وأسبابها التى يرى أنها طبيعية حتمية لامفر منها . فيبذل فى سبيل النجاح والمال من ماء وجهه ما كان يصونه حين كان فقيراً مع الله ، ولم يكن الرجل فيما بلغنا مع الفقراء حقا إلا بالنسبة إلى مايطمح اليه ويطمع فيه الآن ، فقد كان له راتب من الحكومة السعودية لعله كان أربعين جنيها فى الشهر ، ولعله لايزال يأخذه إلى الآن من غير أن يرضى عن الحياة ويستشعر من القوة والعزة فيها ما كان يملؤه حين كان مع الله بالصورة التى وصف

وانك لتجد مفتاح ضلال هذا الرجل فيما قص علينا من أمر حياته الدينية قبل أن يفتتن عن الدين . لقد أراد أن يسلك سبيلا من الزهد فى الدنيا ليس هو من رجاله ،فشدد على نفسه وعصى الله ورسوله بتشدده ،

فقد نهى الرسول ﷺ عن التشدد والتنطع فى الدين فى أكثر من حديث كريم قال «لن يشادّ هذا الدين أحد إلا غلبه» وقال «ان هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، ان المنبتّ لا ارضاً قطع ولا ظهراً أبقى» وقال «من رغب عن سنتى فليس منى» فى حديث مشهور نهى فيه رجال عن حرمان انفسهم مما احل الله لهم من الطيبات ، ولما بلغه تشدد عبدالله بن عمرو فى الصيام والقيام نهاه وقال له «لا صام من صام الابد» وكذلك امر الله سبحانه فى مواطن كثيرة من كتابه بالأخذ من الطيبات التى احل لعباده (يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لايحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق) وقال سبحانه (ياأيها الرسول كلوا من الطيبات واعملوا صالحا انى بما تعملون عليم) وقال سبحانه (لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له : بلدة طيبة ورب غفور ، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم)

فصاحب الأغلال لم يطع الرسول فيما أمر من القصد ، وأوغل فى الدين بغير رفق ، فخسر الرحل والراحلة وانقطع به الطريق.

حرّم على نفسه الطيبات ، وبالغ فى حرمان نفسه رجاء الدرجات العلى عندالله ، وما كان عليه فى ذلك من بأس لو أنه كان من رجاله ، لكنه لم يكن هنالك

وكأنه لما عجز عما كلف به نفسه مما لم يكلفه الله ، وبرم بالزهد ومطالبه ، صادف أن قرأ بعض ما نقل إلى العربية من مذاهب الماديين

فى الحياة، وبعض النظريات القديمة فى النشوء، وبعض محاولات من يحاولون تعميم نظرية نشوء الأحياء على النفس والعقل والروح والدين، فلا يرون هناك إلا المادة، ويرون الدين نتيجة طبيعية لتطور الانسان، لا شريعة إلهية من عند الله بالمعنى المعروف فى الأديان. صادف المسكين هذا فقراً ولم يهضم، وغره نسبة تلك الآراء إلى العلم فأنزلها كلها من الثبوت منزلة واحدة، وقبلها كلها من غير تمييز ولا مقدرة على التمحيص.

ولقد كان بيده وسيلة التمحيص لو أراد ولم يكتسحه سيل الشك الذى فتح على نفسه، كان بيده القرآن الذى كان يوقن عندئذ أنه من عند الله، وأنه كلام الله الذى أنزله على رسوله محمد بن عبد الله؛ فكان يستطيع أن يعرض ماقرأ على ماإستيقن من كلام الله، فما لم يمكن التوفيق بينه وبين كلام الله نبذه من غير تردد لو كان يقينه وإيمانه إذ ذاك قائما على أساس من البرهان، إذ ليس مما يجوز فى عقل تكذيب كلام الله عند من يؤمن به؛ وتصديق نظريات الناس، لكن تدينه فيما يبدو كان أساسه التقليد رغم أنه كان فيه من المتشددين الحمس. فأخذت الشكوك تنوشه، ومر المسكين فى فترات من العذاب النفسى يستطيع أن يتصوره الانسان، حتى استقر أمره تدريجياً على ما استقر عليه ولو لينجو من ذلك العذاب

ولو أنه أطاع الله فلم يقفُ ماليس له به علم من تلك الآراء والفروض المنسوبة إلى العلم والتى يعلم العلم أنها ليست من الحقائق ولا من سنن الفطرة ولكنها تفسيرات لوقائع يقول بها العلم اليوم ويجيزون عليها أن تنبذ غدا، لو أنه اهتدى بهدى الله فى هذا لنجا من الشك وآثاره، لكنه فى اللحظة

التى استيقن فيها ما يجيز العلم بطلانه من النظريات أصبح مستحيلا عليه التوفيق بين كل تلك النظريات المتضاربة ـ حتى فيما بينها ـ وبين يقينيات الدين ، إذ من المستحيل التوفيق بين الحق والباطل مهما اجتهد الانسان . وقد سلم صاحب الأغلال فيما بينه وبين نفسه بباطل تلك النظريات ، فلم يبق أمامه إلا التخلى عما كان يعرف أنه الحق من الدين ، لأن تدينه كان قائما على التقليد لا على البرهان

وقضى الأمر ، وصدّق إبليس ظنه على عبدالله بن على القصيمى فاتبعه ومن المستحيل أن ينقلب متطرف فى الدين متطرفا ضده مرة واحدة ؛ كما يستحيل أن ينتقل البندول من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار دفعة واحدة ؛ لابد من التدرج ولابد من الاستدراج . ويستطيع الانسان أن يتصور استدراج الشيطان لهذا المسكين قبل وبعد إيمانه بما يناقض القرآن . يستطيع أن يتصور كيف زين اليه أن يقبل من أحاديث الرسول وينبذ ، لا طبق أصول علم الحديث ولكن وفق الهوى . ينبذ ما صحح علماء الحديث إذا ناقض الحديث هواه ، وقد يقبل ما رفضوا إذا وافقه . وستجد أمثلة من ذلك فى الكتاب الذى بين يديك نبه اليها مؤلفه المفضال تنبيه محدث خبير ، وبين كيف أن صاحب الأغلال ينبذ من الأحاديث ويقبل ، وطريق ما نبذ هو عين طريق ما قبل . وليس لذلك من تعليل إلا ماذكرت لك ، ولو كان يصدر فى ذلك عن عقل لنبذ الجميع أو لقبل الجميع ما دام الكل قد اتحد فى الاسناد . وأكبر الظن أن صاحب الأغلال قد صار إلى الحال التى لايقبل فيها من الحديث شيئا ولكنه يحتج

بما يظن أن فيه حجةله عند المؤمنين بالحديث

زين لصاحب الأغلال التحلل من الحديث أول الأمر فيما نظن ؛ والاقتصار على القرآن رغم تحذير الرسول أمثاله فى قوله ﷺ «لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر من أمرى ، مما أمرت به أو نهيت عنه، فيقول لا أدرى ! ما وجدنا فى كتاب الله اتبعناه»[1] وكما كان الأخذ فى الحديث بالهوى سبيلا إلى نبذ الحديث ، كان كلاهما سببا إلى القول فى القرآن بالرأى وبغير علم رغم تحذير الرسول أمثاله فى قوله ﷺ « من قال فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار »[2]

وهذا الرجل يقول فى القرآن بغير علم بل وبغير عقل ، لأن أقل ماينبغى على المتعرض للقرآن بعد التزام أصول اللغة أن يراعى سائر القرآن فلا ينقض بعض آيه ببعض ، أى لا يفهم بعض آياته على وجه مناقض لبعض آياته الأخرى . لكن صاحب الأغلال لا يراعى اللغة ولا يراعى امتناع التناقض فى القرآن . فالله سبحانه يقول (قل لن يصيبنا إلا ماكتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وصاحب الأغلال يقول « ثم لنعلم أنه لا خير يمكن أن يصيبنا إلا ماتقدمه لنا أنفسنا وأيدينا وأعمالنا ، تدفعنا أنانيتنا الخالصة الخاصة اليه » . هو لم يذكر الآية ولكن نص عبارته يدل بوضوح أن الآية فى ذهنه وهو يكتب كأنما هو يريد أن

---

(١) رواه الشافعى فى رسالته ص٨٩ تحقيق القاضى أحمد شاكر

(٢) رواه الامام ابن تيمية فى مقدمته فى أصول التفسير من مطبوعات دار الآثار الوطنية بدمشق وتحقيق الشيخ جميل افندى الشطى مفتى الحنابلة فيها

يورد نقيض الآية فى توقح واجتراء

وينكر على الناس فهمهم للقضاء والقدر ، ويزعم أن القضاء معناه الفراغ والانتهاء ، لا معنى له فى القرآن غيره ، وأن القدر بجملته وجملة استعمالاته فى القرآن وفى الشعر أيضاً « يراد به التقدير أى جعل الشيء ذا مقادير معلومة ، أي يراد به جعل الشيء منظما فى كمه وكيفه .. » وكل الآيات التى جاء بها تفيد هذا ولكنها تفيد أيضا التقدير من ناحية الزمن مقداراً وتحديد أجل ، ولو قال هذا لما كان بينه وبين المسلمين خلاف ، لكنه يرى أن اعتقاد المسلمين فى القضاء والقدر من أقوى أسباب تأخرهم فأراد أن يصرفهم عما اعتقدوا بتأويله آيات القرآن لهم تأويلا يتناقض مع آيات أخرى فى القرآن كالآية التى أشرنا اليها آنفا ، وتعمد من غير ذكر لها أن يناقضها بقوله « لاخير يمكن أن يصيبنا إلا ماتقدمه لنا أنفسنا » الخ وكالآية الكريمة التى احتج عليه بها الاستاذ الناقد فى رده : آية سورة الحديد (ماأصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها ، إن ذلك على الله يسير) وصاحب الأغلال لايمكن الا أن يكون حفظ الآيتين فيما حفظ من القرآن أيام زهده وتبتله ، فهو يكتمهما عمداً لأنه لايجد لهما تأويلا لا ينقض مذهبه الذى يدعو اليه ، ولا ماذهب اليه فى فهم آيات أخرى مثل بعض الآيات التى نزلت فى غزوة أُحد .

ويلتحق بهذا الباب تجاهل الرجل الآيات القرآنية التى يعلم أنها تنقض مذهبه فى مسألة الأسباب وخضوعها لمسببها سبحانه ، ومسألة الطاعة والمعصية وأثرهما فى هذه الحياة

الطاعة والمعصية : فعنده ان طاعة الله ومعصيته لا أثر لهما مطلقا فى نتائج السعى والكدح لهذه الحياة . إن كان لهما أثر فأثرهما سيكون فى الآخرة ، أما فى هذه الدنيا فالفعل كله للأسباب المادية والقوانين الطبيعية المسيطرة على الحياة ، والتى يستوى أمامها المؤمن والكافر والطائع والعاصى. بل هو يتجاوز هذا ويزعم أن الله جل جلاله لا يكون عادلا إن هو فضّل فى الدنيا من يطيعه على من يعصيه إذا ما استويا فى العمل، فكيف إذا بَز العاصى المؤمن فى الكدح والجهاد ؟

وليس مُهماً أن يعتقد صاحب الأغلال هذا أو ماهو شر من هذا ، فهو حر فى ذات نفسه إن شاء آمن وان شاء كفر ، لكنه يزعم للمسلمين أن من أسباب تأخرهم وتفوق الأجنبي عليهم اعتقادهم ان طاعة الله تقدم ، وأن معصيته تؤخر فى هذه الدنيا ، وأن اعتقادهم هذا يخالف القرآن

والقرآن الكريم ينقض زعمه هذا، وهو يعلمه . يعلم أن الله قص علينا فى كتابه خبر الأمم الماضية الذين أهلكهم الله لما كفروا به وعصوا رسله ؛ فى سورة يونس وهود والشعراء وغيرها من سور القرآن الكريم : أهلكهم بنفس العوامل التى يقول هذا الرجل إنها طبيعية لا تخضع لسلطان ولا تتأثر بطاعة ولا معصية ـ بالخسف والرجم والأعاصير والسيل والطوفان ـ وأهلكهم بغير هذه العوامل الطبيعية كالصيحة والطير الأبابيل ، فكيف أمكن لهذا الرجل أن يتجاهل تلك السور وأمثالها ويتهكم بمن يسترشد بها ويقيس عليها ، إن كان يؤمن بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر كما يقول فى آخر الكتاب ؟ وإن كان لا يؤمن بكتب الله ولا

بالقرآن فكيف أطمعه شيطانه الغـرور ـ حين زعم للمسلمين ما زعم ـ أنهم سيصدقونه ويكذبون القرآن ؟

ومن عجب أن يحتج صاحب الأغلال لرأيه السخيف بآيات في القرآن لم ترد إلا لتوكيد أن الكفر والمعصية يهلكان وأن الايمان والطاعة ينجيان. احتج لاطراد ما سماه الأسباب الطبيعية بقوله تعالى (ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا) وأبى عناده وأبت خيانته للبحث وروح الحق أن ينظر فى مساق هذه الآيات فى القرآن . ولو كان مخلصاً يريد الحق لرجع إلى مواطن تلك الآيات الكريمة ولعرف أنها كلها سيقت لا لتقرير اطراد السنن التى يسميها طبيعية ولكن لتوكيد أن هلاك الأمم بالكفر والمعصية سنة اجتماعية لله ليس لها تبديل ولا تحويل . ففى سورة فاطر (ولا يحيق المكر السىء إلا بأهله ، فهل ينظرون إلا سنة الأولين ، فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا . أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة ، وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الارض إنه كان عليما قديرا)

وفى سورة الفتح (وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شىء قديرا . ولو قاتلكم الذين كفروا لولّوا الادبار ثم لايجدون ولياً ولا نصيرا . سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) وفى سورة الأحزاب (لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لايجاورونك فيها إلا قليلا . ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتّلوا تقتيلا . سنة الله فى الذين خلوا من

قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا)

إن الله قد علم أن من السهل أن يؤمن الناس كما آمن صاحب الأغلال بأن الظواهر الطبيعية تجرى على سنن ليس لها تغيير ولا تبديل ؛ لكن من العسير الصعب أن يؤمن الناس أن لله فى الاجتماعيات سنناً لاتتغير أيضا ولا تتبدل ، منها هلاك الناس بالكفر والمعصية ، ونجاتهم بالايمان والطاعة . فاقتضت حكمته ورحمته سبحانه أن يلفت الناس إلى هذه السنن المتعلق بها مصيرهم فى الدنيا قبل الآخرة ، وأن يجعل توكيده عدم تخلف سننه مُنصباً على الاجتماعى منها لا على مايسميه الناس بالطبيعى علهم يؤمنون ويعملون بمقتضى إيمانهم قبل أن يمسهم من الله عذاب لا ينفعهم معه إيمان

وكما أن تلك سنة الله فى الأمم فكذلك هى سنته فى القرى وفى الافراد وآيات القرآن فى هذا الباب كثيرة لتحذير الناس من عاقبة الكفر والطغيان مثل (وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين . فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون . لاتركضوا وارجعوا إلى ماأُترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسئلون . قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين . فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين) سورة الانبياء

(ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه ، وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون . ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون . فلولا نصرهم الذين اتخذوا من

دون الله قرباناً آلهة ، بل ضلوا عنهم وذلك إفكهم وما كانوا يفترون) سورة الأحقاف .

وصاحب الأغلال يدعو المسلمين إلى عبادة القوة والمال والانقطاع لهما ؛ وطلب العلم من أجلهما لا من أجل الدين ،حتى يكونوا فى القوة أنداد الغرب وفى المال أنداد اليهود ، متجاهلا كل هذه الآيات وأمثالها رغم علمه بها وترديده لها أيام كان يقطّع الليل تسبيحاً وقرآنا

والافراد شأنهم فى الطاعة والمعصية وأثرهما شأن الجماعات ، يعلم ذلك أيضا صاحب الاغلال ، لانه قرأ خبر قارون فى سورة القصص ، وكيف أنكر أن يكون لله عليه نعمة ، معللا قوته وغناه بما يعلل به صاحب الاغلال اليوم قوة القوى ، وغنى الغنى (قال إنما أوتيته على علم عندى ! أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً؟ ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون)(فخسفنا به وبداره الارض! فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين) قرأ صاحب الاغلال هذا من غير شك كما قرأ نتيجة الحوار بين الكافر والمؤمن اللذين ضربهما الله مثلا للناس فى سورة الكهف (وأُحيط بثمره فأصبح يُقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول يا ليتنى لم أُشرك بربى أحدا . ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا)

قرأ هذه الامثلة الخاصة كما قرأ المثل العام فى قول الله سبحانه من سورة الزمر (وإذا مس الانسان ضر دعانا ، ثم إذا خوّلناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم ! بل هى فتنة ، ولكن أكثرهم لايعلمون ، قد قالها الذين

من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون . فأصابهم سيئات ما كسبوا ، والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين . أولم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ؟ إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون)

ولو شئنا لضاعفنا لصاحب الأغلال الآيات عله يتذكر ويرجع إن كان يؤمن بالقرآن حقا كما يقول ، أما إذا ركب رأسه واتبع هواه وحاول تحريفها كما حرف غيرها من الآى ليثبت أن الله سبحانه لا يتدخل فى الأسباب ، ولا يكشف الضر بالدعاء ، ولا يبسط الرزق أو يقدره كما يشاء ، ولا يسلب النعمة من أحد ينسبها إلى علمه هو لا إلى الله ، كما ينسب صاحب الأغلال مال ذوى المال وقوة ذوى القوة ، وكما يريد من الناس أن ينسبوا ـ أما إذا فعل ذلك فانه يكون قد حقت عليه كلمة الله التى قررها فى قوله سبحانه (وكذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون)

مسألة الأسباب

إن مسألة الطاعة والمعصية وأثرهما فى حياة الانسان فرع من مسألة عامة هى مسألة الاسباب ، وكان من الممكن أن يخرج صاحب الأغلال من مأزق الشك الذى لابد أن يكون وقع فيه فى تطوره الاعتقادى ، بتوفيق مبدئى بين اعتقاده الدينى القديم واعتقاده الطبيعى الجديد لو أنه اعتبر طاعة الله سبباً من الأسباب الفعالة فى هذه الحياة ـ وهذا طبعاً قبل أن يتطرف فى تفسير التطور ويعتبر الروح نتيجة لتطور المادة والطاقة ، ومظهراً من

مظاهرها ، أى فى الوقت الذى كان يعتبر فيه الروح أهم ركنى إنسانية الانسان وان المادة لا اختيار لها . فى ذلك الوقت حين عرضت له مسألة الأسباب الطبيعية وعدم تخلفها كان يستطيع أن ينزل الروح منزلة المادة فى وجوب طاعتها لله ، لانه يقر بأن المادة لا محيص لها من اتباع السنن التى سنها الله لها وإلا هلكت . كذلك الروح لا محيص لها من اتباع السنن التى سنها الله لها وإلا هلكت . ولابد أن تختلف سنن الروح عن سنن المادة بقدر الاختلاف بين طبيعة المادة وطبيعة الروح ، وبقدر امتياز الروح على المادة بأن لها اختياراً وعقلا ، وأن المادة لا اختيار ولا عقل لها . وسنن الله التى سنها للروح تتمثل فى الدين الذى أنزله الله لهداية الانسان . فلم يكن للانسان بد من أن يطيع الدين طاعة لله وإلا هلكت روحه كما يهلك النجم والشجر لولم يطع الله ، غير أن الهلاكين لابد أن يتميزا ويختلفا باختلاف الطبيعتين ومراعاةً لعامل الاختيار العقلى فى الروح . لذلك كانت المادة وما اليها يعجل لها وله جزاء المعصية رأى العين فى الدنيا ، أما الروح فالحكمة فى منحها الاختيار تقتضى تأجيل الجزاء تأجيلا قليلا أو كثيراً حسبما تقتضيه حكمة الله ورحمته ، وإلا فأى فرصة تكون هناك للانسان لو عجل له العقاب أو عجل له الثواب ؟ إذاً لأجبر على الايمان إجبارا لانه يرى الكفر والمعصية تتبعهما العقوبة فوراً ، ويرى الايمان والطاعة يتبعهما الثواب ، وإذاً لتعطلت الحكمة فى منح الروح الاختيار . وهذا الفرق بين الجزاءين من ناحية التعجيل والتأجيل هو سبب خفاء الأثر المادى للطاعة والمعصية الروحيين وإن كان أثرا حتمياً كأثرهما فى عالم المادة

من غير تفريق

فطاعة الله هى إذن السنة العامة فى ملكوت الله فى عالمى المادة والروح ،لابد منها للنجاة والسعادة وإلا كان الهلاك الحتمى الذى ليس منه فكاك . وعالما المادة والروح تتساند قوانين الله فيهما ولا تتناقض، أى لابد للانسان من طاعة الله سبحانه فيهما جميعاً قبل أن تتحقق سعادة الانسان كاملة . ومن هنا جاء تعطل النجاح المادى لبعض المؤمنين الذين هم أكثر طاعة فى عالم الروح منهم فى عالم المادة ، وتكثّر نجاح بعض الكافرين والعاصين الذين هم أكثر طاعة فى المادة منهم فى عالم الروح . وطبعاً هناك درجات كثيرة لا تحصى من الطاعة والمعصية فى كل من العالمين وفيما بينهما وفى نتائج ذلك كافة . فمن الخطأ الكبير التعميم مما يبدو للانسان على سطح الحياة أو فى باطنها لأن الانسان لايمكن أن يرى إلا جزءاً صغيراً جداً مما يجرى ، كما أنه لا يفهم إلا جزءاً مما يرى . ولو فهم كل ما يرى لما أمكن أن يفهمه حق الفهم ؛ لأن ما يراه جزء من كلّ خاضع لله تجرى فيه سننه وتجرى عليه إرادته .

وصاحب الاغلال ومن لف لفه يؤتون من ناحية العجز عن التوفيق بين سنن الله التى يرون انها يجب أن تكون صارمة، وبين إرادته التى يرون أنها تستتبع التنقص من الصرامة ، والتدخل فى السنن بالتغيير والتبديل . وهم حين يرون هذا يقعون فى نفس الغلطة التى يرمون بها خصومهم : غلطة قياس الله سبحانه على الانسان . هم يرمون المؤمنين بالله بأنهم يقيسون الله على أنفسهم فينسبون اليه من الصفات مايجدونه فى أنفسهم وفى عالمهم

ويقعون هم فى نفس العيب الذى يعيبون به المؤمنين بقياسهم إرادة الله على إرادة الناس ، ويخلقون لأنفسهم الصعاب والمشاكل الروحية والنفسية والعقلية بتوهمهم أن إثابة الطائع ومعاقبة العاصى فى هذه الحياة وبعدها تستلزم المحاباة واتباع الهوى بالمعنى الذى عرفوه فى أنفسهم وفى الناس . أفمن المستحيل أن يعاقب الله ويثيب كما يشاء طبق العدل وطبق الحكمة ؟ وإذا لم يكن ذلك مستحيلا فقد انحل الاشكال لوكانوا يفقهون .

الواقع أن العيب الذى يُرمى به المؤمنون من هذه الناحية هو عيب خصومهم وحدهم لا عيب المؤمنين . إن المؤمنين يصفون الله سبحانه بما وصف به نفسه فى كتبه ،فى القرآن والانجيل والتوراة . ولو لم يصف سبحانه نفسه بصفات الكمال لوجب أن يصفه بها العقل - عند من يسلم طبعاً بوجود الله . إن من غير الممكن ولا الجائز فى العقل أن يكون المخلوق مريداً مختاراً ويكون خالقه مجرداً عن الارادة والاختيار . ومثل الارادة والاختيار بقية صفات الكمال . فالغلطة ليست فى اسناد الصفات لله ، ولكن فى تصورها . والفصل بين الحق والباطل فى ذلك هو تحقيق الكمال المطلق اللائق بذات الله سبحانه .

وتقييد الله سبحانه بالقوانين الطبيعية بالمعنى الذى فهمه ويفهمه أمثال صاحب الاغلال هو فى حقيقته ونتيجته تجريد لله سبحانه من الارادة والاختيار . إنه تقييد لا يمكن أن يكون إلا فى الوهم قياساً على فهمهم العدل فى تطبيق قوانين الانسان فى حكوماته ؛ تلك القوانين التى يجب أن تطبق على جميع رعايا الأمة الواحدة ذات الحكومة الواحدة من غير محاباة

ومن هنا القياس الأخرق الذى قاس به صاحب الأغلال حكومة الله على حكومة الناس حتى قال فى كتابه : « وإن حكومة يعامل شعبها هذه المعاملة فلا تسوى بينهم على مقتضى الأسباب والأعمال ، بل تفرق بينهم وتفرق بين نتائج أشغالهم وأعمالهم لأنها تفرق بينهم فى الحب والبغض ، لان منهم الموافقين ومنهم المخالفين على حسب الاحزاب والمبادىء والاشياء الأخرى — ان حكومة تفعل ذلك معدودة من شر الحكومات وهى حكومة لا يصح الاتكال عليها ولا الاعتماد على حكمها ولا الايمان بحكمتها . فكيف يسوغ للعاقل أن يصف الله بهذه الصفة ؟ »

إن صاحب هذا الكلام يرمى المتدينين أو المسلمين بدائه وينسل ، يرميهم بأنهم يقيسون الله على قدر أنفسهم ويقيس هو حكومة الله على حكومة الناس — أهواء وأحزاب وشيع إلى آخر ما هنالك . ثم هو مع ذلك لا يحسن القياس . فالقياس ينبغى أن يكون أساسه الطاعة — طاعة القوانين — والجد والاخلاص فى العمل . فاذا كانت القوانين توجب احترام الحاكم وتعاقب من يطلق اللسان فيه كان من الواجب معاقبة من يخالفها فى ذلك من غير تفريق . وإذا كانت القوانين تقرر عقوبات على مخالفيها فى كل حكومة راشدة كان من الظلم ومن الفوضى أن يسوى بين الطائع والعاصى فى المعاملة فلا يعاقب العاصى ولا يقدر المطيع . فلو كان صاحب الأغلال يعقل ما قاس حكومة الله على حكومة البشر ، أو على الأقل لأحسن القياس

إن قوانين الله فى ملكوته يجب أن تطاع . وأهم هذه القوانين هى

حب الله وتوقيره واتباع أوامره واجتناب نواهيه — هى عبادته كما ينبغى أن يعبد فيما بين الانسان وربه ، وفيما بينه وبين الناس .

هذا هو القانون العام . أما التفصيل فيجده الانسان فى الدين الذى أنزل الله ،وفى الفطرة التى أمر الله الانسان أن يلتمس أسرار الله فيها ؛ فهما ناحيتان متتامتان لكن شتان ثم شتان بينهما، فالمادة مادة والروح روح ؛ والتسوية بينهما كالتسوية بين المعصية والطاعة :خرق وظلم وعدوان

هما مصدران للحق ليس لهما ثالث ولا يمكن أن يكون : دين الله والفطرة . والاسلام هو دين الفطرة ،بل هو بالنسبة للانسان فطرة الله نفسها كما وصفه الله فى كتابه ،وهو وصف لا يمكن أن يكون جاء عن خيال انسان : (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله . ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ودين الله المتمثل فى القرآن أعم وأوسع من العلوم الطبيعية كما نعرفها ،لأنها جزء منه شملتها بعض آياته اجمالا وتركت تفاصيلها يطلبها الانسان بأمر الله . فمن العجب أن يتصور متصور أن يقع بين الاسلام وبين الحق من العلم — طبيعى أو غير طبيعى — تناقض . ومن الخذلان — ونعوذ بالله من الخذلان — أن يتكلف مسلم ما ليس له به علم ، فاذا عرض له فيما تكلف ما لا يتفق مع الاسلام ، لزم ما تكلف وشك فى الاسلام!

إن استباحة الشك فى كل شىء بدعة أصيب بها شباب هذا الزمان يظنونها حرية فكر وانطلاقاً من الاغلال . وقد أصيب صاحب الاغلال بهذه الآفة فكان نتيجتها كتابه وإن لم أجده أشار اليها فيه الا بقوله

« ولا يمكن أن تبلغ أمة من الأمم مبلغاً من الحضارة مالم تشك ومالم تفهم . فالشك والفهم شرطان ضروريان فى تحصيل الحضارة والعلم والقوة والذى لايعرف أن يشك لايعرف أن يفهم » وصاحب الكتاب لايعرف أن يشك لانه لا يعرف شروط الشك السليم، شروط الشك العلمى المبنى على أساس من التفكير العلمى . أما الشك للشك طلباً لحرية فكرية مزعومة وتحللا حتى من قيود التفكير ، فخير منه سهولة التصديق .

إن التصديق بالباطل كالشك فى الحق ، كلاهما بالغ الضرر بالانسان . فالفكر الذى يقبل شيئاً من الباطل على أنه حق يفسد على نفسه كثيراً من الحق الذى لديه ، لان كل تفكير يُدخل فى قياساته ذلك الباطل القليل سيؤدى حتما إلى نتيجة باطلة تعتبر هى أيضاً عند المفكر حقاً من الحق ، فتلد له باطلا آخر بالتزاوج مع الحق أو الباطل الذى عنده — وهكذا دواليك . والشك فى الحق يفقد المفكر قوة هائلة كانت لديه ، بانتقاص جزئيات الحق عنده فلا يستطيع فى التفكير تحليقاً ، كالطائر الذى نتف من جناحيه الريش . لكن ضرر الشك فى الحق لا يقف عند هذا ، لانه يستتبع حتما الاعتقاد فى باطل أدى إلى ذلك الشك ، أو باطل هو ضد الحق الذى شك فيه

فضرر الشك فى الحق مزدوج : لانه يعطل الحق فلا ينتفع به فى تفكير ، ويكثر سواد الباطل عند الشاك فيفسد عليه التفكير . والمسارع إلى التصديق يشترك والشكاك فى عاقبة تكثير سواد الباطل ، لكنه يظل على أى حال منتفعاً بالحق الذى لديه ، والذى لم يفسده الشك عليه .

وأسوأ أنواع الشك هو الشك الدينى ، خصوصاً فى المسلّمات التى أجمعت عليها كل الانسانية فى جميع الأديان مثل وجود الله سبحانه وبعثه الرسل ، وبعث الانسان بعد الموت . وأقل الشاكين فى الدين عذراً مسلم نشأ على الاسلام وقرأ القرآن ولو ببعض فهم ، لأن الاسلام أكثر الأديان احتضاناً للعلم وأوثقها اتصالا به ، وأشدها احتراما للعقل واعتماداً عليه . فلو أن المسلم حين تعرض له الشبهات يتمسك بحبل الاسلام كما يتمسك الغريق بحبل النجاة ، ويتطلب من الشبهات مخرجا ، اذن لوجد المخرج من غير أن يخالف العقل أو اليقينى الثابت من العلم . لكن الشرط الضرورى لهذا ألا يقبل مطلقاً شيئاً غير يقينى الثبوت حتى ولو قال بذلك الشىء فريق كبير من العلماء ، فان وجود فريق من العلماء وإن قل "لا يقول به" دليل كاف على احتمال بطلانه . وقد يكون فى ذاته باطلا فلا يتفق مع الثابت من الدين فيضل المسلم به كما ضل صاحب الأغلال .

وصاحب الاغلال لا يقتصر على قبول كل ما وصل إلى سمعه من أكثر الآراء العلمية تطرفاً ولكن يزيد عليه ويتوسع فيه ما استطاع . فهو مثلا يقبل نظريات التطور بحذافيرها من غير أى نقد لها فيما يبدو وإلا ـ وهو يتأول صريح القرآن بما لا يتفق مع صريح اللغة ولا مع سائر القرآن ـ لوجب أن يشك فى نظريات تطور الانسان لأنها أولى بالشك لانها لا تعتمد فى الغالب إلا على بعض أجزاء هيكل الانسان ـ جمجمة هنا ، أو بقايا هيكل هناك . وأحياناً لا تعتمد إلا على سن واحدة يبتنى العلماء عليها بقية الهيكل ـ فهل من أجل هذا يستبيح مسلم أن

يشك فى القرآن إذا أعوزه التوفيق بين آياته ونظريات التطور فى خلق الانسان ؟ على أن التوفيق بين مبدأ التطور العام وبين القرآن سهل ميسور . وعلى أى حال فالتطور جملة أدل على فعل الله سبحانه لا كما يتصور الطبيعيون .

ويجاوز صاحب الاغلال تطور الاحياء إلى الجماد فيقول بتطوره ولم يقل به أحد ، ويذهب فى ذلك إلى أبعد الحدود ، فيحاول أن يفسر البعث بالتطور بعد أن يؤكد اطراد الترقى التطورى ، واستمرار التطور من غير انقطاع ولا انتكاس ؛ مع أن هذه نقطة كثر فيها الخلاف بين التطوريين . وقد يستقيم له تخيل سماوات غير السماوات وأرضاً غير الارض عن طريق التطور كما حاول فى تفسير (يوم تبدل الارض غير الارض والسموات) لكن التطور المطرد الترقى حتى فى الجماد ان استقام مع هذه الآية فلا يستقيم مع آيات نسف الجبال وانفطار السماء وانتثار الكواكب . وحتى لو استقام مع هذه فلا يمكن أن يستقيم مع بعث الأموات فرداً فرداً مهما اتسع خيال القائل بالتطور الآلى الناشىء عن طبيعة المادة وطبيعة الوجود الذى يقول به صاحب الكتاب

صاحب الاغلال والامانة العلمية :

ومهما يكن تاريخ التطور الاعتقادى لصاحب الاغلال فقد تطور فعلا إلى ما تطور اليه مما يتمثل فى كتابه ويتبدى من خلال الرد عليه . لكن بقيت نقطة لها أهميتها ينبغى التساؤل عنها ، إذ على نتيجة بحثها يتوقف الشىء الكثير من الحكم على بواعث صاحب الاغلال .

هل كان صاحب الاغلال مخلصاً فيما يدعى من طلبه الحقيقة بما كتب ؟
إن الانسان قد يؤتى من ناحية الخطأ فى التفكير أو من ناحية قلة العلم بل قد يبالغ فى الشك من غير مبرر فلا يلحقه من ذلك عار ، لان اخلاصه فى طلب الحق يشفع له . فلننظر أين صاحب الأغلال من الاخلاص

إن أول مانلقى من دلائل عدم اخلاصه فى طلب الحق تجاهله الكثير من آيات القرآن المضادة لمذهبه ـ ان الرجل جابه المسلمين بشيء كثير فلا يمكن تعليل تجاهله تلك الآيات بالخوف من عاقبة بحثها وعرض مذهبه عليها أو تفسيرها تفسيراً يوافق مذهبه الذى ساقه فى الكتاب . وقد كان يستطيع إذا عجز عن التوفيق ان يعرض الأمر من طرفيه فى كتابه مبيناً موقف القرآن الكريم والحجج التى تشهد للرأى الذى لم يستطع التوفيق بينه وبين القرآن ، ثم يطلب إلى أهل العلم والرأى حلا للمشكل الذى وقع فيه . هذا إذا كان يؤمن بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر كما ذكر فى آخر صفحة من الكتاب .

لقد أنكر أن يكون لله سبحانه سلطان على العوامل الطبيعية من نحو تسخيرها لقوم إذا أطاعوه أو إرسالها على قوم إذا عصوه . وقد رد عليه مؤلف هذا النقد الجليل بالآيات القرآنية المقررة لمعجزات الرسل ، وذكرت هذه المقدمة غير ذلك من الآيات القرآنية فى اهلاك الأمم التى أصرت على عصيان الرسل ، وكلا الضربين من الآيات أغفله صاحب الأغلال لكن هناك آيات أخرى تتصل بحياة البشر ولها نفس دلالة الصنفين السابقين

فمن آيات التخويف قوله سبحانه فى سورة الاسراء : (ربكم الذى

يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيما . وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الانسان كفورا ، أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم وكيلا ؟ . أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفاً من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا ؟)

ومن آيات المن واظهار القدرة : قوله سبحانه من سورة النور : (ألم تر أن الله يزجى سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله ، وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء ، يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار)

ومن سورة الروم (ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاؤهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا ، وكان حقاً علينا نصر المؤمنين . الله الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فاذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون . وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين . فانظر إلى آثار رحمة الله .) الآيات

فهذه آيات نص فى موضوعين على الأقل من المواضيع التى خالف فيها صاحب الاغلال اجماع المسلمين ، وهو طبعا يعرفها وكان عليه أن يعرض عليها مذهبه الذى ذهب اليه إن كان لايزال يؤمن بالقرآن

لكن لا يزال هناك احتمال بعيد ضعيف أن صاحب الكتاب لم يكن

يعرف هذه الآيات وأمثالها ومواضعها من القرآن . فهاك آيتين لا يمكن أن يتطرق اليهما مثل هذا الاحتمال ، لأنه استشهد باحداهما وأختها تنقض معناه الذى استشهد عليه، وهما آيتا الأحزاب خطاباً منه سبحانه لزوجات الرسول (وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا . واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة ، إن الله كان لطيفاً خبيراً) . فقد فسر (واذكرن) بمعنى علّمن الرجال والنساء ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة ولم يتعرض لقوله تعالى (وقرن فى بيوتكن) بصرف النظر عما فى معناه الذى ذهب اليه فى (واذكرن) من غرابة وتكلف وبعد .

وهاك شاهدا آخر أظهر من هذا . فقد زعم صاحب الاغلال أن الاسلام يسوى بين المرأة والرجل فى كل شىء ، وأورد دليلا على زعمه قوله تعالى (ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف) وسكت عن بقية الآية (وللرجال عليهن درجة) وهو سكوت ينطق بقلة حظ صاحبه من الأمانه والاخلاص .

على أننا إذا جاوزنا استشهاده بالقرآن إلى استشهاده على سوء رأى بعض أئمة الدين وجدناه يخون فى الاستشهاد هنا كما خان فى الاستشهاد هناك . لكننا لن نستطيع أن نشير إلا إلى مثلين مما كتب فى أمر التوكل على الله وما افتراه فيه على المسلمين .

أول المثلين ما نقله عن عوارف المعارف للسهروردى من حكاية يشنع

بهـا على التوكل والمتوكلين : حكاية القنبرة العمياء التي لما شاهدها أحد المتوكلين في البادية تنشق لها الأرض عن سكرجة فيها سمسم وماء فأكلت وشربت رجع هو عن السعي والطلب . والحكاية موجـودة في السهروردي حقاً لـكن موجود بعـدها غير بعيد منها حكاية المتصوف الذي خرج إلى البادية وأقسم ألا يسأل أحداشيئاً حتى كاد يهلك فنودي ان وعزتي وجلالي لا رزقتك حتى تدخل الأمصار ، فدخل فرزق فنودي مرة أخرى : أردت أن تبطل حكمتي في الأسباب ، ألم تعلم أن رزقي العباد على يد العباد أحب إلي من أن أرزقهم بيـد القدرة ؟ هذا أو قريب من هذا هو خلاصة الحكاية الثانية ، وهي ضد مراد صاحب الأغلال من الحكاية الأولى على خط مستقيم ، وقد كانت الأمانة تقتضي أن يذكرهما معاً أو يتركهما معاً ، لا أن يقتصر على ذكر مايلائم مراده من التشنيع .

والمثل الثاني هو ما افتراه على الامام الغزالي في أمر التوكل ، فقـد اقتبس جملة انتزعها من موضعها فدلت على غير مراد الامام وترك آراء الغزالي في التوكل وشروطه ومراتب أهله الى آخر ذلك التحليل العلمي الدقيق مما تجده في باب التوكل في الاحياء ، ومما هو وما رماه به صاحب الأغلال على طرفي نقيض . لـكن صاحب الأغلال لا يكتب ابتغاء الحق ولـكن ابتغـاء التشنيع . ولا بأس عنده في سبيل تحقيق غرضه من التلبيس والتحريف

والشواهد على عدم أمانة الرجل كثيرة في كتابه نقتصر مما بقي منها على ثلاثة قصيرة ولكنها كبيرة الدلالة .

الأول قوله في باب التوكل أيضاً :

« وفي قواميس اللغة . توكل على الله واتكل استسلم » وإذا رجعت إلى القاموس وجدت « استسلم اليه » لا استسلم فحسب . وحذف « اليه » يوهم الاستسلام لغير الله، وذكرها يقيده بأنه إلى الله ويذهب بكل ما أراد صاحب الاغلال الاستشهاد به عليه، إذ لا حرج على المسلم ـ بل الفخر كل الفخر ـ أن يستسلم إلى الله اذ هذا من المعنى الأساسى للاسلام . هذا واحد .

الثاني أنه أراد أن يتهم أهل الحديث النبوى بالوضع على النبي ما لا يمكن أن يكون ﷺ قد قاله، فأورد فيما أورد حديث « أكثر أهل الجنة البُله » ونقل معناه عن قاموس النهاية لابن الأثير وأسقط ما نص عليه ابن الأثير في آخر شرحه إذ قال « فأما الأبله وهو الذى لا عقل له فغير مراد » . واستباح صاحب الأغلال هذا الاسقاط ليوهم قارئه أن المعنى على المتبادر من اللفظ .

لكن لعل من أظهر الدلائل على خيانة الرجل في البحث بيتاً استشهد به فغير فيه لفظة لو ذكرها على أصلها ما أسعفه البيت بما يريد من النعي به على قوم يزعم أنهم يعبدون قبور أناس بعد الموت وقد كانوا لا ينصفونهم في الحياة : قال « وقد قيل في هذا المعنى أو ما يشبهه :

لا ألفينك بعد الموت تعبدني ... وفي حياتي ما زودتني زاداً

والبيت « تندبنى » كما هو معروف، لكن لا بأس فيما يظهر من مثل هذا التحريف والتلبيس بالحذف والتبديل في مذهب صاحبنا الجديد

والآن لا بد من وقفة عنـد هذه الظاهرة فى هذا الرجل الغريب .
لا نظن الرجل كان يستبيح مثل هذا الغش والكذب فى أيامه الأولى التى حدثنا هو عنها - أيام كان يحذر الآخرة ولا يبالى بالدنيا ، وأيام كان يرجو الله ويخشاه ولا يرجو ولا يخشى سواه . أما بعد أن صار سببياً محضاً ومادياً يرى المادة غاية الحياة ، فقد انقلب عن فضائله الأولى التى عاقته عن بلوغ حظ الناس من الدنيا ؛ وأخـذ يسلك إلى الدنيا سبلها غير متقيد بقيد عله يختصر الطريق إلى ما فاته منها ، فكان هذا الذى قصصنا عليك من خيانته فى النقـل وفى التفكير . والغاية تبرر الواسطة عند من يتحلل من قيود الدين ، على ما فى الغاية عند هذا الرجل من سقوط .

* * *

وبعد فقد طالت هذه المقدمة فوق ما كنا نريد ، لكن لا بد لنا مع ذلك من أن نتلمس وجه العبرة فى هذا المثل الفذ من أمثلة الانقلاب الدينى - مثـل هذا الرجل الذى كان بالأمس من المؤمنين الحُمس فأصبح يرى التدين لا يأتى بخير ، ويرى الدين لا فائدة فيه

أما فرق ما بينه اليوم وبين نفسه بالأمس من حيث السلوك فقـد رأيت طرفاً منه فيما قصصنا عليك . ولو قرأت كتابه لرأيت سُحق ما انقلب اليه : تقرأ له فتقول دهرى يتكلم ، ثم تقرأ فتقول صهيونى يتكلم ، ثم تقرأ فتقول شيوعى يتكلم . ولعل فى هـــذا ما يفسر طلبه الدنيا عن طريق مناصبته الاسلام العداوة ، ومبالغته فى ذلك حتى ليخيل إليك أنك إزاء كلب أو ذئب عقور يحاول أن يعقر من الاسلام كل ما يرى لولا أنك ترى

أحيانا من خداعه وختله ، ودورانه ولفه ؛ مايذكرك أنك تجاه عدو يكيد ولكن كيد مفتون مغرور .

فلنترك الرجل وما اختار لنفسه ،ولنتساءل كيف أمكن أن يقع مثل هذا الانقلاب ؟ كيف أمكن أن يأتى الرجل مصر متديناً زاهداً متشدداً كما يقول ثم ينقلب فيها إلى ما انقلب اليه ؟ أى وسط وأية بيئة مصرية أثرت فى الرجل ذلك التأثير ، ونقلته تلك النقلة ؟

إن المشتغلين بالاصلاح فى مصر لا يستغنون عن كشف تلك البيئة والعوامل فيها ، فانها إذا كانت قد أثرت ذلك التأثير فى ذلك الزاهد الأحمس على حد وصفه لنفسه فى طوره الاول ، فأى تأثير يكون لها فى من يتعرض لها من شبابنا وليس لهم من الوقاية الدينية ما كان لذلك المسكين ؟

على انه سواء عرفنا تلك البيئة أو لم نعرفها فلا مناص لأولى الأمر القوامين على المسلمين فى مصر وفى غير مصر من أن ينظروا بجد فى هذا المشكل ، مشكل صيانة النشء الاسلامى ووقايته مما استجد فى البيئة الاسلامية من العوامل الهدامة للدين فى النفوس . والعبرة فى صاحب الاغلال من ناحيتين : ناحية تربيته الدينية الأولى فهذه ثبت أن مثلها لا يصون ولا يقى . فيجب أن نتجنب مثلها فى تربية نشئنا . والأخرى ناحية البحث عن تربية اسلامية صالحة تصون وتقى وتكفى على الأقل لرد عادية الشبهات الحديثة التى لابد أن تعرض للمسلم فى هذا العصر الحديث حتى إذا وجدوها — ووجودها ميسور — اتخذوها ونفذوها على الوجه الذى يكفل تحقيق الغرض منها فى بيئات التعليم والتربية على اختلافها .

ولابد من اختلاف فى صور تلك التربية يناسب الاختلاف فى تلك البيئات . لكن الروح يجب أن تكون واحدة . روح القرآن وروح العلم الطبيعى : علم الفطرة التى دينها الإسلام .

وإلى أخوى فى الاسلام اللذين أتاحا لى فرصة التعبير عن هذه الآراء خالص تحيتى وشكرى ، ثم خالص دعائى أن يجزيهما الله عن الاسلام وأهله خير الجزاء .

محمد احمد الغمراوى

شعبان سنة ١٣٦٧

يونية سنة ١٩٤٨

نأسف لوقوع بعض أخطاء فى هذه المقدمة ، فقد وقع فى صفحة (س) فى السطر الرابع كلمة (رجال) وصوابها (رجالا) وفى السطر العاشر منها كلمة (الرسول) وصوابها (الرسل) .

كلمة الأستاذ الأديب سيد قطب

نشرت بمجلة السوادى

هذى هى الاغلال

لم أكن أنوى أن أكتب شيئا عن هـذا الـكتاب ، لا خيراً ولا شرا . فلعل صاحبه أن يصل إلى أهدافه الحقيقية من طريق الشر والخير سواء .

وللكتاب وصاحبه معى قصة ما كنت لأفشيها للناس لولا أنهـا تكررت مع غيرى فلم تعد سراً .

أهدى إلىّ الرجل كتابه ، ومضت فترة لم أكن قد فرغت فيها لقراءته . ثم تفضل فزارنى مع صديق كريم عزيز أحمل له فى نفسى وداً مكينا ، وسر لى الصديق ثم أعلن أنه وافد إلىّ فى مهمة . إن حرية الفكر فى خطر .

فهذا الرجل صاحب الكتاب قد عنت له أفكار وآراء جريئة فأودعها كتابه ، وخصومه من الرجعيين والنفعيين فى الحجاز يدسون له هنـاك . وأنه على وشك أن يستدعى لمحاكمته ، وربما لشنقه ! وأن علىّ ككاتب يقدّر رسالة الفكر أن أشارك فى الذود عن حرية الفكر الموشكة على الاختناق .

ولم يكن بد من أن أتحمس فى أول الأمر فعزيز على صاحب فكر وقلم أن يسمع ويرى خنق حرية الفكر ولا يتحمس أو يثور ، ووعدت أن أفعل فى حدود ما أستطيع .

وجلس الرجل وأخذنا بأطراف الحديث — فى دارى — وشيئاً فشيئاً بدأت أشم رائحة فى الحديث . رائحة ليست نظيفة .

هذا رجل يريدنى على أن أفهم أن الانجليز فى الشرق قوم مصلحون لا مستعمرون . وأن وسائلهم فى الشرق أرقى وأكرم من وسائل المسلمين عند ما استعمروا الشعوب .

وليس — المسلمين — هم الأتراك مثلا فأجد عذراً ؛ ولكنهم أصحاب محمد بن عبد الله وعمر بن الخطاب . بل القرآن الذى أباح التخريب والتمثيل .

وكان ذلك كله رداً على ما قلته له : من أن الاستعمار لا قلب له ولا ضمير . وأن الحضارة الأوربية الحديثة تستخدم وسائل غير إنسانية فى الحروب وغير الحروب .

إن المسلمين صنعوا تلك الشناعات وبعد ما صنعوها جاء القرآن ليبررها لهم ، « ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فباذن الله » ! ولم يرد أن يستمع إلى حديثى عن وصايا النبى للقواد ، ولا إلى وصايا خلفائه الانسانية الرحيمة .

فليكن ! فقد تكون تلك عقيدة يجاهر بها صاحبها ويتحمل تبعاتها ونتائجها ! ثم ماذا ؟

ثم يجب أن ننفى العنصر الاخلاقى من حياتنا . فالحياة لاتعرف العناصر الخلقية ، ولا قيمة لها فى الرقى والاستعلاء . هذا والمسلمون لم يكونوا فى أى عصر من عصورهم حتى أيام محمد إلا فساقاً فجاراً . وهم الآن فى البلاد المحافظة أفسق وأفجر ، ولا عبرة بهذا كله . فقد كانوا أقوياء وهم فساق فجار لأنهم آخذون بوسائل الحياة المادية ، وهم ضعفاء اليوم — مع فسقهم وفجورهم — لأنهم لا يأخذون بوسائل الحياة المادية .

والمعول على هذه الوسائل ، لا على بر أو فجور !

فليكن أيضا ، فقد تكون تلك عقيدة الرجل ، وأنا مستعد أن أستمع لكل عقيدة يجاهر بها صاحبها ، ويتحمل تبعاتها ونتائجها .

وطال الحديث . وأنا — بعد هذا كله — لا أزال معتزما أن أقرأ الكتاب ، فان وجدت فيه حرية رأى حقيقية وفكرة ناضجة قوية . دافعت عن الرجل ولو خالفته فى فكرته كل المخالفة !

ثم عدت إلى الكتاب . وهنا تحول شعورى إلى اشمئزاز عميق .

هذا رجل ينافق يريد أن يطعن الطعنة فى صميم الدين خاصة ثم يتوارى ويتحصن فى الدين وينكر ماقد يفهمه القارىء من بعض النصوص ومن روح الكتاب كله ، وراء النصوص .

ثم هذا رجل يسفسط ولا يأتى بشىء «دون كيشوت» جديد يطعن فى الهواء ويحارب أفكاراً لم يعد لها وجود منذ خمسين عاما على الأقل .

ثم هذا رجل يسرق أفكار غيره بالنص ، وينكر أن يكون قد قرأ شيئاً عن هذه الأفكار .

ثم — وهو الأهم — هذا رجل مريب !

١ — « فطبيعة المتدين — غالباً طبيعة فاترة ، فاقـدة للحرارة المولدة للحركة المولدة للابداع »

« ونرجع لنكرر مرة أخرى أن الدين نفسه لا ذنب له ولكن الذنب ذنب النفوس البشرية التى لم تستطع أن توجد التعادل بين الكفتين والتوفيق بين الروحين : روح الدين ، وروح العمل للحياة »

هكذا : طبيعة « المتدين » غالباً طبيعة فاترة فاقدة للحرارة . الخ . ثم « الدين نفسه لاذنب له » وأمثالها فى كل موضع كثير ؛ والحديث عن الخلق كالحديث عن الدين ، فهو دائماً ضد العنصر الأخلاقى يراه قيداً معجزاً وضعفاً زريا . ثم يتوارى بعد هنيهة وينكر ما تنطق النصوص .

هذا رجل تنقصه الجرأة على أن يقول ما يريد أن يقول ، وإذن فلا حرية فكر ، ولا خطر على حرية الفكر ! إنما هى دعوة خبيثة ملتوية ضد التدين ، وبخاصه الاسلام وضد الروح الخلقية فى النفس والضمير !

٢ — مَن من الشعوب الاسلامية الآن يكتفى فى مجاهدة الغربيين بالدعاء بأن يحرق الله بيوتهم وييتم أطفالهم ؟. الخ

قد تكون هذه بعض دعوات المنابر التقليدية ولكن الشعوب هذه هى تجاهد وتقاوم وتكافح وتثور وتسيل دماؤها فى كل مكان . ولكن المؤلف لا يرى فى المسلمين إلا هؤلاء الداعين على بعض المنابر ويجىء بكتابه ليقول : إنكم جميعا — سواء — أخطأتم الطريق

بالاقتصار على هذا الدعاء .

وهكذا معظم كفاحه لتصحيح أفكار المسلمين « دون كيشوت » يطعن فى الهواء وينازل الأشباح ، ويحارب الأفكار التى حاربها الزمن منذ خمسين عاما أو تزيد

٣ — وفصل ضخم — هو أحسن فصول الكتاب — عن الايمان بالانسان وهو عنوان كتاب للاستاذ عبد المنعم خلاف ، ولا يشك إنسان فى أن مؤلف الأغلال انتفع بهذا الكتاب انتفاعا كاملا تاما ، وليس فى هذا من حرج . ولكن الرجل حينما سمع منى اسم الكتاب أبدى انه لم يسمع به أصلا . . لم أحترم هذا التجاهل ، لانه ليس سمة الباحثين المخلصين .

٤ — « نؤمل اليوم أن تحمينا بريطانيا وأمريكا من هذا الغزو المخيط الماحق (الغزو الصهيونى) مع انهما هما الخصمان ! إننا نخدع أنفسنا كثيراً ونضللها حينما نظن أن فى حولنا — لو تخلت هاتان الدولتان — أن نحمى أنفسنا بقوانا الخاصة من غزو الصهيونية وأخطارها ، فالصهيونيون مسلحون اليوم بأعظم وأحدث القوى العلمية والصناعية والمالية والفكرية والدولية ؟ أما نحن فنكاد نكون مجردين من كل ذلك »

وإذن فعلينا أن نبدأ فى الاستعداد لحماية أنفسنا وإلى أن نستعد يجب أن نحافظ على بقاء قوة انجلترا بجانبنا لتحمينا من الغزو الصهيونى !

هنا رائحة ما !

هذا رجل لا يخاف عليه من اعتقال ولا شنق ولا سواهما ، انه رجل

يعرف طريقه جداً فلا داعى للخوف الشديد !

وعلمت أن الاسطوانة التى أُديرت على أذنى أديرت على آذان الكثيرين واستنهضت بها أريحية الكثيرين ، وقد تحمس الأستاذ اسماعيل مظهر فكتب كلمه قوية فى الكتلة عن الكتاب . وأنا واثق أنه لم يقرأه إلى نهايته . وإلا فلن تفوت فطنة الأستاذ اسماعيل أن تتبين فى ثنايا الكتاب شيئاً غير نظيف !

وكنت بعد هذا كله على نية أن أسكت لولا أن وجدت بدء ضجة مفتعلة تعطى الكتاب أكثر من قيمته وتصور المسألة فى غير صورتها ولابد أن الأستاذ السوادى وأنا أعرف أريحته — قد تأثر بالاسطوانة المثيرة ففتح صدر جريدته للدفاع عن حرية الرأى المهددة بالشنق ، لقد كنت على استعداد أن أدافع عن الرأى المخالف لو وجدت شيئاً ذا قيمة ، ولو وجدت إيماناً حقيقياً بفكرة ، ثم لو لم اشم هنا وهناك رائحة شىء ما ؛ شىء غير نظيف ؟

١٣٦٧ — ١٩٤٨

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله كما حمد نفسه ؛ والصلاة والسلام على خير خلقه المصطفين خصوصاً خاتم المرسلين محمد وعلى أصحابه بدور الهداية وشموس الرشاد وآلهم ومن تبعهم على صراطهم المستقيم الى يوم الدين .

(وبعد) فلما ألف علامة القصيم الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدى رسالته المسماة (تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي فى اغلاله) لم يذكر فيها نصوص كتاب « هذه هى الأغلال » بألفاظها ونصوصها بل اكتفى بذكر معانيها اختصاراً ، مشيراً إلى أرقام صفحاتها استقذاراً لها واحتقاراً ، ولكن دعت الحاجة لذكرها نصاً لأمرين (أولهما) قطع شغب المشاغب وجدل المجادل والمعاند ، بدعوى أن الشيخ لم يفهم تلك النصوص فغلط فيها (ثانيا) أن تكون عمدة لمن ليس عنده الكتاب « الاغلال » فى حكمه عليه وعلى صاحبه بنفسه .

وربما زدت شيئاً يوضح غرض الكتاب ومرامى مؤلفه وأهدافه التى يرمى إليها بعبارته الملتوية ونفاقه المقنع وجبنه عن الصراحة والصدق اللذين هما أهم سند الدعاة المصلحين الذين يريدون الخير لأنفسهم وللناس اجمعين . وهاك نصوص نصوصه وما أردت نقله ورده .

آخر صفحة ١٥٦ وأول ١٥٧

(ويشهد لذهابه — يعنى النبي ﷺ — فى حب الجمال مذهب الكمال أنه كان دائماً يحتضن الطبيعة ويحنو عليها ويعمل على اجتلائها وعلى الخلوة بها)

فهذا هو فهم الماديين الذين ينكرون ماوراء المادة من عالم الغيب كرب" العالمين وملائكته ووحيه لصفوة خلقه وتصويرهم للنبوة والرسالة والوحى السماوى الذى يؤمن به أهل الأديان جميعا وينكره الماديون الدهريون. لخص الكاتب فكرهم بعبارة مقتضبة مبهمة مبرقعة ـ وسيأتى تبسيط فكرته فى غضون كتابه وإسفار وجهها مما لا تحتاج معه إلى استنتاج ، بل نقل النصوص بألفاظها كاف واف للحكم على مرامى الكاتب وأغراضه وأهدافه .

ثم وصف خروجه ليلا إلى البقيع لزيارة قبوره ووصف حاله حينئذ فقال (ص ١٥٧)

« انه فى الصحراء انه يناجى السكون والظلام والنسيم والسماء . . . . انه يخاطب ماحوله بلغة هى فوق الحروف والالفاظ . إنها لغة تموت عندها الالفاظ والحروف . . انه يرى فى الكواكب فوق الاشراق والارتفاع والنظام والدوام فتمتلىء نفسه الكبيرة بهذه المعانى . ويذهب تصوره لها إلى أن رسالته يجب أن تشرق إشراقها وترتفع ارتفاعها ، وتدوم دوامها ، وتنتظم انتظامها ، انه يغمره من هذا الاشراق والانتظام والدوام مايرفع عن نفسه الحدود والقيود والعوائق والموانع انه يقفل من هذا المشهد الرائع معتقداً أنه لا شيء يستطيع أن يقف فى طريق الجمال الذى تزود به مما شهد ورأى والذى قفل به ، عن أن يتم وعن أن يأخذ طريقه إلى الوجود ، انه رأى قمراً واحداً وسع نوره الكون ، وشهد

سماء واحدة قد أظلت الوجود وانه الآن ليرى قلباً واحداً يستطيع أن يتسع للوجود وأن يملأه ضياء وحرارة . . . .

انه لا يستطيع فراق الطبيعة لانه لايستطيع فراق الجمال . . . إن الليل والنهار والظلام والضياء والشمس والقمر والكواكب والنجوم والكسوف والخسوف والرعد والبرق والغيم والصحو والرياح والنسائم والجبال والسهول والانهار والغدران وكل النبات والحيوان وكل ساكن ومتحرك ان كل شيء من هذا ليأخذ بلبه وببصره ويلهمه الجمال»

أما وحى السماء ونزول الروح الأمين على قلبه وقرآن منزل عليه من رب العالمين لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً ولو اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثله أو بسورة منه ما فعلوا ولن يفعلوا ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، فهذا كله ليس له موضع فى تفكير كاتب الأغلال ولا يستحق قليلا ولا كثيرا من جهوده وعنايته التى وجهها لتقرير المذهب المادى وتوضيحه فى كل مناسبة من كلامه وفى غير مناسبة كما سيأتى ذلك مبسطاً موضحاً .

أول ص١٥٨

« لقد بدأ رسالته بالخلوة بالطبيعة ومناجاتها فوق غار حراء وختمها بمناجاتها أيضاً وهو فى حجر عائشة بينما كان يجود بأنفاسه فلقد كان فى تلك الساعة شاخصاً ببصره إلى السماء لايحوله عنها هول ولا أهل ويقول (اللهم الرفيق الأعلى)

ونقول للكاتب :الرفيق الأعلى ليس هو الطبيعة ،وقصة زيارته ﷺ للبقيع كانت لزيارة القبور والسلام على الأموات المؤمنين فيه. وسؤاله الله تعالى الرفيق الأعلى كانت دعاء لله تعالى أن يلحقه بأهل الرفيق الأعلى من

الملأ الأعلى فى أعلى جنات الفردوس التى هزأ بها الكاتب وبالمؤمنين بها آخر كتابه ، فرويداً حتى تمر به فى حينه .

لهج الكاتب بذكر الطبيعة وتفريقها بين الانسان والحيوان (ص٥٥ـ ٥٧) وقرر نظرية داروِن الطبيعى الانكليزى « أن الانسان مترقّ عن الحيوانات التى دونه كالقرود ونحوهم » وليس مخلوقا من تراب وطين مسنون كما أخبر الله بذلك فى كتابه ، فقال (ص ٤٧)

«لامحالة من أن نتصور الانسان فى بداية وجوده عارياً من كل معرفة كما كان عارياً من كل لباس . . .

واستنتج ذلك من حال الطفل يأتي إلى هذه الدنيا حينما يأتى عارياً من جميع المعارف فقال

«وجاء إلى هذه الحياة — ولا مجال للجدل كيف جاء[1] — كما يجىء الأطفال اليوم على أحسن تقدير على أن من الواجب أن نعتقد أن هنالك فرقاً عظيماً من حيث الاستعداد والطاقة بين أطفال اليوم والانسان الأول لأن أطفال اليوم يحملون فى دمائهم تراث الآباء والاجداد كله بخلاف الانسان الأول الذى جاء لا يحمل معه سوى ماورث من منبته[2] إن كان فيه مايورث . نعم جاء إلى الحياة كما يجىء أطفال اليوم من حيث التجرد من كل معرفة ومن كل لباس لا يعرف لغة ولا كتابة ولا إشارة دلالة على الكلام »

ثم سار فى وصف جهالات الانسان الأول ، وعدم فهمه للأمور

---

(١) لم يفصح الكاتب بما يعتقد فى كيفية مجىء الانسان الأول أبى البشر جبنا منه عن الافصاح وإن كان قد لوح بذلك تلويحا هو كالتصريح (٢) يريد أصله الحيوانى الذى ترقى عنه .

حوله ، وفزعه من الرعد والبرق والريح ونزول المطر وجريان الانهار . ورعبه من الظلام ، وتخيله الأشباح المؤذية المهاجمة . الخ إلى أن قال (ص ٤٨)

« فراح يعبد كل مايرى أو يسمع عبادة ساذجة حقيرة، فكان الانسان إذ ذاك يتلخص فى شيئين : فى الجهل المطلق لكل شىء وفى عبادة كل شىء متقلب مضطرب ونعود فنقول مرة أخرى ان أحسن وأصدق صورة ترسم للانسان فى ذلك العهد هو الطفل من حيث العرى من كل لباس علمى وبدنى »

ثم سار فى شرح نظرية تطوره من الحيوانية إلى أن قدر أن يتفاهم بالأصوات التى لا مقاطع لها ولا معاني كالأطفال سواء حينما يلحون فى طلب حوائجهم بالبكاء والصراخ فقال (ص ٤٩)

« ثم ترقى بقصد أو بغير قصد [1] بأن ذهب يتخذ لنفسه طريقة للتفاهم والتخاطب أفضل من التصويت المبهم فذهب يتخاطب بالاشارات والحركات — إلى أن ظفر بعد مالا يمكن تخيله من العناء والمشقة والزمان بما يصح أن يسمى أول لغة انسانية ذات مقاطع وحروف مفهومة . . . »

ثم شرح كيف اهتدى للكتابة والصناعات الخ . بما هو تطبيق لنظرية النشوء والارتقاء ، وخروج الانسان الاول آدم الذى خلقه الله بيديه وأسجد له ملائكته ، وعلمه أسماء كل شىء ، خروجه من نحو القردة لايفهم ولا يتكلم ، ويفزع من كل شىء ، ويعبد كل شىء مما حوله . الخ واقرأ من (ص ٤٧ — ٥٤) من أغلاله

هذا ومناقضة هذه النظرية لنصوص الديانات لاتخفى على من تأملها ،

---

(١) يعنى ولا دخل للعناية الالهية ولا لهداية الرسل فأين قول الله تعالى (ولو شاء الله مازكا منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكى من يشاء) (وعلم آدم الاسماء كلها)

وعرف ماجاء على ألسنة الرسل كلهم فى كيفية خلق أبيهم وأبينا آدم ﷺ

واسمع كلام أهل العلم الحديث الآن فى هذه النظرية على لسان عالم من علماء الأحياء هو «لوكنت دى نوى» مؤلف كتاب «مصير الانسان» الذى قرظه الدكتور «روبرت مليكن» الحائز لجائزة «نوبل» فى علم الطبيعة بقوله «يأتي بالبراهين العلمية على زيف الفلسفه المادية، ولست أعرف أحداً سبقه إلى هذا، وما من أحد يستطيع حمل هذا العبء مالم يتمرس بأحدث مكتشفات الرياضة والطبيعة والكيمياء وعلم الأحياء ووظائف الاعضاء. إنه رجل يبنى للحق فى العلم والدين، وكتابه من القوة والسداد بحيث لا يتيسر مثله أكثر من مرة أو مرتين فى قرن واحد» اه

ويقول فيه «ملتون أورسفر» من كتاب صحف أمريكا الشهيرة «منذ وضع «دارون» نظريته فى التطور أخذ الشك فى قواعد الدين المسيحى — قلت: والاسلامى (١) والموسوى — ينتشر وفتن الناس بأن يعدّوا الانسان وليد المصادفة فى عالم الأحياء، وأن ينكروا وجود الروح وحريتها فى أن تختار بين الخير والشر، وأن يروا الحياة شيئا لا غرض له ولا معنى، وأصر أهل الشك أن العلم قد صرع الدين

«بيد أنا نسمع اليوم صوتاً جديداً. صوت عالم ينادى بأن العقائد القديمة صحيحة كلها، والداعية الجديد إلى الايمان بالله هو عالم من علماء الاحياء

---

(١) مع الفارق الكبير، ان الشك الذى ترتب على نظرية داروان فى الدين الموسوى والمسيحى كان عاما أو شبه عام، أما فى الدين الاسلامى فكان خاصا ببعض مقلدة الغرب من المسلمين (غ)

اسمه الدكتور «لوكنت دى نوى» وقد كان من قبل أحد علماء معهد روكفلر ومعهد «باستور» وقد كشف فى كتابه العجيب (مصير الانسان) عن نظرية جديدة للتطور، وحاول من طريق العلم والمنطق أن يثبت ما كان مثاراً للجدل من المعانى السامية التى تاقت اليها نفوس البشر منذ أول عهدهم بالحياة كحرية الارادة ومعنى الحياة والخلود، ووجود الله سبحانه وتعالى، فيجعلها حقائق لا مماراة فيها

« يستهل عالم الأحياء «دى نوى» كتابه باعترافه بأن العلم عرضة للخطأ فينبغى لنا أن لا نثق به ثقة عمياء، فليس فى هذه الدنيا شىء نستطيع أن نعرفه معرفة كاملة مطلقة، وحواسنا الخمس يشوبها نقص، وأدواتنا العامية لن تبلغ الكمال فى دقتها (تأمل)

« وليس فى طاقتنا أيضاً أن نعرف الحقيقة، فاذا مزجت الدقيق بالسناج (١) كان لك منهما مسحوق أغبر؛ فلو سارت حشرة دقيقة بين حبيبات هذا المسحوق الأغبر لكانت هذه الحبيبات فى نظرها صخوراً ضخمة بيضاء وسوداء، فلا وجود لهذا المسحوق الأغبر كما نراه نحن فى تقدير هذه الحشرة، ونحن نعيش فى كون لا يحيط به إدراكنا، فكل رأى نراه فى شأن الحقيقة إنما هو رأى نسبى فى هذا الكون الجبار (تأمل) تجد العلم يعبث بأجزاء ضئيلة من المعرفة، ولكن المهاوى التى تفصل بين ما نعرفه من الحقائق إنما هى مهاو رحبة عميقة، ونحن نعيش على كرة عمرت حوالى ألفى مليون سنة وعلى هذا المسرح العظيم تمت روائع التطور ولكن

---

(١) الهباب أو غبار الفحم أو الدخان

كيف رفع الستار عنها ؟ لقد استحال علينا حتى اليوم أن نعرف معرفة دقيقة كيف بدأت الحياة ؛ بل لا نرى أحداً قد تمكن من أن يشرح لنا أصل الحيوانات الفقارية التى ننتمى نحن اليها (اسمع)

إن تاريخ التطور كله مشوب بالأسرار الغامضة ، فكل خطوة كبيرة خطاها الأحياء إلى الأمام قد تمت على رغم مناقضتها لنواميس الاحتمال العلمى المحكمة . وكل تقدم من أدنى إلى أعلى كان ارتقاء بعيد الاحتمال

خذ ـ مثلا ـ تلك اللحظة التى بدلت فيها الحياة نهجها فى التناسل ، فقد مرت ملايين من السنين وخلايا « البروتوبلاسمة » تتكاثر بالانشطار كأن فيها حياة خالدة(١) ثم ظهر فجأة أسلوب جديد ، فذ فى التناسل ـ هو التزاوج ـ ومن أدعى الأمور إلى العجب أن الموت (١)جاء قريناً للتناسل الجنسى حين طرأ هذا التناسل على الحياة

إلى أن قال : إن الثلوج التى تذوب على قمم الجبال تصبح جداول وأنهاراً متدفقة وهى فى طريقها منحدرة إلى البحر ، وهى تنحدر استجابة لناموس لا يرد وهو « ناموس الجاذبية » أما فى التطور فان الحياة لم تنحدر إلى أسفل بل ترقت صُعداً يستحثها ناموس لا يرد كناموس الجاذبية .

(١) يرى بعض علماء الاحياء أن البكتريا أو الجراثيم لا تموت لتكاثرها بالانشطار كل جرثومة تنشطر الى جرثومتين وهلم جرا .فلو هيئت لها الظروف لظلت تنشطر هكذا الى الابد ،ويغفلون عما تحت (لو) هذه من القيود الهائلة ،فان البكتريا تموت اذا جفت وبالتعقيم وبالحرمان من الغذاء .هذا الى أن كل شطر من الاشطار ليس هو عين البكتريا قبل الانشطار .فالقول بخلود البكتريا قول بعيد عن الدقة كما ترى (غ)

ومنذ كان العالم صعدت الحياة فى هذا المعراج فبدأت مادة لا شكل لها، ومضت علواً حتى صار إنسانا له عقل وضمير

فهل عمى العلم عن البينات التى تدل على النهج والنظام فى التطور ؟ كلا فان الحياة فى ترقيها المتواصل كثيراً ما خالفت نواميس الاحتمال الثابتة حتى لنرى أشد الماديين عناداً مضطراً إلى التسليم بوجود قوة مجهولة ..

ولم يكن للماديين بد من أن يطلقوا اسماً على هذه القوة المجهولة لكى يتمكنوا من أن يدخلوها فى نطاق تفكيرهم . ولما كانت جوانحهم منطوية على نفور من اسم الله وصفوها بقولهم «عدو المصادفة» وماداموا يعترفون بوجودها فليسموها ماشاءوا . وقد ظلت الحياة تعمل ألف مليون سنة إلى أن صار الانسان مخلوقا مفكراً وهى خاضعة لسيطرة حافز أصيل هو حافز البقاء، ثم ظهر خلق جديد من البشر ظهر أنه خاضع لقوة جديدة — فكرة الخير والشر — التى يبذلون المهج فى سبيلها . ثم يقول « من الواضح أن زمام التطور فى المستقبل سيكون فى أيدى الأخيار من الناس، ولكن ماهو الخير وماهو الشر ؟ أما الماديون فينكرون وجود الخير والشر وأما « دى نوى » فلا يكتفى بتوكيد وجودهما بل يسعى إلى تعريفهما أيضاً —إلى أن قال — فالخير ينبغى أن يكون أيضاً احتراماً للشخصية البشرية، والشر هو ما كان احتقاراً لها

وإذاً فينبغى أن لانيأس إذا كان الاخيار ندرة فى هذه الدنيا، فان هذه القلة هى التى ستسير بالارتقاء قُدماً شأنها اليوم كشأنها فى ملايين السنين . وهذه القلة سوف تكون طليعة سلالة جديدة، وأسلاف

الانسان الذى بلغ كمال النمو الروحاني — إلى أن قال

« إن كثيرين من الناس ينظرون إلى المخترعات الحديثه كأنها دلائل الحضارة الحق . بيد أن مثلنا الأعلى ينبغى أن يكون كرامة البشر لا راحتهم . أساء البشر الاختيار بين الخير والشر ، فالعقل يشير بالمطابقة للمألوف والملاءمة والتراضى . ولن يشير بالثورة والمقاومة والتطور ، وانك لاتجد فى تاريخ البشر رجلا ذهب شهيد الرأى المتزن . ولذلك ترى الذكاء وحده خطراً ، فهو وحده الذى صنع القنبلة الذرية ، وإذا الناس يدركون أن ظفر العلم يهدد أمنهم وسلامتهم ، فصار الصراع بين الذكاء والمبادىء الاخلاقية مسألة موت أو حياة للناس

ومما يؤسف له أن هناك كثيرين من الناس لايزالون يعدون الانسان حيواناً راقياً لا أكثر ، ولذلك نراهم لا يثبتون سوى حلول حيوانية لمشكلات البشر .

وضرب مثلا بسياسة الطغاة الذين يجندون الناس ويعبئونهم كالحشرات .. ثم قال « ومن هنا ترى الرجل الذكى محيراً لانه لا يستطيع أن يدرك الله الذى لاتدركه الابصار على صورة يفهمها : أهو جبار ذو لحية على صورة الانسان ؟ ففى هذا العصر عصر العلم يسهل الرد على السؤال ، فمن ذا الذى يستطيع أن يتصور الالكترون(١) وكل عالم يقول لك : إن الالكترون شيء لايمكن تصوره ، ولا يسعك أن ترسم شكله وليس ثمة رجل قد رآه ، فالالكترون الذى لا يُرى موجود وإن تعذر علينا أن

(١) هو الكهيرب أو ذرة الكهربائية السالبة

تصوره ، فما ظنك بالله الذى لاتدركه الابصار ، والذى ليس كمثله شىء ..

« إننا نعرف قوانين الأخلاق وفى وسعنا أن نلتزمها ، وأهم من هذا نستطيع أن نعود إلى العادة القديمة عادة تهذيب الشباب وتقويم أخلاقهم ، فالكفاح من أجل المستقبل ينبغى أن يبدأ فى المدرسة ، لأن التعليم سلاح من أسلحة التطور ، ونحن نربى صغارنا اليوم يحشون عقولهم بتفاصيل لاتجدى

أما الأخلاق التى لا غنى عنها فيمرون بها مر الكرام ، فكأنك تعلم الزراع أن يزرعوا الأزهار دون أن تعلمهم كيف يحرثون الارض ، فلمَ لايفكر أحد فى تعليم الخلق للصغار؟ إن العالم كله ليدرك حقا عظمة المزايا التى تعود عليه يوم يكون أكثر السكان فى الدنيا أهلا للثقة بهم

إن ناموس التطور اليوم كما كان منذ الازل كفاح نحو العلا والكفاح لم يفقد شيئا من حدته وعنفه لان ميدانه قد انتقل من المادة إلى الروح ، ففى البشر نفحة من روح الله ، ونحن أحرار فى أن نهملها ونخمدها أو أن نقترب من عرش الله بما نبديه من رغبة فى طاعة أمره »

انتهى ما أردت نقله مما لخصه عدد المختار (مايو ١٩٤٧) من كتاب (مصير البشر) للكونت « دى نوى »

وقد استفدنا منه أنه ليس فى طاقتنا أن نعرف الحقيقة ، وأن العلم (١) عرضة للخطأ ، فينبغى أن لانثق به ثقة عمياء ، فليس فى هذه الدنيا شىء

---

(١) يراد بكلمة العلم فى لسان أهل العصر واصطلاحهم : الافكار والآراء التى تثبت بالتجربة والاختبار العملى كالكيمياء والطبيعة والميكانيكا ، ويخرجون من ذلك علوم الدين وكذلك علوم الرياضيات والفلسفة

نستطيع أن نعرفه معرفة كاملة مطلقـة ، فحواسنا الخمس يشوبهـا نقص ، وأدواتنا العلمية لن تبلغ الكمال فى دقتها ، وأننا نعيش فى كون لا يحيط به إدراكنا ، فكل رأى نراه فى شأن الحقيقة إنما هو رأى نسبى ، وانه فى هذا الكون الجبار تجد العلم يعبث بأجزاء ضئيلة من المعرفة ولكن المهاوى التى تفصل بين ما نعرفه و بين الحقائق إنما هى مهاو رحبة عميقة

وان تاريخ التطور كله مشوب بالأسرار الغامضة ، وان كل خطوة خطاها الاحياء إلى الأمام قد تمت على رغم مناقضتها لنواميس الاحتمال العلمى المحكمة ، وكل تقدم من أدنى إلى أعلى كان ارتقاءاً بعيد الاحتمال

واستفدنا منه أيضاً ان المثل الأعلى ينبغى أن يكون كرامة البشر لا راحتهم كما يظن كثير من الناس أن المخترعات الحديثه هى دلائل الحضارة ، وأن الذكاء وحده — يعنى بدون الأخلاق والضمير — خطر ، فهو الذى صنع القنبلة الذرية فأدرك الناس من ذلك أن ظفر العلم يهدد أمنهم وسلامتهم ، فصار الصراع بين الذكاء والمبادىء الأخلاقية مسألة موت أو حياة للناس أحيوا أخلاقهم عاشوا بسلام

واستفدنا أسفه أن هناك كثيرين من الناس لا يزالون يعدون الانسان حيواناً راقياً لا أكثر . وقوله إنه يجب أن نعرف قوانين الأخلاق وأن نلتزمها . وأهم من ذلك أن نرجع إلى العادة القديمة ، عادة تهذيب الشباب وتقويم أخلاقهم ، وأن يبدأ ذلك فى المدرسه ، وذلك بالتزام الخلق والدين . وتألمه من حشو عقول الشباب بتفاصيل لا تجدى ، وأما الأخلاق التى لا غنى عنها فيمرون عليها مر الكرام كتعليم الزراع أن يزرعوا الازهار دون

تعليمهم كيف يحرثون الارض للحبوب والثمار ، واستفهم منكراً لمَ لا يفكر أحد فى تعليم الصغار الخلق ؟

وجزم قائلا : إن العالم كله ليدرك حقا عظمة المزايا التى تعود عليه يوم يكون أكثر سكان الدنيا أهلا للثقة ،يعنى بالأخلاق الطيبةالتى معدنها الدين والايمان بالله تعالى

فاستفدنا منه جملة عدم الغرور بما يسمونه العلم ، والعناية والثقة بالدين والأخلاق ونشرها بين الناس خصوصاً الشباب حتى يكون للناس مستقبل زاهر بالأمل والثقة والارتقاء والسلام والصفاء (١)

فتأمل هذا كله ثم ارجع إلى مافتن به صاحب الأغلال إذ اغتر بالفتات الذى وقع عليه من آراء المتخرصين فى هذا الكون الرحب الفضاء الغامض الأسرار ، فأعجب بها وحقر من أجلها الدين والخلق والعمل الصالح والايمان بالله واليوم الآخر والقدَر والملائكة .الخ . وأخذ يهزأ بذلك وبالمؤمنين به بسخرية تدل على العُجب والزهو وقصر النظر كما سترى ذلك فى كتابه فى مواضعه إن شاء الله تعالى

ثم أعاد الكاتب صاحب الأغلال نظرية تطور الكائنات من المادة السديمية الدخانية إلى التجمع وتكوّن الشموس ثم السيارات ثم الاقمار —

---

(١) واستفدنا قبل ذلك وفوق كل ذلك استدلال (دى نوى) على وجود الله بنفس التطور الذى ضل به من ضل ،وباتخاذه من الكهيرب دليلا على خطأ من أنكر وجود الاله حين لم يستطع تصوره فان الكهيرب موجود ولا يمكن تصوره لانه تارة يكون موجيا وتارة ماديا كما يبدو من التصوير الضوئى لآثاره (غ)

كل ذلك بطبيعة المادة وقوانينها (ص ٢٨٧ — ٢٩٠) إلى أن قال (ص ٢٩٠)

« أما الانسان فليس هناك شك فى أنه كان منذ ثلاثمائة سنة (يريد ثلاثمائة الف سنه فسقطت لفظ الف كما صرح به فى صفحة ٢٨٨) دع أكثر من ذلك أضعف منه اليوم أجساماً وعقولا ومعارف (يعنى أنه كان فى الحالة القردية أو مايشبهها) وليس هناك من يرتاب فى أنه فى هذه الثلاثة المائة [الألف] السنة قد تحسن من ناحيته الصورية ومن ناحية التفكير ومن ناحية القوة البدنية تحسناً عظيما »

يعنى بتحسن صورته أنه صار منتصب القامة لا شعر على بدنه ، بعد ما كان يمشى على أربع ، مغطى البدن بالشعر ، ذا مخالب وأنياب بارزة حادة ثم صار إنسانا مفكراً متكلما بعد ما كان حيوانا أعجم . ثم استدل بتطور الحضارة على تطور الانسان وبقوله تعالى (وقد خلقكم أطوارا) غير ملتزم ماقاله بعض الشيوخ فى تفسير الأطوار قال :

« وانما نطلق ماأطلقه الله وأن نحمله على أحسن الوجوه »

يعنى نظرية تطور الانسان من حيوان قرد أو شبيه به إلى إنسان آدمى . وأما النصوص فى الديانات كلها فى خلق الانسان الاول (آدم) من تراب ثم من صلصال كالفخار ثم نفخ الله فيه من روحه ، فلا وزن لها عند الكاتب ولا قيمة له فضلا عن الاحاديث كحديث « خلق الله آدم طوله ستون ذراعا فى السماء وأن الصالحين من ذريته يدخلون الجنة على أحسن صورة كصورة أبيهم آدم » الخ وتشريف الله لآدم بخلقه بيديه ، وتعليمه أسماء كل شىء وإسجاد الملائكة كلهم له

وقد سمعت كلام أحد العلماء العصريين صاحب كتاب (مصير الانسان) ورأيه فى نظرية التطور ، وفيما يسمونه العلم وعدم الاغترار به ، وان

التطور جرى على نهج لا مجال للعلم به .الخ.

***

قول الكاتب « إن الايمان بقضاء الله وقدره والتوكل عليه يوهن المسلمين ويضعفهم ، وانه يجب عليهم ترك ذلك ، وأن التوكل على الله هو العلم بنظام الطبيعة ، وكذلك الايمان بالقضاء والقدر (ص ٢٧ ،٢٩، ٢٦٨، ٣١٥) ففى آخر (ص٢٦) وأول٢٧ يقول :

« إن الشعوب تمتاز بالإيمان بالثراء الانسانى الطبيعى ولهذا تحاول الظفر بكل شيء ، والوصول إلى كل شيء ، والتغلب على كل شيء . . وتنقل الانسان فى وجوده وحقيقته من طور إلى طور أعلى وأرقى . . .

ثم مثل بالاغريق والرومان والمصريين القدماء والعرب وأوربا الحديثة وأمريكا طبعاً وغيرهم

« ممن أوجدوا التاريخ الانسانى وصنعوا الحضارات ـ على أقدار مختلفة متفاوتة ـ بفيض من هذا الايمان »

« وكل شعب يكفر بالانسانية ـ الانسانية المطلقة انسانيته هو وإنسانية غيره ـ ويكفر بمواهبها وثرواتها الذاتية الطبيعية ويؤمن بأنها مقيدة بقيود وحدود لاتتعداها ولا تتخلص منها وانها ليست مطلقة القوى وليس متروكاً لها الطريق ،الطريق الذى ليس له نهاية تحده ولا غاية تلزمه الوقوف عندها ـ لامحالة أن تفتر همه ويضعف عمله وأن يقف عاجزاً عن التحليق فى سماء اللانهاية وأن يرضى من زمنه بالتافه الحقير والنصيب اليسير »

وفى آخر (ص ٢٨ وأول٢٩)يقول

« فالأمم والرجال الذين وثبوا امتازوا كما ذكرنا بهذا الايمان والأمم والرجال العاجزون القاعدون ـ وكذلك الاطفال لم يرزقوا هذا الايمان بل رزقوا

- وأخبث به رزقاً - بالاعتقاد اللازم المسيطر بأن الانسان خلق عاجزاً محدوداً مهيناً حقيراً لا قدرة له على التحكم فى الطبيعة القاهرة الغالبة، ولا يد له تستطيع الامتداد إلى تغيير هذا العالم الذى أوجده الله ولا إلى تغيير صبغته التى صبغه الله بها

ثم مثل بالفقر والمرض والبطالة والجدب والجهالة والاخلاق والاستقلال والسيادة الوطنية وكل مشكلة، وان هذا الفريق — يعنى المؤمن بقدر الله — ليس أهلا لحل مشكلة منها .. إلى أن قال (آخر ص٢٨ وأول٢٩)

« وما عليهم إلا أن ينتظروا من الله أن يضعها لهم كما يشاؤون ويشتهون وكل ما يجب عليهم فى هذه الحالة أن يطيلوا الدعاء والبكاء وأن يصدقوا الضراعة والمسكنة وأن يجملوا الانتظار . . . أولئك الذين يريدون كل شىء من السماء ومن الآلهة المتعددة الأخرى أما هؤلاء فيعلمون أن عليهم أن يرجعوا إلى أنفسهم وأن يعولوا عليها وأن يطلبوا منها كل شىء، وأن فى استطاعتها أن تهبهم ما فقدوا وما احتاجوا فيبدعون فى الأعمال ويسيرون فى الطريق . أما اولئك فقصاراهم النحيب والدعاء المذل ثم الانتظار الممل . .

ومعلوم أن الدعاء أضعف وسيلة يلقى بها عدو عدوه بل انه ليس بوسيلة وليس له من فائدة سوى أنه يقوم بعملية تمويض (لعله يريد تعويق) وتصريف خبيثة (ومثل بخطباء الجمع) الذين يقرعون مسامعنا كل يوم جمعة بهذه الضراعات الكاذبه والابتهالات الوقحة الذليلة داعين على الآخرين سائلين الله أن يسقط عليهم السماء أو يخسف بهم الأرض . . . ولكن الله لن يصنع ذلك أبداً

(وفى ص ٢٦٨ يقول) « لست أريد أن أقول ان التوكل هو الاخذ بالاسباب مع الاعتقاد بأن الله قد يدخل فيها فيجعلها ان شاء اسباباً ويجعلها إن شاء غير أسباب أو مع الاعتقاد بانه تعالى قد يفعل من غير الاسباب فان هذا هو السفه والفوضى التى لا ضابط لها »

فليعلن غوستاف لوبون فى قبره فقد وجد له خليفة ينعق بأصواته

الحمقاء فى كتابه (الآراء والمعتقدات) من إنكار القدر والرب ؛ وما وراء الطبيعة والمادة والملائكة ، وليس ثم موضع بسط دمامله وذكر عباراته بنصوصها وأرقام محالها ؛ ولعل لذلك فرصة أسنح وأوسع .

« فالايمان بقدرته يوجب بأن ماجعله سبباً لشىء فسيبقى كذلك ولن تبطل سببيته بحال ولن يوصل إلى ذلك الشىء بشىء آخر غيره ويوجب الايمان بأن ذلك الشىء الذى جعله مسببا لن يوصل إليه بدونه فبوجود السبب يوجد المسبب وبفقده لا يوجد »

وقال فى ص ٣١٥ وص ٣١٦ بعنوان (مشكلة لم تحل)

« فالمشكلة التى ماأظن أحداً قد درسها دراسة صحيحة وافية هى ان فكرة التدين قائمة على الايمان بسبب ترجع إليه جميع الأسباب لأنه هو خالقها المهيمن عليها ، المتصرف فيها كيف شاء وهذا السبب الذى هو سبب الأسباب أى الله على اختلاف كبير بعيد بين أصناف المتدينين فيه وفى حقيقته — لايحتاج هو إلى سبب فى وجوده وقيامه بنفسه وفى فعله وصنعه فاذا وصلوا إلى الايمان بهذا السبب وإلى الايمان بقدرته الكاملة التى لا يعجزها شىء ولا يند عن سلطانها وقبضتها أمر شكوا فى الأسباب الأخرى التى هى دونه والتى هى من خلقه وصنعه . وإذا ما صاروا إلى هذا الشك فى الأسباب تراخوا فيها وفى الأخذ بها وفى العمل على اتقانها والتعويل عليها وحينئذ تصاب قواهم كلها بالضعف وبالعجز عن الابداع والتبريز وعن الانتاج والعمل البارع العظيم فإن الانسان لن يكون سببيا محضاً إلامتى آمن بأن هذا الوجود كله مربوط بأسباب آلية طبيعية تسير إلى نهاياتها ونتائجها سيراً آليا طبيعيا ليس لقوة من القوى أن تقف فى سبيلها وأن تتحكم فى نهايتها وهو - أى الانسان — لن ينجح النجاح المرجو إلا إذا كان سببيا محضا فالايمان بسبب الاسباب ـ يعنى الله تعالى الرب الخالق ـ يمنعه على حسب ماتصور وبلغ ـ من أن يكون سببيا وعدم كونه

سببيا يمنعه من النجاح ـ هذا هو كل مااستطاعت مدارك البشر الدينية أن تبلغ وأن تعرف ،تلك لعمر الله هى المشكلة الحقيقية الكبرى التى لم يوجد لها حل حتى اليوم »

« وقد يقال بعبارة أخرى ـ على حسب تصور المتدين ـ الأسباب إما أن تكون كافية للآخذين بها أوغير كافية فان كانت كافيةفأين الاله وأفعاله وألطافه ؟ فهى إذن غير كافية وإن كانت غير كافية فهى إذن غير خليقة بأن يعول عليها المؤمن تعويلا صحيحا ولا أن يلتفت إليها ومن هنا يصبح غير سببي »اه

وأقول أنا محمد بن عبد الرزاق حمزة ـ هذه لعمرى هى فلسفة القرن الثامن عشر وماقبله ومابعده إلى نصف التاسع عشر ،فلسفة الالحاد والكفر والدهرية لخصها غوستاف لوبون فى كتابه الآراء والمعتقدات ومنه استقى الكاتب فعب منها ونهل ، وقاءها فى أغلاله دما وصديدا من قرحات باطنه وقلبه .وسأفرد مقالا للجمع بين الاصل وفرعه من كتاب غوستاف وكتاب الاغلال ان شاء الله تعالى . ولا بأس بسوق نبذة منه على سبيل النموذج حتى لايظن اتهامه بغير بينة من كلامه .

قال فى كتابه (الآراء والمعتقدات) ص٢٩

« ومع أن علم الحياة الحديث أصاب فى نقضه مبدأ علة العلل — يعنى الخالق سبحانه— فاننا نرى سلسلة الأشياء تبدو كأنها خاضعة لهذا المبدأ ـ يعنى إثبات واجب الوجود الخالق سبحانه ـ يؤيد ذلك كون الشروح العقلية التى أتى بها العلماء لم تقدر على حل كثير من الأمور الغامضة فى الكون »

أقول : لاتقدر ولن تقدر مادامت تنكر أشرف مافى الوجود وأعلى مافيه وعلله الروحية وخالقه الأكبر سبحانه وتعالى

ثم قال (ص ٤٧) « لا أهمية لارتباط الاشياء والحوادث بعضها ببعض عند أولى النفوس الدينية ؛ فالارتباط المذكور فى نظر هؤلاء إن هو إلا أمر يختص بموجودات علوية نعانى عزائمها فقط »

وقال (ص ١٤٨) « لعل أهم ثورة ظهرت فى عالم الفكر هى الثورة التى أدى اليها العلم باثباته ان الحوادث تصدر عن نواميس مهيمنة لا عن أهواء الآلهة ؛ إذ بهذا الاكتشاف تبدلت الكيفيه التى ننظر بها إلى الكون دفعة واحدة ؛ وهذا الاكتشاف العظيم الذى أخرج الناس من دائرة المعتقد إلى دائرة المعرفة لم يعم بعد ، إذ أن كثيراً من الناس يعتقدون أن قوى ما بعد الطبيعة تسير الحادثات وتقدر على تغيير مجراها عند ما يستغاث بها

إلى أن قال : والانسان بتركه مبدأ الوجوب فى تسلسل الحوادث يعود إلى المبدأ الذى قضى عليه بعد عناء كبير والقائل إن مصدر الحوادث هو الآلهة ذات الأهواء ، فلو أن الحادثات التى يخبر بها أولو الكرامات فى الوقت الحاضر ممكنة لتقهقر العلم طائعاً إلى قرون الاساطير حيث مصير الحروب بيد الآلهة — إلى أن قال :

إن نفس الانسان الدينية تهيمن عليه فى كل وقت فترغمه على الالتجاء إلى ما بعد الطبيعة وإن كان البحث الدقيق فى خوارق ما بعد الطبيعة يدلنا على أن هذه الخوارق عبارة عن أوهام تكونت فى نفوسنا » الخ اهـ

وليس هنا موضع مناقشة هذا الجاهل فى دعواه إن علم الحياة نقض مبدأ علة العلل ، ولا أن خوارق ما بعد الطبيعة أوهام ، وان نفى وجوب تسلسل الحوادث يرجع بنا إلى عصر الخرافات ؛ وإنما قصدنا أن نريك

أصول كتاب صاحب الاغلال ومادة ارتوائه واستقائه ومادة تفكيره التى انتقضت برمتها، وانقلبت رأساً على عقب، وصارت تفكير العجائز عند مفكرى القرن العشرين، وكاتبنا هذا وأمثاله استقوها من كتب غوستاف لوبون وأضرابه كما رأيت، وسننقل بطلانها والضحك من مفكريها عن أقطاب العلم فى هذا العصر الحاضر مثل السير جنز العالم الرياضى الطبيعى الفلكى الانكليزى من كتابه (الكون الغامض) ومثل الاستاذ مصطفى مشرفه باشا عميد كلية العلوم بجامعة فؤاد الأول من محاضرة له نشرت فى المقتطف. ومن رسالته «النسبيه الخاصة» مما يدل على تلاقى آخر سير العقلاء ونهاية سبلهم مع ماجاء فى الدين من أن الله هو الفاعل المختار لا تحكمه أسباب ولا تتحكم فى فعله نواميس، وليس العالم مسيراً بعلل طبيعية آلية كما قرره هذا المأفون الناقص الفهم والاطلاع تبعا لمقلديه وأصنامه، فيتوافق العقل الصريح والدين الصحيح كما قال تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد) وقال (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) وقال (ولا تقف ماليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) (إن فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون)

جاء فى محاضرة للدكتور مشرفة باشا عميد كلية العلوم الآن بعنوان

(الاضافات الحديثة) (العلوم الطبيعية وأثرها فى تطور الفكر الحديث)
نشرت بمقتطف يوليو (١٩٣١) ابتدأها بتصوير تطور الفكر عند الانسان فى مختلف أطواره من طفولة إلى شباب إلى كهولة ، ثم خلص من ذلك إلى تشبيه تطور العلم عند المجتمع بتطوره فى الفرد ثم قال « فالتفكير العامى إذاً حى متطور تؤثر فى تطوره الخبرة العامية ، أو بعبارة أخرى الاضافات التى يضيفها العلماء إلى المعرفة البشرية . ثم قال :

« ونحن اليوم — أيها السادة — نعيش فى عصر يشهد تطوراً عنيفاً فى التفكير ، بل انقلابا بليغ الأثر فى مجملنا العقلى ، فوجهة نظرنا اليوم نحو ماحيط بنا من الكائنات تختلف اختلافا بيناً عنها فى أواخر القرن الماضى بل تكاد تناقضها مناقضة صريحة »

ثم ذكر أن سبب هذا التطور الاضافات العامية إلى العلوم الطبيعية فى نحو ثلث قرن كما سيصفها . ثم استحسن أن يلقى نظرة على موقف العلوم الطبيعية وحالة التفكير العلمى فى أواخر القرن الماضى فقال « الكون آلة »

ثم شبه فلسفة القرن الماضى بفلسفة رجل ناجح فى عمله راض عن فلسفته مؤمن بنفسه ثم لخص فلسفة العلوم الطبيعية فى آخر القرن الماضى بقوله «فالكون مؤلف من المادة المحسوسة التى نراها ونلمسها وهى موزعة فى الفضاء الذى يحيط بنا ونحكم بوجوده بالبداهة ، ثم ان الاجسام المادية تتحرك فى هذا الفضاء بناء على قوانين ثابتة كشف عنها وطبقها الرياضيون وعلماء الفلك فحصلوا على نتائج ضرب بها المثل فى الدقة والضبط - إلى

أن قال ـ فالكون إذاً فى نظر علماء القرن التاسع هو آلة هائلة تشتغل طبقا لقوانين ثابتة ، هذه الآلة مصنوعة من المادة التى لا تقبل الخلق ولا الفناء .

وتقوم بالمادة أو ترتبط بها حالات كالحرارة وما أشبه هى مظاهر لشىء واحد هو الطاقه والطاقه كالمادة لا تقبل الخلق ولا الفناء . ومهمة العلم هى معرفة القوانين التى تنظم سير الآلة وتربط الطاقة بالمادة ، والعلماء جادون فى هذا السبيل يضيفون القانون تلو القانون .. فاذا استمرت الحال على هذا المنوال فلا شك أن الانسان سيصل إلى معرفة أسرار الكون فيهيمن عليه ويسيطر على أجزائه

مواطن الضعف

ثم ذكر ما حيرهم فى الضوء الذى ينتقل فى الفضاء العادى من المادة ، فهو إذاً مستقل عن المادة قائم بذاته لا يمكن أن يوصف بأنه حالة من حالات المادة .

ومثله الحرارة وإشعاعات أخرى ، فليست هى كالحركة هذه الأشعة الضوئية والحرارية وغيرها حيرت ألباب العلماء فى أواخر القرن التاسع عشر وناقضت فلسفتهم مناقضة صريحة .فالتجأوا إلى فرض وجود نوع مستحدث من المادة سموه الاثير لكى تقوم به هذه الأشعة وهو ليس بالمادة التى نعرفها ، إنما له خاصية أساسية من خواص المادة هى التكيف حتى يصح أن تقوم به حالة كالضوء والحرارة . ثم لخص الموقف فى أواخر القرن الماضى

المادة ذلك الجوهر الذى لا يقبل الخلق ولا الفناء ، والطاقة عرَض

يقوم بالمـادة ولا اتصور وحدها عارية عن المـادة ، والزمان والمكان بديهيان ثم هناك فوق هذا كله القوانين الطبيعية ، وهى التى تنظم حركة المادة وما ينشأ عنها من التغيرات ، كما أنها ترتب أمور الطاقة أيضاً وأهمها قانون بقاء المادة ، ويليه فى خطورة الشأن قانون بقاء الطاقة ثم قوانين نيوتن فى الجاذبية

ثم قال « وهنا أصارحكم القول بأن وجهة نظر العلم اليوم : « هـذه الفلسفة تشبه وجهة نظر الرجل إلى فلسفة الطفل فى حياته ثم وصفها لُعَبه وهى أهم شىء عنده فى الوجود ، والمنزل والخادمة والطاهى والأطفال الذين يلاعبهم وقواعد اللعب التى يتبعها والأم والأب

فما هى الخبرة التى اكتسبناها والتى حولت نظرنا إلى الأمور عما كانت عليه فى أوائل القرن؟

الحقائق المقلقة

أولا — إذ علمنا تركيب المـادة فالذرات التى تتركب منها جميع المواد انحلت إلى الالـكترونات والبروتونات التى هى كهرباء خالصة ، فانقلب الموقف فصارت المادة حالة تقوم بالكهرباء بدلا من أن الكهرباء حالة تقوم بالمادة، والالـكترونات والبروتونات (١) تتشتت كالضوء إذا مرت فى ثقوب ضيقة فهى ذات خاصية موجية كأنها مؤلفة من أمواج كأمواج الضوء كما تنبأ بها «دى برولى» العالم الفرنسى سنة ١٩٢٦ وحققها عمليا طوسون وجرمر وغيرهما

---

(١) الالـكترون الـكهيرب السالب . والبروتون الأبَيّب الموجب أو نواة ذرة الايدروجين ومنهما تتكون ذرات بقية العناصر : نواة فى قلب الذرة تدور حولها كهيرباتها الخاصة فى أفلاك كأفلاك السيارات حول الشمس

فالمادة إذاً قد فقدت جوهريتها وصارت كالضوء عرضاً يقوم بغيره لا جوهراً مستقلا بذاته .ثم شرح كذلك زوال قانون بقاء الكتلة ، فجميع الأجسام تتغير كتلتها بتغير سرعتها

« ولم يقف الحد عند الكتلة والطاقة بل تعداهما إلى الزمان والمكان فقد أصبحا فى نظر علماء الطبيعة ظلين زائلين لا إطلاق لحقيقة وجودهما »

ثم شرح ذلك وضرب له الأمثلة توضيحاً وأشار إلى نظرية اينشتين التى تخلط الزمان بالمكان

« الحالة الآن »

« والآن وقد اختلط الزمان بالمكان وزالت معالم المادة واختلطت بالنور ماذا تظنونه حادثاً للقوانين الطبيعية . ان الزمان والمكان لا يسمحان لى بشرح هذه النقطة الشرح الذى تستحقه ولكن سأذكر لكم وجهة النظر الحالية

اننا نقسم القوانين الطبيعية إلى قسمين . قسم نسميه القوانين الاحصائية وهى لا تعبر إلا عن قوانين الصدفة والاحتمال أمثال قانون بويل للغازات فما هو إلا نتيجة وجود عدد كبير من جزئيات الغاز فى اضطراب مستمر بحيث لا نظام إلا نظام الصدفة . (القسم الثانى) نسميه القوانين التطابقية ومثاله القانون الذى اكتشفه جحا فى الحكاية المشهورة فانه كان يسوق عشرة حمر فوجد انه إذا ركب واحداً منها ثم عدها كانت تسعة وإذا نزل ومشى ثم عدها كانت عشرة وهكذا اكتشف جحا قانوناً من القوانين الطبيعية لا يختلف فى كنهه عن كثير من قوانين الطبيعة

وربما كان خير وسيلة لختام محاضرتي ان أقرأ على حضراتكم ترجمة ماختم به السير « جيمس جنز » كتابه (الكون الغامض) .

قال : لقد حاولنا أن نبحث فيما إذا كانت العلوم الحديثة عندها ماتقول عن مسائل صعبة وربما كانت إلى الأبد بعيدة عن منال العقل البشرى ولانستطيع أن ندعى اننالحنا أكثر من بصيص ضعيف من النور وربما كنا واهمين تماماً فى لمح هذا البصيص فاننا ولاشك قد اضطررنا أن نجهد أعيننا إجهاداً عظيما قبل أن نظفر بشيء ما ولذا فليس مغزى كلامنا أن العلم عنده قول فصل بل بالعكس ربما كان خير ما نستطيع أن نقوله « ان العلم قدعدل عن إلقاءالاقوال فان نهر المعرفة قدتعرج فى اتجاه سيره مراراً وتكراراً بما لايسمح لنا أن نحكم بالناحية التى فيهامصبه.اه

هذا ماأردت تلخيصه من محاضرة الأستاذ مشرفة باشا عميد كلية العلوم وقد أطلت فى تلخيص المحاضرة المذكورة لما فيها من بيان حال التفكير فى القرن الماضى وهو الذى حشا به القصيمى كتابه « الاغلال » معجبا به يريد هدم الدين والأخلاق بذلك وقد وسمه الاستاذ مشرفه باشا بأنه كفلسفة الطفل ولعبه بالنسبه للرجل العاقل عند مفكرى القرن العشرين وان قوانين الطبيعة التى يريدنا القصيمى أن نكفر بالله واليوم الآخر لأجلها كما كفر بسببها من قبل غوستاف لوبون ماهى إلا كحمار جحا الذى ينساه حين يركبه ويعده ويتذكره إذا نزل عنه

ثم استشهد سعادة العميد بكلام السير جيمس جنز اننالم نر من الحقيقة إلا بصيصاً ضئيلا بعد اجهاد الأعين وإن العلوم الحديثة ليس عندها ماتقول

عن مسائل صعبة ربما كانت إلى الأبد بعيدة عن منال العقل البشرى. وان العلم ليس عنده قول فصل بل بالعكس خير ما يقال إن العلم قد عدل عن إلقاء الأقوال لأن نهر المعرفة قد تعرج فى اتجاه سيره مراراً وتكراراً بما لايسمح لنا بالحكم على الناحية التى فيها مصبه

والسير جيمس جنز مؤلف كتاب (النجوم فى مسالكها) و(كتاب الكون الغامض) هو دكتور فى الآداب ودكتور فى العلوم وعضو المجمع العلمى البريطانى وقطب من أقطاب العلوم الطبيعية والرياضية والفلكية من الانكليز الذين يطربهم القصيمى ويتغنى بهم ، وسأنقل لك نبذاً من كتابه (الكون الغامض) الذى استشهد سعادة عميد كلية العلوم مشرفة باشا بخاتمته يتبين منها جهل كاتب الأغلال بما وصل إليه الفكر العلمى فى هذا العصر فى مشكلته التى لم تحل وكتابه كله فى الكفر بالله والإيمان بالأسباب التى لاتتخلف عند الكاتب وأن المؤمن بها لا يمكن أن يؤمن بالله الفاعل المختار الذى يسميه قوة مجنونه خرقاء سفيهة(١). ويريد منا أن نكفر بديننا وبدين الرسل كلهم لأجل أفكار تركها أهلها وعدوها صبيانيه مجنونية هذيانية جحوية قلد فيها كافراً بالله واليوم الآخر هو غوستاف لوبون

قال السير جيمس جينز فى كتاب (الكون الغامض) ص ١٦٩ س ١١

وما أكثر مايغيب عنا أننا لانستطيع إلا أن نبحث هذه المسائل فى صيغ الاحتمالات ، وما أكثر مايعير رجل العلم بأنه يبدل آراءه على الدوام، وفى هذا مايشعر بأنه ليس من الضرورى أن يؤخذ بقوله جدياً. على

(١) راجع ص ٣٢٥ من الاغلال

أنه لا لوم فى الحقيقة على العالم الذى يرتاد نهر المعرفة إذا انحرف أحيانا إلى مجرى جانبي فرعى ولم يستمر سائراً فى المجرى الأصيل ، ذلك بأن المرتاد لا يستطيع أن يتأكد من طبيعة المجرى الجانبي إلا بعد أن يسير فيه ، وأخطر مافى الأمر وأبعده عن سيطرة المرتاد ان نهر المعرفة ملتوى يجرى آنا نحو الشرق وآنا نحو الغرب ، وقد يقول المرتاد فى وقت ما « إنى أسير مع التيار » وبما إنى متجه نحو الغرب فأكبر الظن أن بحر المعرفة — أى الحقيقه — كائن فى الجهة الغربية فاذا تحول اتجاه النهر بعد ذلك نحو الشرق قال « كأنى بالحقيقة الآن واقعة فى الجهه الشرقية » وأكبر الظن أنه ليس من العلماء الذين عاشوا فى الثلاثين عاما الأخيرة من يستطيع أن يبت برأى قاطع فى اتجاه نهر المعرفة فى المستقبل أو فى مكان الحقيقة أين يكون ، ذلك ان تجاربه الخاصة تدل على أن النهر لا يتسع مجراه على الدوام فحسب بل تدل أيضاً على أنه دائم الالتواء . ولذلك ينصرف العالم بعد أن يلاقى ضروباً من الخيبة متعددة عند كل التواء عن الظن بأنه قد انتهى «إلى مجرى الحقيقه اللانهائي وأحس معالمه »

« ويلوح أننا على حق إذا قلنا مع هـذا الاحتراس السابق إن نهر المعرفة قد انحرف انحرافاً شديداً فى السنوات القليلة الماضية ، فقـد كنـا نظن أن نفترض من ثلاثين عاماً أننـا سائرون صوب حقيقة نهائية من النوع الآلى ، وأن هذه الحقيقة تتكون من خليط مهوش من الذرات قدّر عليه أن يقوم زمانا ما برقصات خاليـة من المعنى طوعاً لتأثير قوى عمياء ليس لها غرض معين ، ثم يرتد ليكون منه عالم ميت لا حيـاة فيه . وفى

هذا العالم الآلى المحض ظهرت الحياة مصادفة (١) بتأثير هذه القوى العمياء نفسها، واتفق أن ناحية ضئيلة واحدة على الأقل من نواحى هذا الكون الذرى — وقد تكون عدة نواح منه — قد أصبحت واعية برهة من الزمن ولكنها مقدر عليها آخر الأمر بتأثير القوى العمياء أن تتجمد عن آخرها ثم تترك هذا العالم مرة أخرى لا حياة فيه » اه

هذا ملخص آراء الماديين فى القرن الماضى لخصه لك المؤلف فى عبارة وجيزة وهو الذى يدعونا اليه كاتب الاغلال فى فصله الأخير من كتابه تحت عنوان « مشكلة لم تحل »

فاسمع الآن رأى السير جيمس جينز فيما تطورت إليه أفكار القرن العشرين فى ذلك قال ص ١٧٠ س ١٨ « أما الآن فان الآراء متفقة إلى حد كبير يكاد فى الجانب الطبيعى من العلم يقرب من الاجماع على أن نهر المعرفة يتجه نحو حقيقة غير آلية وقد بدأ الكون يلوح أكثر شبها بفكر عظيم منه بآلة عظيمة ولم يعد العقل بعدُ دخيلا ألقت به المصادفة فى عالم المادة، بل بدأ يجول فى خاطرنا أن من واجبنا أن نحييه ونعده خالق العالم المادى المسيطر عليه — ولسنا نقصد بهذا العقل بطبيعة الحال عقولنا الفردية بل

---

(١) من أكبر أغلاط العلماء الطبيعيين فى الماضى هذا القول الذى أدركوا خطأه الآن من أن الحياة ظهرت فى الارض مصادفة . إنهم لم يقولوه استنتاجاً من قرائن حملتهم عليه ولكنهم لما عجزوا عن تفسير ظهور الحياة بعلمهم قالوا بظهورها مصادفة ! وهذا طبعا ليس بفرض علمى ولا بتفسير فكل إنسان يستطيع عند العجز أن يحيل أى ظاهرة على المصادفة . فالقول بالمصادفة والاعتراف بالعجز عن التفسير سواء (غ)

نعني ذلك العقل الكلى الذى توجد فيه على شكل فِكَر تلك الذرات التى نشأت منها عقولنا (١)

« وتلك المعرفة الجديدة تضطرنا إلى أن نعدل رأينا السابق الفطير وهو أننا قد ألقى بنا مصادفة فى كون لايعنى بالحياة أو أنه عدو لها بالفعل ويلوح أن من المحتمل أن يختفى من الوجود ثنائية العقل والمادة القديم الذى كان من أكبر أسباب هذه العداوة » الخ اه

واقرأ ما كتبه أول الكتاب من غرور طبيعى القرن التاسع عشر ورياضييه فى فهم هذا العالم وهو مايدعونا إليه صاحب الأغلال وكيف انقلب عليهم التفكير رأساً على عقب بعد اكتشاف « بلانك » نظرية الكمة حتى أبطلت قانون السببية الحتمية الذى يدعونا إليه القصيمى تبعاً لغوستاف لنكفر بالله ونؤمن به، وأننا لانكون سببيين ناجحين فى الحياة حتى نكفر بالله وقدرته واختياره ونؤمن بالأسباب التى يعجز الله عن إبطالها أو التدخل بينها وبين مسبباتها وأنه إن فعل كان سفيهاً ومجنوناً أوكالمجنون إلى آخر ماقرره فى فصله الأخير من كتابه بعنوان «مشكلة لم تحل » وقد نقلنا لك خلاصته فيما مضى قريباً بنصه

قال جينز ص٢٠ س١ « وقد أظهر اينشتين فى عام ١٩١٧ أن النظرية

---

(١) المهم فى هذا الكلام وأمثاله مما كتب جينز أن علمه الطبيعى جعله يدرك وجود الخالق سبحانه من خلال السنن المنحلة فى الفطرة بصرف النظر عما يرد فى كلامه من تصوير وتمثيل قد لا يتفق مع ماينبغى للخالق سبحانه من تنزيه عن مشابهة المخلوقات . فالاسلام من ناحيته قد احتضن العلم ، والعلم من ناحيته بدأ يتصل بالدين إذ بدأ يدرك وجود الخالق سبحانه (غ)

التى وصفها بلانك — نظرية الكم أن الاشعاعات تسير دفعات متقطعة فى قفزات واهتزازات — تظهر فى أول نظرة على الأقل أنها تنطوى على نتائج أبعد أثراً من فكرة عدم الاتصال وظهر أنها ستنقض ما كان لقانون السببية من الشأن فى توجيه العلم الطبيعى فى مجراه. لقد كان العلم القديم يقرر تقرير الواثق أن الطبيعة لا تستطيع أن تسلك إلا طريقاً واحداً وهو الطريق الذى رسم من قبل لتسير فيه من بداية الزمن إلى نهايته فى تسلسل مستمر بين علة ومعلول، وأن لامناص من أن الحالة (ا) تتبعها الحالة (ب) أما العلم الحديث فكل مايستطيع أن يقوله حتى الآن هو أن الحالة (ا) يحتمل أن تتبعها الحاله (ب) أو (ج) أو (د) أو غيرها من الحالات الأخرى التى يخطئها الحصر.

نعم فى استطاعته أن يقول إن حدوث الحالة (ب) أكثر احتمالا من حدوث الحالة (ج) بل إن فى مقدوره أن يحدد درجة احتمال حالة من الحالات (ب) و (ج) و (د) بعضها بالنسبه إلى بعض ولكنه لايستطيع أن يتنبأ عن يقين أى الحالات تتبع الأخرى لأنه إنما يتحدث دائما عما يحتمل. أما مايجب أن يحدث فأمره موكول إلى الأقدار مهما تكن حقيقة هذه الأقدار. ثم ضرب مثلا ماديا بذرات الراديوم وغيرها من المواد ذات النشاط الاشعاعى انها تتفكك بمجرد مرور الزمن عليها وتخلف وراءها ذرات من الرصاص والهليوم فينقص حجمها باستمرار ويحل مكانها رصاص وهليوم. قال والقانون العام الذى يتحكم فى معدل التناقص غريب غاية الغرابة شبهها بعدد الوفيات أو القتلى فى كتيبة ترمى بالرصاص

اعتباطاً من غير قصد لمن يصاب ،فليس لكبر السن أثر فى ذرة الراديوم الواحدة بل تموت بمنية تخبط خبط عشواء ولا يدرى بأى طريق تختار تلك الذرة المعينة لا بأكثرية اصطدام ولا بشـــدة حرارة فليس فى الاستطاعة تفكيك الراديوم أو تعجيل التفكيك بضغطه أو تسخينه بل الموت يصيب على الأرجح فى كل عام ذرة واحدة من ألفين. ويرجو المؤلف فى ص ٢٢ أن التاريخ قد يعيـد نفسه فتعرف قانون العلة والمعلول أى فيما بعد أما الآن فلا يعرف

ثم ضرب مثلا آخر بانبعاث الضوء من المصباح الكهربائى العادى وشرح كيف يشع النور فقال ص ٢٥ س ١٦ « وقد بين اينشتين أنه لابد من وجود نوع آخر من القفزات وان هذه القفزات لابد وأن تحدث من تلقاء نفسها كما تتفكك ذرة الراديوم من تلقاء نفسها ومعنى هذا بالاختصار أنه لابد لنا من أن نلجأ مرة أخرى إلى فرض وجود القدر » وقال ص٢٧ س ٣ « ومع أننا لانزال بعيدين عن القول الفصل فى هذا الموضوع فقد يخيل إلينا أن ثمة عاملا من العوامل لم نجد له بعد اسماً خيراً من القدر يعمل فى الطبيعة ليمحو أثر قانون السببية القديم الصارم . وقد لا يكون المستقبل كما تعودنا أن ننظر إليه قد حدده الماضى تحديداً غير قابل للتغيير بل انه قد يكون إلى حد ما على الأقل متروكاً لتصريف الأقدار مهما تكن هذه الأقدار » وهناك اعتبارات أخرى توجه افكارنا فى هذا الاتجاه نفسه

مثال ذلك أن الأستاذ هايزنبرج أوضح أن ماتصوره نظرية الكم

الحـديثه ينطوى على مايسميه هو « قاعـدة عدم قابلية التحديد » ولقـد ظللنا من قبله زمناً طويلا نعتقد أن أعمال الطبيعة هى غاية مايمكن الوصول إليه من الدقة والاحكام ،ومع اننا نعلم أن الآلات التى يصطنعها الانسان بعيدة من الدقة والـكمال ، فقـد كنا نصرّ على الاعتقاد بأن أعمال الذرة الداخلية هى المثل الأعلى للدقة والاحكام ثم جاء هايزنبرج فأوضح الآن أن أكثر ماتمقته الطبيعة هو الدقة والإحكام (١)

وقال ص ٣٢ س ٣ بعد ماضرب مثلا لتناثر الذرات بغير نظام ومثّله نرمى مليون طن من قطع النقود فى الهواء وسقوط مايسقط منها على وجهه وما يسقط على الوجه الآخر اتفاقاً فقال « ومن هـذا يرى كيف كان من السهل أن يتسلل وهم الجبرية إلى العلم ان كانت الجبرية وهماً » وليس لدينا حتى الآن معلومات موثوق بها عن أية مسألة من هذه المسائل على أن هناك عدداً من علمـاء الطبيعة وإن كنت أظن أن هـذا العدد آخـذ فى التناقص بسرعة كبيرة يتوقع ان قانون السببية الصارم سيستعيد فى نهاية الأمر مكانته القديمة فى العالم الطبيعى بطريقة ما ولـكن الاتجاه الحديث فى تقدم العلم لايقوى مركزهم فى ذلك ، ومهما يكن من شىء فان السببية الصارمة ليس لها الآن مكان فى صورة الـكون التى يعرضها علينا علم

---

(١) العلم الطبيعى فى موقفه الحاضر يدرك الدقة والاحكام وسنن الفطرة التى تجرى على الـكتل والمقادير المحسوبة من المادة والطاقه ولـكنه إذا تعداها إلى عالم غير المحسوس أشكل عليه الأمر وتبلبل وقال قائله بمثل هـذا القول . ولن ينجو من هذا التبلبل حتى يعبد خالق الذرة مع العابدين (غ)

الطبيعة الحديث . وقد نتج من ذلك أن صار فى هذه الصورة أكثر مما كان فى صورة الكون الآلية القديمة متسع للحياة والشعور يقومان فيه مع الصفات الأخرى التى تقرنها عادة بهما مثل الارادة الحرة، والمقدرة على تغيير الكون إلى حد ما بوجودنا فيه وذلك فى حدود الصورة نفسها .

ومبلغ علمنا أو مبلغ مايستطيع العلم الحديث أن يناقض به علمنا أن الأقدار المسيطرة على ذرات مخنا قد تكون هى عقولنا نحن وقد تكون هذه العقول هى التى تؤثر بوساطة هذه الذرات فى حركة أجسامنا فتؤثر بذلك فى أحوال العالم الذى يحيط بنا . ولم يعد العلم اليوم قادراً على ألا يجيز هذا الاحتمال ،فليس لديه حجج دامغة يرد بها على ماهو متأصل فينا من الاعتقاد بأن لنا إرادة حرة . على أن هذا العلم لايشير أية إشارة إلى ماقد يكون لقدم السببية أو الجبرية من معنى ، فاذا كنا نحن والطبيعة بوجه عام لانستجيب بطريقة فذة للمؤثرات الخارجية فما الذى يجدد مجرى الحوادث ؟ فاذا كان ثمة مؤثر أياً كان نوعه فان هذا يلقى بنا فى أحضان الجبرية والعلّية وإذا لم يكن ثمة شىء من ذلك فكيف يستطيع حادث أن يحدث (١) »

---

(١) لم يبق الا خطوة حتى يتدين العلم مضطرا . ان العلم منكر الجبرية والعلية كما رأيت وانكاره هذا يضطره الى نفى الاحتمال الاول : احتمال تجدد مجرى الحوادث بمؤثر خارجى من عالمها ، فلم يبق للاجابة على سؤاله الاضطرارى : كيف يستطيع حادث أن يحدث ؟ الا جواب واحد هو ما أجمعت عليه الاديان وما توحى به فطرة الانسان فى كل ماعرف من تاريخه الى الآن (غ)

وفى رأيى أنه ليس من المحتمل أن نصل إلى نتائج قاطعة فى هذه المسائل إلا إذا فهمنا جيداً طبيعة الزمن الحقيقية خيراً مما نفهمها الآن.
ثم أبان صعوبة فهم الزمن وأن قوانين الطبيعة الأساسية لاتقول لم يمر الزمن بلا انقطاع بل مستعدة لتجويز احتمال بقائه ثابتاً لايتحرك بقدر تجويز احتمال رجوعه القهقرى. وذلك أن تقدم الزمان إلى الامام بلا انقطاع وهو جوهر الصلة بين العلة والمعلول إنما هو شيء أضفناه من تجاربنا الخاصة إلى قوانين الطبيعة المحققه وليست هى متأصلة فى طبيعة الزمن وإن كانت نظرية النسبية تهم أن تسم الرأى القائل بتقدم الزمن تقدماً مستمراً وبوجود الصلة بين العلة والمعلول بميسم الوهم والخداع »

إن ماهية الزمن وما يكتنفها من غموض هى التى تمنع أفكارنا من التقدم وتقف بها عند حد محدود. وإذا كان الزمن من المسائل الأساسية وإذا كان فهمه على حقيقته سيظل انه فوق مستوى مداركنا، فأكبر ظننا أننا سنظل أعجز من أن نقضى برأى حاسم فى النزاع الطويل الآن بين الجبريه والقدرية (١)

« على أن احتمال إلقاء مبدأ الجبرية وقانون السببية من علم الطبيعة يعدّ إلى حد ما من التطورات الحديثة فى تاريخ نظرية الكمة (الكونتم)

ثم ذكر قوانين بقاء المادة والكتلة والطاقة، واغترار علماء القرن التاسع عشر بذلك. ثم قال ص ٥٩ « وكان من عادة علماء الطبيعة فى القرن

---

(١) يعنى القول بقانون السببية والجبر وعدم تخلف المسبب عن سببه، والقول بانخرام قانون السببية وتدخل القدر الالهى والارادة الحرة فى نظام الكون والخلق.

التاسع عشر أن يتحدثوا عن هذه القوانين كأنها هي المسيطرة على الخليقة. وعلى هذا التفكير وضع الفلاسفة قواعدهم التي فرضوها على طبيعة الكون الأساسية . غير أن هذا كان يشبه الهدوء الذي يسبق العاصفة »

ثم ذكر كيف هبت العاصفة بالبحث النظري الذي قام به السير ج ج طمسون بتغيير كتلة أي جسم مكهرب إذا ما حرك .الخ

وقال ص ١٤٠ « وقد يرى كثيرون من الناحية الفلسفية العامة أن أهم ما أنتجه علم الطبيعة في القرن العشرين ليس هو نظرية النسبية وما أدت اليه من إدماج الفضاء والزمن معاً ، ولا هو نظرية الكمة وما يبدو منها في الوقت الحاضر من إنكار لقوانين السببية ، ولا هو تمزيق الذرة وما كشف عنه هذا التمزيق من أن الأشياء ليست كما تبدو في ظاهرها . بل أهم من هذا كله إقرارنا العام بأننا لم نلمس بعدُ الحقيقة النهائية ، فكأننا كما قال أفلاطون في تشبيهه الشهير لانزال محبوسين في كهفنا مستدبرين الضوء ، ولا نستطيع أن نشاهد غير الظلال على الجدار ، وكل ما يطلب إلى العلم الآن هو أن يدرس هذه الظلال ، وأن يبوبها ويفسرها بأسهل طريقة مستطاعة»

انتهى ما أردت نقله من كتاب الكون الغامض للسير جيمس جنز العالم الفلكي الرياضي الطبيعي الانكليزي العصري الذي مات من بضع سنين.

وقال (ا. ن . داس أندريه) في مقدمة كتابه « من أسرار الفطرة » تعريب الأستاذين الغمراوي والكرداني ، بعد ما لخص نظريات الطبيعه في الذرات في نصف القرن الماضي ونظريتها في أول هذا القرن ، وأورد

سؤال ناقدعالم الطبيعة إذيقول: منذنحو نصف قرن أخبرتنا أن الذرات صلبة لاتقبل انقساماً ولا انكساراً ، خُلقت كاملة أول الخليقة واستمرت منذئذ فى كمال غير منقوص . واليوم تخبرنا أن الذرات بنيات متفككة يسهل جداً كسرها . فأنت تتحدث عن ذرات شعّاعة تتكسر وتتحول إلى ذرات أبسط ، بل وتبحث فى احتمال أن تكون الذرات الأثقل قد تكونت فى الأصل من الذرات الأخف . فأى قوليك نصدق ؟ إن نظريتك التى يقبلها جيل ينبذها الجيل الذى بعده ، فمن أين لنا أن نثق أنك هذه المرة على صواب ؟ فأجاب بقوله : إن الجواب الصحيح فى رأيي هو أننا لا نزعم لنظرياتنا أى صدق مطلق ، إن الذى نزعمه إن نظرية مثل نظريتنا الذرية الحديثة لها مزايا عظيمة — إلى أن قال :

والنظرية تكون أحسن وأفضل كلما قل ما تستلزمه من افتراضات أساسية لتفسير مايراد تفسيره . ولسنا نزعم لنظرية أنها نهائية بوجه من الوجوه ، فقد نفاجأ بكشف جديد يرغمنا على تعديل كثير من تفاصيلها . ثم قال : من هذه الوجهه تكون أية نظرية علمية خاصة مجرد أداة وقتية نتخذها لنقتطع بها من كتلة الفطرة معرفة لنا بالعالم المادى ، وقد تحل محلها فى أية لحظة نظرية جديدة .

ثم قال : فالفرق إذاً بين أى اعتقاد دينى ، وبين نظرية علميه أن الاعتقاد فيه عند معتقديه عنصر من الحقيقة المطلقة ، انه لهم علَم يثبتون حوله أو يسقطون ، وفى التخلى عنه العار والاثم . أما النظرية العلمية فهى عند أهلها صحيحة مادامت نافعة ، ويعتبر رجل العلم حتى أحسن نظرياته

وسيلة مؤقتة تعينه على طريقه ، ولا ينفك ينظر حوله منقباً لعله يجد شيئاً خيراً منها وأشمل .اه

فهذا عالم طبيعي يكتب رسالة فى نظريات الطبيعة الجديدة على ضوء ما اكتشف فى أول هذا القرن وآخر الماضي يقول : لا نزعم لنظرياتنا أى صدق ، ولسنا نزعم لنظرية أنها نهائية بوجه من الوجوه فقد نفاجأ بكشف جديد يرغمنا على تغيير كثير من تفاصيلها ، ويعتبر رجل العلم نظرياته حتى أحسنها وسيلة مؤقتة ، ويرجو خيراً منها (١)

وقصدى بهذا هو الرد على هذا المغرور الذي يريدنا على الكفر بديننا لأجل ماسماه العلم والأسباب تبعاً لصنمه وغوستافه فى كتابه « الآراء والمعتقدات » فهذا كلام أهل العلم العصرى فيه ، وهذا كلامهم فى الأسباب التى يريد منا أن نعتقد عجز الله تعالى عن تعطيلها إذا شاء عطلها ، وأنه لا يوجد مسبب إلا بسبب ، وأنه من يؤمن بالله فاعلا مختارا لا يكون سببياً فلا يكون ناجحاً كما قرره فى فصله الأخير ، ونقلنا لك نصوص عباراته الشنيعة فى ذلك الفصل الذى يشكك فيه فى وجود الله تعالى

ولست أكتب هذا لأهل الايمان بدينهم ، وبكتاب ربهم وبما جاء فيه من أوصاف الله تعالى وكمالاته وقدرته وحكمته واختياره ، وما اتفقت عليه الديانات فى الايمان بالله واختياره . وإنما كتبت هذا للذين اغتروا بكلام صاحب الأغلال فتشككوا فى كلام الله وكلام نبيه ، وآيات الله التى

---

(١) فكيف يمكن أن يبنى عاقل على النظريات العلمية مهما كانت ، نقداً يشكك به فى أصل من أصول الدين اليقينية (غ)

التى أيد بها رسله ، وأكرم بها أولياءه ، بل تشككوا فى الله سبحانه الفاعل المختار . وقد كشف عن اعتقاده أن المؤمن بالله فاعلا مختارا لا يمكن أن يكون سببيا مؤمنا بالأسباب ، ولا أن يكون ناجحا ، وقد أشاد بالأسباب فى كتابه وعقد لها فصلا خاصا ، فأبان بهذا أنه لا يؤمن بالله العظيم رب العالمين خالق السموات والأرض سبحانه وتعالى عما يقول الدهريون علوا كبيرا الذين قلدهم بغير عقل ولا بصيرة ولا فهم كلوبون وقد نقلت لك من كتاب الآراء والمعتقدات ماتعلم منه أصول كتاب الأغلال . فالرجل الذى يصف أنبياء الله ورسله فى كتابه «حضارة العرب» ص ٣٤ بأنهم من ذوى الهوس ، ويقول فيه آخر « ص ٣٣» « حقا إن من عجائب التاريخ أن يلبى نداء ذلك المهوس الشهير - يعنى النبى ﷺ أعلى الله قدره وصانه من هذا الشين - شعب جامح شديد الشكيمة لم يقدر على قهره فاتح ، وأن تنهار أمام اسمه أقوى الدول ، وأن لا يزال يمسك وهو فى جدثه ملايين من الناس تحت لواء شرعه» الخ

فهل مثل هذا الجاهل الوقح يقلد ويجعل أصول دهريته مواد لتحريف دين الأنبياء اليها ؟

فاسمع كلام صاحب الأغلال فى المتدين ومن يؤمن بالله واليوم الآخر واقرأ من وسط «ص٣١٦ » إلى وسط ٣١٧ كيف تهكم بالمتدينين وبإلههم وشبههم وشبه إلههم أقبح تشبيه إلى أن قال « ص٣١٧ »

« اننا اذا تصورنا ذلك كله لم يعسر علينا أن ندرك كيف عجز المتدينون

ـ على اختلاف ديارهم وأزمانهم وأنبيائهم[1] وأمزجتهم وأجناسهم ـ عن أن يهبوا الحياة شيئاً جديداً ، وأن يكونوا فيها مخلوقات متألقة

(وأمر آخر) ذلك أن المؤمنين يرون دائما ان الله حينما خلق العالم وخلقهم قد ضمن أرزاقهم وكفلها وتعهد بحمايتهم ورعايتهم فى كل أمورهم أو جلها . . . فيصيبهم هذا الاعتقاد بمثل ما يصاب به الطفل المدلل المكفول بين والدين مدللين رحيمين ثريين أى يصاب بالتواكل والاعتماد على القوى الخارجيه وحينئذ لا يصنعون لأنفسهم مايجب أن يُصنع وما لن يظفروا به إلا اذا صنعوه هم ولا يمكن أن يكونوا فى أفكارهم مثل الذين يرون أنهم متروكون موكولون لقواهم ولأنفسهم .

ومثّل بالطفل المدلل مع ذلك الرجل العصامى الذى يعمل ويناضل ليعيش وإلا فلا سبيل له إلى البقاء .

ثم قال فى آخر «ص ٣١٧»

« ثم ان المؤمن يعتقد عادة ـ بأن الله تفضل عليه وأوجده من صميم العدم فمن الواجب عليه أن يشغل بخدمة ذلك الرب المتفضل وبالانقطاع لعبادته . . . وأن يصرف ـ ان استطاع ـ كل قواه وأعماله وأوقاته أو أكثر ذلك الى القيام بشكر ذلك المنعم الخالق المتفضل . . وحينئذ يجىء عاجزاً فى تناوله الأمور والحياة ويكون دون ذلك الذى صرف جميع قواه وأوقاته فى سبيل الانتصار فى معركة الوجود والبقاء »

---

(١) تأمل ذكر « أنبيائهم » لتعرف نفاقه حينما يذكر أنه يريد الدين الباطل فما كان الأنبياء ليأتوا الا بالدين الصحيح فهم عنده لم يهبوا الحياة شيئاً جديداً ولم يكونوا فيها مخلوقات متألقة يعنى كالملاحدة والزنادقة الذين وهبوا الحياة وتألقوا فيها بزعمه ، وياليته أعلن دهريته صراحة بدل هذا النفاق المفضوح وهاجم بطلا لا ثعلبا مراوغا محتالا

هذا هو رأيه فى الايمان بالله والمؤمنين به لايحتاج إلى تعليق ، تكفى قراءته للحكم عليه .

أما رأيه فى الايمان باليوم الآخر ركن الايمان فى كل الأديان السماوية ، والذى قرنه الله مع الايمان به فى غير آية ، فقد مهد لذلك بذكر الآمال والأهداف ، وان المؤمن هدفه الأكبر وأمله الذى يملأ قلبه هو الايمان بالآخرة . ثم رتب الحكم على ذلك فقال (ص٣١٨)

« على أن هنالك ماهو أكبر وأظهر فى ايجاد الاختلاف بين المتدين وغيره فى هذه القضية

ثم ذكر أنه لابد للانسان من أمل وأنه لايحيا إلا بأمل ، واختلاف الناس بحسب اختلاف آمالهم . إلى أن قال آخر هذه الصفحة

« على انه لاخلاف فى أن أسمى هذه الآمال وأقواها فى الاجتذاب والتوجيه والسلطان هو ذلك الامل الضخم الابدى فى تلك الحياة الفخمة الابدية التى ينال فيها المرء الخلود وكل مايرجى من حاجات الجسم والنفس بدون أن يكدر ذلك شىء من المكدرات المعروفة التى تشوب لذائذ هذه الحياة الاولى القصيرة ، فاذا استطاع إنسان أن يتمثل هذا الامل وأن يغنى ويتغنى به ، فلا محالة من أن يشغله ذلك عن كل شىء فى هذا الوجود وقد يطغى عليه وعلى وجوده حتى لايدع لهذه الحياة شيئاً وقد يدع شيئاً قليلا أو كثيراً ، وقد يفنى عن هذه الحياة ويغيب عنها لانه ليس من أهلها لا ينافس ولا يغاضب ، ويصير كذلك الرجل الورع الطيب (يعنى عبد الله بن عمر) الذى صرفه ورعه ودينه عن كل ماهنا حتى قال فيه معاوية بن أبى سفيان ، وهو يضع خطوط الطريق لابنه يزيد ، أما فلان (يعنى ابن عمر) فقد أعجزه الورع فدع له دينه يدع لك دنياك

فاذا لاحظنا على المتدينين ـ أفراداً وشعوباً ـ عجزاً عن ايجاد الحياة وعن

التحليق بالصناعة والزراعة أو التجارة أو العلوم المادية الانسانية ، أوعن أى شىء ما من وسائل الحياة وأسبابها فلتعلم أن أحد أسباب هذا العجز هو التصور لهذا الامل العظيم (أمل الايمان بالآخرة وسعادتها) والانصراف اليه بأكثر العقل وأكثر الامل وأعظم الاهتمام

ثم مثل بعلى بن أبي طالب وجيوشه وانهزامهم وانهيارهم لايمانهم أمام معاوية وجنوده — يعنى لعدم إيمانهم — ثم قال ص ٣١٩

« واذا ألفينا الرجل التقى الورع المحافظ على فروضه وعباداته ينهزم شر هزيمة فى كل عمل يتناوله أمام ذلك الذى جعل فرضه ودينه وعبادته هو التحليق بتجارته أو صناعته مصيراً ذلك إلهه المطاع المعبود وربه

فالمؤمنون يشتغلون اذن بأملهم فى الآخرة عن أن يصنعوا لهم فى الدنيا أملا جسيماً عظيماً فيأتون عادة عاجزين عن اللحاق بالآخرين الذين صنعوا لهم هذا الأمل ثم أعطوه كل نشاطهم وإبداعهم فأصبحوا فيها السادة الغالبين

ثم مثل بأوربا أيام كانت مؤمنة بالكنيسة فى ذلها وهوانها ، وضعفها وعجزها . ثم قال :

« فلما أن مرقت من إيمانها وتنازلت عن ذلك الأمل الاخروى وجعلت الصناعة والتجارة والحياة الكبيرة القوية هى آلهتها التى وحدتها وأبت الاشراك بها صعدت بالحياة الصعود الذى أعجز أبصارنا بنوره والنظر إليه . وقد قال أحد فلاسفة الانجليز المعاصرين [1] المدرسين اليوم فى إحدى الجامعات البريطانية — وهو ملحد كما هو الظاهر — إن أوربا لم تستطع أن تكون أوربا إلا بعد أن أعتقت نفسها من رق الإيمان بالآخرة وبالله »

(١) الظاهر أن العبارة هى لغوستاف لوبون فالمعاصرة هى له لا للكاتب خوف ما توهمه عبارته وسرقته التى لم يعز فيها [الكلام] لصاحبه . ولعله يريد سبنسر فيلسوف الانجليز

ثم مثل بروسيا القيصرية المسيحية منذ أقل من ثلاثين عاما انها كانت مثلا طيباً للفقر وللضعف والمسكنة والجهل حينما كانت مسيحية متدينة صالحة. فلما أن مرق بها البلاشفة وصنعوا لها أرباباً أخرى وعبادة أخرى صارت هى روسيا اليوم قاهرة ألمانيا التى لم تكن تقهر. الخ .. والواقع يكذبه فروسيا الدهرية الشيوعية ليست خيراً الآن من روسيا القيصرية المسيحية فى الغنى والقوة، ولا روسيا الشيوعية الدهرية هى التى كسرت ألمانيا وحدها بقوتها ودهريتها، وأسباب هزيمة ألمانيا معلوم لأطفال السياسة، فمقدمات استدلال الكاتب كنتائجها سفسطة وكذب على الواقع ولكن الهوى فى احتقار الدين ورميه بكل باطل يعمى ويصم، وما الحيلة فيمن يخرق (١) ثم يستدل لخرقه ببهتان يفضحه الواقع المشهود ؟

ثم مثل بتركيا اليوم وكل الأمم الحديثة والقديمة وباليابان والصين، ثم بالهند واختلاف الديانات فيها. إلى أن قال ص ٣٢١

والعقلاء يعلمون اليوم جميعاً أن الهند لن تظفر بالحياة المرتجاة ما لم تغير أديانها أو تغير فهمها لها أو تتركها.

وقد أكذبه الله فى كذبه على العقلاء، والهند اليوم تسلمت مقاليد حكمها، وصارت دفة البلاد بيد أهلها، هندوسها ومسلميها كل فى بلاده بدون تغيير دينهم. فأعجب بالجراءة على الله وعلى غيبه ومستقبله

ثم مثل بإبداع الاغريق والرومان والمصريين القدماء (٢) وغيرهم لمبالغتهم فى حب مظاهر هذه الطبيعة حتى عبدوها وصيروها كل أملهم ورجائهم المنشود

---

(١) خرق كذب واختلق ومنه قوله تعالى (وخرقوا له بنين وبنات بغير علم)

(٢) المعروف أن مدنية قدماء المصريين ورقيهم إنما كانت بدافع الايمان بالآخرة

« وهوت الأمم الأخرى التي انصرفت بآمالها عما ترى وتحس وتجد ، إلى ما لا تحس ولا تجد ولا ترى ، حتى ان رجلا فيلسوفا عظيما هو الدكتور غوستاف لوبون لما لاحظ هذا قال في كتابه الموسوم (بالآراء والمعتقدات) « إن الايمان بالله وحده كان نكبة على البشر » لأنه على ما زعم قد وقف بالحضارة عن التقدم إلى الأمام . قال « ولم تستطع الحضارة البشرية أن تخطو خطواتها الصحيحة إلا في عهود الوثنية وعبادة الأصنام » (١)

تبرأ الكاتب في حاشية سفلى هنا من كل زيغ وإلحاد ، وأن غرضه من هذه الاقوال الاعتبار وطلب الفائدة ، لا الايمان بها ، مع أنه قررها أولا وأعاد وكرر في تقريرها ، فما استشهد بكلام غوستاف لوبون إلا بعد ماقرره في عمل الاغريق وما عطف عليهم وإبداعهم لعبادتهم ماتحس . الخ ثم إذا كانت في هذه الأقوال فائدة واعتبار فلمَ لا يؤمن بها ؟ هل يستفيد الانسان ويعتبر الا بما يؤمن به ؟ وأي فرق بين قول غوستاف وقول الكاتب «وهوت جميع الأمم التي انصرفت بآمالها عما ترى وتحس وتجد إلى ما لا تحس ولا تجد ولا ترى »

أليس هذا هو الكفر بعالم الغيب الذي هو أحد أركان الايمان في الديانات السماويه كلها ، فالله وملائكته واليوم الآخر والجن وخبر الرسل المتقدمين : كل ذلك من الغيب الذي يجب الايمان به والذي امتلأ به كتاب

---

(١) لم يكن يخطر ببال أن يصل السفه والشطط بملحد أيا كان إلى تفضيل الوثنية على الاديان السماويه ، وعبادة الاصنام على عبادة الله ، وعقل ينزل به السفه إلى هذا الدرك جدير ألا يؤبه بأي قول يقوله في أي ميدان من ميادين القول لا أن يؤتم به ويحتج بقوله في نقد دين ما ، بله دين الاسلام (غ)

الله تعالى حتى ان أول وصف المتقين فى أول سورة البقرة قوله تعالى (الذين يؤمنون بالغيب) فاذا قرر الكاتب أن الامم التى تترك ماتجد وترى وتحس إلى مالاترى ولاتجد ولاتحس ، تهوى . فهذا هو قول غوستاف : ان الايمان بالله وحده كان نكبة على البشر ولم تستطع الحضارة البشرية أن تخطو خطواتها الصحيحة القويه إلا فى عهود الوثنية وعبادة الاصنام

فهل يظن الكاتب أن القراء لا عقول لهم فيقرر كلام لوبون أعظم تقرير ، ويستدل به ثم يذر الرماد فى العيون بهذه الحاشية المتهافتة التى ينقضها ما فى أعلى الصحيفة

ثم مثل بملاحظات فردية بنجاح غير الأتقياء فقال ص ٣٢٢

« ومن الملاحظات الفردية فى هذه القضية أن الآحاد الذين نراهم ينجحون فى التجارة أو الصناعة أو العلوم أو غيرها من الجوانب الانسانية هم دائما من غير الأتقياء الورعين وأنه لا يقدر على المنافسة القاصمة إلا أولئك الذين تركوا الأوامر الدينية جانباً وراءهم حتى اننا إذا حاولنا أن نلتمس فى تاريخنا نفسه مكان أولئك الأفذاذ القلائل الذين بلغوا فى سماء الشعر والأدب الخالد أو قاموا بنظريات علمية لها بقاء وخلود أو جاؤوا بفلسفة ذات شأن معترف به بين الفلسفات لم نجدهم إلا بين أولئك الذين وصفوا بالتمرد والانحلال الدينى أمثال المتنبي وأبي العلاء وابن الرومى والجاحظ وابن سيناء والرازى والفارابى وابن رشد وجابر بن حيان والحسن بن الهيثم وسواهم . ولا نزال حتى اليوم نرى أنه لايقوم بتصريف شؤون الدولة الكبيرة كالوزارة والسفارة وأمثالها الاجماعات تختار من غير الأتقياء حتى امنا (يريد أمتنا يعنى السعودية) التى شهرت بالتدين وبتأسيس ملكها وحكمها على أوامر الله نجدها تعرف هذا وتعترف به وتكل أمورها الرسمية ذات الشأن إلى غير المتدينين ، وهذا لانها تعلم بالاستقراء والتجربة

أن هـذه الشؤون اذا أسندت الى جماعات الصالحين لم يحسنوا اولم يستطيعوا القيام بها »

ثم استشهد بقول عمر « لوددت انى وجدت رجلا قويا تقياً مسلماً أستعمله » وبقوله « إني أشكو إليك جَلد الفاجر وعجز الورع » الذى لم يفهم الكاتب مراد عمر منه فلم يكن عمر يوما ما دهريا حتى أيام جاهليته بل كان يعرف الله ويخافه بالغيب ويقدم فى حكومته المؤمنين ويرضاهم ويأتمنهم ويبعد الفسقة بله الكفرة بله الدهرية ، وحكاية إنكاره على عامله أبي موسى الأشعرى استكتابه لنصرانى معروفة .

وهنا نسأل الكاتب سؤالين نرجو جوابهما صريحاً بدون مداورة أو روغان .

(الاول) مؤسس المملكة العربية جلالة الملك عبد العزيز بن سعود هل هو مع نجاحه الباهر تقى ورع صالح أو فاجر متمرد تارك لدينه وراء ظهره ؟ فان قال بالاول انتقضت قاعدته رأساً على عقب ، وان قال بالثاني - ولا أظنه يقول به وان اعتقده - كذّبه الواقع الملموس المحسوس . فهو مخالف للواقع على كل حال

(ثانياً) عمر بن الخطاب ذلك العبقرى الناجح الذى فتح الشرق والغرب هل كان متدينا تقيا ورعاً متبعا لدينه مصلياً مسبحاً عابداً أو كان فاجراً فاسقاً تاركا لدينه وراء ظهره ؟ فان قال بالأول تبعثر كتابه شذر مذر ، وتبخرت بحوثه وجهوده ،وتناثرت أفكاره وذهبت أدراج الرياح وانمحق مايدعو اليه ويشير به من الكفر بالله واليوم الآخر والفجور والالحاد .

وإن قال بالثاني باهت التاريخ والواقع ، وصار مفتريا كذابا أفاكا ، قليل العقل والحياء .

ثم نسأل عظماء رجال المملكة السعودية من وزراء وسفراء وغيرهم : هل هم حقيقة فجار فساق ليس لهم دين ولا تقوى ولا ورع ، فلذلك نجحوا وأسندت اليهم هذه المهام لعدم دينهم ولفسقهم وفجورهم ، وعدم تقواهم وورعهم ؟ ثم نسأل الحكومة السعودية نفسها : هل هي حقا وثقت بمن لادين له لعدم دينه ، وأنها لاتثق بالمتدينين من أجل دينهم ؟ وهل حقا ماقاله ذلك الكاتب فيها وفي رجالها ؟ نريد أجوبة صريحة في ذلك كله

المتدينون لا عقل لهم بتجربة الكاتب وحكمه عليهم . قال ص ٣٢٣

ثم انه قد علم بالتجربة أن المتدينين يفقدون الميزان الفكري الذي توزن به الأمور في الغالب [1] ويصبحون من الناحية النفسية أناساً طيبين خيرين فاقدين لكل مناعة عقلية مستعدين استعداداً غريباً للوقوع في حبائل المشعوذين والدعاة المضللين ، عمين عن كل الحقائق التي يراها ويستفيد منها الآخرون ويرتفع لديهم سعر التهريج والدجل ارتفاعاً عجيباً وتنبت أرضهم الدعاة الكثيرين - دينيين وغير

---

(١) فان أردت الاصول التي فرعها الكاتب من كلام غوستافه في كتابه (الآراء والمعتقدات) فاسمع لقولة لوبون ص١٤٦ « المعتقد هو إيمان لا يتطلب لثبات أمره أدلة — الى قوله « وبراهين المؤمنين في الغالب صبيانية بالنسبة للعقل ومع ذلك فليس من خصائص العقل أن يقضي فيها لاشتقاقها من عناصر دينية أو عاطفية لا صلة بينه وبينها . ولما كان العقل غير مشترك في تكوين المعتقدات فانه لا حد لسرعة التصديق في المؤمن ، ولا يتخيل أن المؤمن يعاقد الاشياء من غير برهان بدليل أنه يستشهد بالبراهين على الدوام ، غير أن هذه البراهين التي يقنع بها تدل على مافيه من سذاجة متناهية ، وسرعة تصديق متأصلة »

دينيين ـ ويصيخون لكل ناعق ويهبون بسخاء نادر جيوبهم وقلوبهم وعقائدهم لكل سائل لأنهم بعد أن عزلوا [1] العقل وتنازلوا عن تحكيمه عجزوا عن أن يعرفوا الحق من الباطل ، والصادق من الكاذب ، والقائد من الصائد ، فصدقوا المستحيلات والمتناقضات ، وآمنوا بأشنع الترهات ، لان العاصم من كل ذلك وهو العقل — قد أُبعد وعزل »

ثم مثل لانهيار عقل المتدينين بتصديقهم لما كان يشاع فى الحرب الماضية ثم استطرد فعمم عدم العقل عند المتدينين قديماً كما هو الحال الآن ، واستشهد بأشعار من ذلك ثم كلف نفسه تعليل ذلك فقال ص ٣٢٥

« ومن الواجب أن نعرف سبب هذا الاستسلام والضعف الفكرى لدى هؤلاء المتدينين والذى يظهر لنا كثيراً أن من أسبابه أنهم ينكرون أن يكون بين أحداث هذا الوجود ترابط عقلى وتعليل ثابت بل يرون أن الوجود كله ـ بما فيه من حوادث وأحداث محكوم بقوة مجنونة ـ أو هى كالمجنونة ـ فى أفعالها وتصرفها (أنظر كيف يعبر عن الله الفاعل المختار) ولهذا فلا قوانين ولا ضوابط للمعجزات والخوارق ـ تأمل شكه فى آيات الأنبياء ومعجزاتهم ـ فكل

---

(١) من الذى قال ان المؤمنين المتدينين عزلوا العقل وتنازلوا عن تحكيمه ؟ وأى قيمة لقول كهذا مادام مصدره الهوى والتجنى على الدين وأهله ؟ ومن الذى قال إن الاسلام يعزل عن العقل ـ والرجل يكتب للمسلمين لا لليهود ولا للهندوس والاسلام يحكم العقل ويأمر بحسن تصريفه واستعماله فى مئات الآيات

ان الرجل يكذب ويفترى ويتخذ من افتراءاته حججا على الناس ممن يكره ؛ وللناس ممن يود أن لو كان مثلهم فى الدنيا . ولقد كان يستطيع أن يقلد أهل الدنيا فى أخلاقهم وسننهم ويجربها فى نفسه لننظر أين تفضى به من غير أن يطعن فى أهل التدين كل هذا الطعن المنكر المكذوب (غ)

شيء جائز وكل شيء مستحيل [1] فيصابون بالفساد الفكرى العام وإذا اختلت الوسيلة فكذلك النتيجة .وإذا انهار الاساس انهار بلا شك مارفع عليه ! ولن تجد ميزانا فكريا لدى هؤلاء الذين يعيشون فى هذاالجو المسحور المجنون المائج بالخوارق والمعجزات والكرامات التى صنعها الشيوخ والصالحون ساخرين من القوانين الطبيعية »

فأعاد ما كرره سابقا ان الايمان برب فاعل مختار يفعل ما يشاء على مقتضى حكمته لا على موجب هوس الماديين الطبيعيين وأغلالهم المقيدة لأفهامهم ، وأنه يؤيد رسله بالآيات والخوارق التى تعمى عيون معارضيهم وتحير أصحاب الفكر المادى ، فيلجأون إلى البهت والتكذيب بما لم يحيطوا به علماً .قرر الكاتب أن هذا كله مناقض للعقل مبعد له .الخ ماسمعته من كلامه .ثم مثل ضعف عقولهم بقسوة قلوبهم معللا لذلك فقال ص ٣٢٥

« وهذا التعليل صحيح على وجه الاجمال كما يبدو لنا كما علل بعض علماء النفس والاجتماع القسوة التى يتصف بها المتدينون غالباً إذا قدروا وأخذهم خصومهم أخذاً خالياً من الشفقة الانسانية ـ بكثرة ممارستهم صناعة التخويف والتهويل للعصاة والكافرين وكثرة قراءتهم النصوص التى تصف الأهوال المعدّة لأهل الآثام والشهوات فقد صاغوا طباعهم وأنفسهم بطابع الغضب والقسوة والعنف فارتاضوا على ذلك كثيراً حتى أصبحوا وحوشاً تنطق باسم الدين وتفترس على حسابه . ومن ثم فاننا نعتقد أن هذه الجماعات المنسوبة إلى الدين الناطقة باسمه لو انها استطاعت الوثوب على الحكم ووضعت السلاح فى يدها لحكم البشر

---

(١) كذا والعبارة مختلة ولعلها كانت هكذا « وكل شيء غير مستحيل » ولكن غير الورعين الذين طبع كتابه عندهم حرفوها له كما أنه مرت تحريفات أخرى غيرها ص ٢٩٠ س ٧ وس ٩ فكيف لم يصححها ولا غير المتدينين

عهد من الارهاب يتضاءل ازاءه كل إرهاب يستنكره العالم اليوم [1] . وهذا أمر يجب أن يعرفه أولو الرأى والمقدرة وأن يحسبوا له الحساب قبل فوات الأوان ولن تجد أقسى قلباً ولا أفتك يداً من إنسان يثب على عنقك ومالك ويقتلك ويسلبك معتقداً أنه يتقرب إلى الله بذلك ويجاهد فى سبيله وينفذ أوامره وشرائعه . والسوء لمن ناموا على فوهة البركان قائلين لعله لا ينطلق [2]

ففى هذا الكلام استهزاء بالنصوص الدينية الأخروية فى وعيد العصاة والفجرة والكفرة . فاذا ضُم مع ماتقدم من التشكيك فى الله تعالى

(١) هذا كلام ملقى إلقاء من غير تقدير ولا حساب وإلا فالتعصب ضد أهل الدين هو وحده الذى يزين لمثل هذا الرجل أن أهل الدين يكونون فى الحكم أقسى على خصومهم من أهل الثورة الفرنسية مثلا فى الماضى وأهل الشيوعية فى الحاضر (غ)

(٢) وفى حاشية ص ١٨٠ رمى المتدينين بالقسوة والخشونة فى معاملة الناس ، وعلل ذلك باعتقادهم أن الاتصال بالله والايمان بعظمته وكامل قوته يستلزم إهانة خلقه الضعفاء فشتمهم وإهانتهم كالبرهان على الثقة بالله وعلى أن الضر والنفع منه وحده . اه فهل تعجب من هذا البهتان الذى يفضحه الواقع أو من الحقد على الدين وأهله أو من هذه القحة المفضوحة وإن أردت أن تعرف كيف نبت هذا الفرع الأغلالى من أصل غوستاف فاقرأ ما كتبه لوبون فى كتابه (الآراء والمعتقدات) ص ١٤٦ س ٧ « ويتضمن اليقين الدينى واليقين العاطفى فى الانسان احتياجا يدفعه إلى حمل الناس عليها ، فالمرء عند مايؤانس من نفسه قوة لا يتحمل أن يرى يقينا غير يقينه عند الباقين ولا يتأخر لحظة عن اقتراف أشد المظالم والاتيان بأفظع المذابح فى هذا السبيل حتى لقد خرب أولو اليقين العالم فى كل زمان ومما على الأمة أن يقودها هؤلاء . . . فليوقن رجل ذو قوة كأمبراطور المانيا يقتبس قوته من الله ثم ليتوهم أن الله أمره بشهر الحرب على الملاحدة لنرى كيف يقلب أوربا كما قلبت فى الماضى بفعل مثل ذلك اليقين » اه

واحتقار المؤمنين بالآخرة ، وتعظيم الفجار والكفار والكفرة بهما،علمت ماينطوى عليه جناح الكاتب وأهدافه فى أغلاله . ثم التشهير بالدين وأهله ورميهم بالقسوة والغلظة التى لانظير لها فى تاريخ العالم ؛ ثم تحريض أهل القوة والرأى والسياسة على خنق الدين وأهله وكتم أنفاسهم ومحقهم قبل أن يثوروا كالبركان، ثم الهزء بالجهاد فى سبيل الله ورمى أهله بالقسوة والوحشية

كنت أعجب كيف جاءت هذه الأفكار الهدامة الفجة الدهرية لمثل هذا المطوع (١) العامى الذى لم يؤت من العلم ما يوازى الشهادة الابتدائية فضلا عما فوقها من فنون العلم والعرفان ،وبدايته ونهايته العلمية معروفة لدى عارفيه فقط ثم خطر ببالى انه طالع كتب غوستاف لوبون مثل كتابه « الآراء والاعتقادات » « وروح الاجتماع » « وسر تطور الأمم » الخ وأمثاله من الهدامين لجمود النصرانية فى العصور المتأخرة ومحاربة سيطرة الكنيسة على أهلها بالعدوان والظلم والجهل

فتغذى هذا الكاتب بهذا القيح والصديد ونفثه سموماً على دين الاسلام وأهله ولم يعلم ـ وهو يدعى العلم والفهم ـ ان الاسلام وأهله وتاريخه غير النصرانية وأهلها وتاريخها ولكن (من لم يجعل الله له نورا فما له من نور) (ومن يضلل الله فلن تجد له وليا مرشدا) (أرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله؟ أفلا تذكرون)

---

(١) المطوع بلغة نجد هو المتشبه بالمتعلمين وليس بهم وهم كصنف الفقهاء بمصر الذين يظهرون بمظهر العلماء وملابسهم وليسوا بهم .

أراد الكاتب أول ص ٣٢٦ ان يعتذر عما يصق من قيح وسموم وأقذار فى وجه طهارة الدين ونقائه فاعتذر بعذرين (احدهما) ان الدين «إذا أُخذ على غير وجهه وقصده جاء ضاراً ومفسداً لأخلاق الانسان وكل معانيه الطيبه ..(وثانيهما) أن البشر عاجزون — فيما يبدو لنا حتى اليوم ـ عن أخذه وفهمه وتصوره على وجهه النافع المفيد بل هم إما أن يبقوا غير متدينين أو متدينين تدينا باطلا ـ كما أثبت هذا جملة تاريخ الانسان ولابد من استثناء فترات أو ومضات قليلة خافتة « ويظهر أن المبادىء الانسانية العظيمة تأتى دائماً سابقة لاستعداد الجماهير من البشر فاذا دعوا إليها أو فرضت عليهم ـ قبل تمام هذا الاستعداد ـ أخذوها أخذاً سيئا ضاراً بهم وبالمبادىء نفسها وذهبوا يعملون بها على غير وجهها وصوابها ومن هنا تأتى النكبة . . والدين هو أحد هذه الأمور الجميلة التى عجز الناس عن تصورها تصوراً صحيحاً لأنها جاءت قبل استيفاء استعدادهم الموقوت،فراحوا ضحايا هذا التصور الباطل »

فالدين فى نظر الكاتب لم يفهمه الناس إلى اليوم ، والرسل تبعث عبثا وأتباعهم لا يعرفون الدين حتى يجىء هذا الكاتب ومن تغذى بأفكارهم فيفهمون الدين فهماً دهريا ،من أسباب لاتتخلف ،ولا يمكن لله أن يبطلها ، ولا أن يحول بينها وبين مسبباتها . وكذلك من فهم الله فاعلا مختاراً يؤيد رسله بالآيات ويخرق لهم النواميس التى لاتخرق عندهذا الكاتب وأمثاله فقد فهم الله قوة مجنونة أو كالمجنونة فلم يفهم الدين فهماً صحيحاً ، ومن كان سببياً ناجحاً فلابد له من الشك فى الله وقدرته ، ومن آمن بالله فلن يكون سببياً ناجحاً له عمل فى الحياة متألقا فيها . أما أنبياء بنى إسرائيل وأنبياء المتدينين عموما فكانوا كالايمان بالله واليوم الآخر نكبة على البشر تأخيراً للحياة وأهلها . الخ

ويتنبأ الكاتب ص ٣٢٦

بمجيء اليوم الذى يقدر البشر فيه أن يدركوا من حقائق الأديان مالم يدركوا وأن يفهموها ويفهموا مراميها السامية كما أريد منها وبها وحينئذ — حينئذ فقط ستبلغ بهم السمو المقدر لهم ولها »

ذلك اليوم الذى يترقبه الكاتب فيما نراه نحن هو يوم انتشار الفوضى الأخلاقية والدينية ، يوم يمشى الناس عراة كالبهائم ، ويتسافدون فى الطرقات كالحمر ، كما أشار اليه الحديث الصحيح « إن الساعة لا تقوم إلا على شرار الناس وعلى لكع بن لكع » ويوم تطلع الشمس من مغربها وحينئذ (لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا) (وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم إن الناس كانوا بآياتنا لا يؤمنون) وينطمس معالم الدين حتى لا يقال فى الأرض الله الله . يوم تهب ريح طيبة فتقبض كل نفس مؤمنة ، وتكون حينئذ الدهرية مستحكمة ، والايمان بالطبيعة وجمالها — على حد تعبير الكاتب — قائماً، آخذا بزمام الناس ، وحينئذ تكون الساعة كالحامل المتم لا يدرى أهلها متى يفجأهم وضعها ...

﴿ فصل أمامنا لا وراءنا ﴾ ص ٢٨٧

يريدنا الكاتب فيه أن نكفر بالقرون الفاضلة من الصحابة والتابعين ونرفض القدوة بهم وتعظيمهم ، وأن نكفر بهؤلاء الأئمة ومعارفهم وفضائلهم ، وما قالوه وعملوه أو تركوه لنا ، وتهكم بمن يدعو إلى الأخذ بما أخذ به الأولون ، فقرر نظرية النشوء والارتقاء فى المادة والجماد والنبات والحيوان ؛ وحكى ماتخيلوه فى كيفية نشوء هذا العالم من مادة سديمية وكيف تجمعت وتكتلت شموساً وسيارات وأقمارا بكلام غير مفهوم بلسان العلم اليوم ولا بلسان الدين أمس ، فقال (ص٢٨٨)

« ثم أخذت هذه النجوم والشموس بالتفاعل نفسه وبالاستعداد والمخبوء فيها للتطور تنقسم على نفسها وتنفصل عنها النجوم والسيارات والتوابع ليكون لكل شمس من هذه الشموس مجموعة متماسكة من هذه المجموعات التى يدعونها اليوم المجموعات الشمسية أو المجموعات النجمية التى إحداها مجموعتنا الشمسية التى نحن إحدى رعاياها .

فأنت ترى فى تعبيره هذا أنه لم يقل أو لم يعرف ماقاله العلم اليوم فى تولد الشموس والسيارات وتوابعها ، ولو قرأ كتاب (النجوم فى مسالكها) وكتاب (الكون الغامض) كلاهما للسير جنز الفلكى الانكليزى ، لكان له تعبير آخر أقرب إلى كلام أهل هذا الفن . ولسنا فى صدد حكاية كلامهم ، فهو مبسوط فى محله ، والغرض التنبيه على أن الكاتب وقف على نظرية لابلاس فى توالد السيارات من الشموس ، وهى اليوم أضعف نظرية فى ذلك وأوهاها ، وقد جدت بعدها نظريات وستجدد غيرها . والعلم الحق عند

خالق الكون وواهب العلم

ثم تدرج الكاتب من ذلك بعد كلام طويل ممل إلى نشوء الانسان فى ثلثمائة الف سنة . وعبر بثلاثمائة سنة غلطا فى موضعين (ص ٢٩٠ س ٧ و ٩) وقد نقلنا كلامه بنصه فيما مضى (ص ١٤) ثم تدرج من ذلك بسفاهة ووقاحة وبذاءة على زعماء الدين فقال (ص ٢٩٣)

« أما هؤلاء الذين قلدوا الزعامة الدينية واختيروا لقيادة الفكر الاسلامى فى أحوال سيئة قاسية ولأسباب ينكرها الدين والعلم قد عصفت بهم نوبة من نوبات الفساد الذهنى وموجة من موجات العماية الأصيلة واجتاحهم إعصار من أعاصير الجهل التليد البليد فقاموا وهم يترنحون من الغباوة ويتمايلون على أنغام الشيطان ليوقعوا على أكذوبة علمية من أعظم وأشهر الأكاذيب العلميـة فى التاريخ فقـد زعم هؤلاء - بين هتاف الغباء المتواصل - فى كل كتاب كتبوه وقول قالوه أن سعادة الانسان وطريق تقدمه وراءه لا أمامه ،وأن عليه أن يتلفت خلفه أبداً وألا يمد بصره بين يديه ابداً وأن يرجع القهقرى وينكص وراء ما استطاع إلى ذلك سبيلا ليظفر بالسعادة وبالعلم وبالعقل وبالاخلاق وبالعدالة والنظام الاجتماعى المبرأ من العيوب والنقائص وزعموا أن كل خير هو فى أعمال الماضين وكل شر هو فى أعمال المتأخرين وأن كل خير فى اتباع من سلف وكل شر فى اتباع من خلف وان كل ما يمكن تصوره من الخير فقد مضى، وكل ما يمكن تصوره من الشر فقد بقى . . .

إذ قد ادعوا أن الانسان فى كل نواحيه العقلية والعلمية والاخلاقية والخلقية والجسمية قد أخذ حظه من الكمال فى الزمان الأول ثم عاد يتناقص وراح ينحدر مسرعاً فى سلم الرذيلة والجهل والانحطاط والضعف فى كل شىء وأنه لا يمكن أن يتوقف عن انحداره حتى يقضى عليه القضاء الأبدى الأخير الخ .

وحسبك من شتم هذا الوقح لمن احترم السلف وعظمهم ، واعتقد

فيهم الخير والفضيلة بذاءه وما هذى به من تحقير خير القرون وأزهر عصور الاسلام وحقده الذى لم يقدر على إخفائه على الاسلام وأهله وعلمائه وحماته . أما مسألة تقدم الأنسانية أو تأخرها ، وهل هى فى ارتقاء أو انحدار ، فسنأخذه عن أحدث آراء العلم عن لسان استاذ فى جامعة من جامعات العلم بأوربا التى يعبدها الكاتب ويؤمن أنهم هم الناس فضلا عن نصوص الدين كما ترى ، فماذا نشترى : آلدر أم البعر ؟

جاء فى مجلة الاثنين عدد ٦٧٦ (٢٦ مايو سنه ١٩٤٧) تحت عنوان (يوم القيامة قريب) « يقطع العالم الألماني شيلر الأستاذ بجامعة « بون » أن الانسان سيختفى قريباً عن ظهر الكون ،وأن يوم القيامة أقرب مما يظن الكثيرون ، وهو يضع لحكمه هذا «حيثيات» نوردها فيما يلى :

١ — لم يطرأ أى تحسين على النوع البشرى منذ مدة طويلة من السنين ، وهذا ثابت بالنتائج التشريحية للجسم والمخ

٢ — فان عقل الانسان فى القرن العشرين لا يختلف وعقل الانسان منذ فجر التاريخ . وليس أدل على ذلك من أن قدماء المصريين كانوا عباقرة فى شئون الهندسة والمعمار والكيمياء وفنون الحرب ، والفينيقيين كانوا نوابغ الجغرافيا والملاحة والتجارة . وقدماء الاغريق كانوا أرباب الأدب والشعر والنحت والموسيقى

٣ — وإذا كان الانسان قد توصل إلى عدد من الاكتشافات والاختراعات العظيمة خلال القرنين الأخيرين ، فليس يعنى ذلك أن عقله قد ارتقى أو تطور ، بل مرجع ذلك إلى المصادفة فى غالب الأحيان ، وإلى

تراكم المعلومات التى توارثها الانسان فى العصر الحديث عن آبائه وأجداده خلال مئات السنين الماضيه

٤ — بدأت الجماعات تهوى وتنحل خلقيا ، والخلق هو رباط المجتمع السليم ، وليس أدل على ذلك من انتشار دور الرقص والملاهى المبتذلة ، وتفشى الآراء المتطرفة المادية . وفى هذا دليل على ثورة الجنس البشرى على الأوضاع التى فرضتها الأديان (تأمل)

٥ — ويقرر شيلر أن حدوث حربين عالميتين فى مدى عشرين عاماً دليل على عدم رضاء الجنس البشرى عن النواميس الخلقية التى تقيد بها فى عصر نهضة الضمير الانسانى ، ودليل على انطلاق غرائزه الحيوانية التى كانت على أشدها منذ آلاف السنين . ومعنى ذلك أن البشر قد وصلوا إلى مرحلة الشيخوخة التى تشابه مرحلة طفولتهم الأولى مع فارق واحد أن الطفل مرجوّ التقدم ، والشيخ ينحل ويفنى

ويقول « شيلر » إن فى ذلك كله علامات الساعة ، وأن المتدينين قد يكونون أسعد الناس بهذه النهاية العاجلة »

فليتدبر كاتب الأغلال كلام العالم الألمانى لعله ينظف جروحه الصديدية من جراثيم الأفكار الغوستافية وميكروبات الدهرية البائدة . وليفهم كلام هذا الأستاذ الجامعى الأوربى حتى يناقش حيثيات حكمه بالحكمة والعقل والأدب لا بالسفاهة والسباب التى كالها لسلفنا والمؤمنين بفضائلهم وبما جاء فى ديننا وبما يشهد له الواقع من انحطاط الناس خلقيا وأدبياً بل وجسمياً وتدهورهم فى ذلك كله عن سلفهم كما يشهد بذلك الواقع

المشاهد فى المراسح والمواخير وشواطىء البحار (١) وسنشير إلى شيء مما جاء فى القرآن وصحيح الأحاديث بعد مانفرغ من نقاش بعض آراء الكاتب فى هذا الباب

قال الكاتب أول ص ٢٩٤

« وقد حاولوا ـ والبلاهة تحدو لهم ـ أن يعزوا هذه الدعاوى بروايات وأخبار نسبوها إلى الرسول عليه السلام وإلى أصحابه وإلى الأئمة المقلدين وجدّوا فى نشر هذه الأخبار والروايات والآراء وفى ترويجها حتى أمكن لهم أن يصيروا من هذه الخرافات ثقافة عامة يلتقي عليها وينضوى إليها أربعمائة مليون من الأجناس المختلفة . . وقد استسلم لهذه الثقافة أو لهذه الخرافة كل الطوائف وحتى أصبح اعتقادها والتصديق بصدقها مما يتسامى على الخلاف والجدل وحتى قام عليها من الإجماع بين الخواص والعوام مالم يقم على قضية أخرى .

ولو أن قائلا قال انه لم يدر على خاطر انسان الشك فيها وفى صحتها كل هذه القرون لما كان قائلا باطلا ولو سئلنا عن أكبر غلطة نهض عليها الاجماع الحقيقى أكبر مدة من الزمن لذكرنا هذه القضية فى أول مانذكر

---

(١) وإن ارتقت صناعاتهم المادية فلهدم مجتمعهم الخلقى والأدبى والدينى ولا سعادة لأمة إلا بقيام دينهم وما ينشأ عنه من خلق وأدب . وقال نقولا حداد فى آخر مقال ميلاد عصر الذرة ص ٢٥٦ مقتطف ابريل سنة ١٩٤٦

الأرجح أن هـذا الانسان لن يتوب الى الله وأن مدنيتنا الحالية شاخت وهرمت وهى تحمل مابين جوانحها عوامل فنائها هى ابتدعت القنبلة الذرية والقنبلة الذريه ستفنيها وهكذا سينقرض الانسان عن وجه الأرض كما انقرض قبله الدينوسور وأصناف الانسان السبعة التى تقدمت ـ إلى أن قال : هل يمكن أن ينقرض الانسان عن وجه الأرض كما انقرضت أحياء قبله ولكن أين العقـل ! العقل بلا أخلاق لايقى الانسان من الفناء . اهـ

فانظر إلى تكذيب خيار الأمة وخير قرونها ، وجلة أئمتها وعلمائها ، ورميهم بالبهتان . ثم رمى إجماع الامة الحقيقى بالخرافة والبطلان ؛ ثم رمى الأمةالتى شهد اللهلها بأنها خير أمة أخرجت للناس — خواصهاوعوامها — بالجهل والكذب والزور والبهتان . ونترك اليكأيها المؤمن الحكم والتعليق

قال الكاتب ص٢٩٥

« كان أقوى ما عززوا به هذه الأغلوطة انهم قلدوها مصلح البشرية عليه السلام وصحابته وانهم ذهبوا يجمعون الروايات من هنا وهناك ويزعمونها من كلامه إلىأن استقرت فى الأذهان هذاالاستقرارالذى صار من العسير التشكيك فيه وزحزحته .

من هذه الروايات الروايه التى أوردناها فى مطلع البحث وهى (لا يأتى زمان الا والذى بعده شر منه)

وقد ردها الكاتب بأمور مضحكة ستسمعها لتضحك معى من فهم الكاتب وعجمة قلبه وعقله . وهذه الرواية فى صحيح البخارى من رواية سفيان الثورى عن الزبير بن عدى قال : أتينا انس بن مالك فشكونا اليه مانلقى من الحجاج فقال اصبروا .. فمن ذا الذى يريد الكاتبأن يكذبه من هؤلاء الرواة : أهو سفيان الثورى أو شيخه أو أنس بن مالك ؟

والكاتب يردها كما فى ص ٢٩٥ بأمور قال:

(١) انها سب للدهر فتكون مخالفة للروايه الأخرى الصحيحة ولا تسبوا الدهر فان الله هو الدهر)

فأقول له : من عجمة عقلكوهواك أتيت ، فبيان الحقيقةليس بسب ، فمن قال عنك إنك صعيدى كانأبوك أو جدك ممن نكبت بهم نجد فليس

ساباً ، ومن قال لعنة الله على الصعيدى الملتصق بالقصيم ، لعنة الله على من يلتصق بقوم وهم ينكرونه ولا يعترفون به ، فهذا هو السب ، فالسب المنهى عنه للدهر هو كقولهم ياخيبة الدهر ويانحس هذه الأيام ، ويا شؤم تلك الليالى .الخ.

وأما قولك : هذه السنة جدب ، وهذه السنون شداد قحط ، وغير ذلك فليس من السب فى شىء كما يعرفه كل عربى مستقيم السليقة والفطرة والعقل والفهم . وشتان بين هذا وذاك

ثم من أين لك صحة الحديث الآخر « لا تسبوا الدهر » والذين رووه هم مثل من روى حديث «لا يأتي زمان» الخ . الكل من مشكاة واحدة ؛ وعن رواة متشابهين وأئمة عدول . فلماذا رددت هذا وقبلت ذاك : آلهوى أم العمى ؟ أم نظرية النشوء والارتقاء ؟ أم تسفيه إجماع الامة المعصومة ؟ أم اتباع غير سبيل المؤمنين ؟

وبيان حقيقة الزمان ليس سباً له كما قدمنا ، وهى بيان لأهله بأسلوب عربى معروف جاء مثله فى أبلغ الكلام وأفصحه (واسأل القرية) (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها) (ضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة) فمقصد الحديث أنه لا يأتى أهل زمان إلا والذين بعدهم شر منهم فى الخلق والدين والحشمة والآداب . وهذا هو الواقع حذوك النعل بالنعل

(٢) رد الحديث لكونه يدل على أن كل أهل زمان يكونون شراً من الذين قبلهم . ثم قال:

«إن هذه دعوى يكذبها الحس والعقل والتاريخ ، والاديان كلها لا تخرج عن

أن تكون بجملتها تكذيبا لهذه الدعوى ، لأنها جاءت لنقل الناس من حالة عامة إلى أخرى مغايرة ـ وقد نقلتهم ـ وكان الناس الذين قبلوا الدين هم بلا ريب خيراً من الذين قبلهم ممن كانوا على خلاف الدين فكان الأنبياء والمؤمنون بهم خيراً جداً من الذين قبلهم » الخ . ما قرر . . . .

وأقول له : من عجمة العقل أو من الهوى أُتيت . فالحديث يقول « لا يأتي زمان إلا والذى بعده شر منه » فيحكم على الزمن المستقبل بعد التكلم به أى بعد زمانه ﷺ ، كما يدل على ذلك الفعل المضارع المنفى بلا ، كما يعرف ذلك من عرف العربية ذوقا أو قواعد أو جمع بينهما ، ولم يقل الحديث « كل زمان » حتى يرده بهذه اللوازم التى لا ترد على لفظ الحديث ، والعامى الذى لم تفسد فطرته يذوق الفرق ويميزه بين « لا يأتى زمان » انه للحكم على الزمن المستقبل ، وبين « كل زمان » انه تعميم للحكم على كل زمن مضى ويأتي ، وشتان بين الحكمين عند من عقل وأنصف ؛ ولم ينظر إلى ارتقاء الصنائع والمخترعات ، ويعمى عن تأخر الخلق والدين

(٣) رده الكاتب بسفاهة تدل على قلة الفهم والانصاف ، وعلى عدم معرفة التاريخ فقال ص ٢٩٦

« وفى الرواية قصة هى كوثيقة الجريمة التى تعلق فى عنق المتهم قالوا أتى الناس انس بن مالك وشكوا اليه ما يلقون من الحجاج بن يوسف فقال انس اصبروا فانه (لا يأتى عليكم زمان الا والذى بعده شر منه حتى تلقوا ربكم) سمعته من نبيكم . . . وإذن فالرواية سيقت فى مقام الامر بالصبر على مظالم الحجاج بحجة أنه لا أمل فيما يطلبون من العدل ومن الحكم الصالح ولا أمل فى أن يوجد أحسن من الحجاج ومن خليفته المرخى له فى عنانه ليخوض فى عدوانه الخ . . ! .

إلى آخر ماأطال الكاتب فى ترديده لرد الرواية والتهكم بها وبرواتها، ومن آمنوا بها

وأقول : إن ما جعله من القصه كوثيقة الاجرام فى عنق المتهم هى أول دليل على صدق الحديث وصحة القصة التى روى لأجلها

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مراً به العذب الفراتا

ذلك أن أنس بن مالك رحمه الله وقد استفاد من صحبة النبي وخدمته ، وما سمع من أحاديث الحض على الجماعة والنهى عن الفرقة ،والخروج على أئمة الجماعه ولو جاروا ، وما استفاد من عبر التاريخ ، والواقع من النتائج السيئة التى حصلت للخارجين على الجماعة ، وما وقع بهم مما يبكى له التاريخ ، ومن قصة خروج الحسين بن على سبط النبى وابن الزهراء وسيد شباب أهل الجنة وابن الخليفة الراشد على بن أبي طالب : فى خروجه على ابن زياد وما حصل للحسين مما نبكيه ونحزن له ، ونتمنى أن يكون الحسين قد سمع مشورة عقلاء آله وأحبابه عليه كابن عباس وغيره من عدم الخروج على يزيد وواليه ، وأن يأخذ بأقوال جده فى عدم الخروج ، وبسنة أبيه فى رضوخه لأحكام عثمان مع نقده لسياسته الأموية وعصبيتها ، وبسنة أخيه الحسن بن على الذى تنازل عن بيعته فى الخلافة وحقه فى الولاية لخصمه وخصم أبيه معاويه حقناً للدماء حتى مدحه جده على ذلك مقدماً بقوله فيه مشيراً اليه « إن ابنى هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » فتحققت نبوة النبى ﷺ فيه فى هذا التنازل الجامع لكلمة المسلمين . فلم يخف على أنس هذا كله ، ولا عواقب ما كان من خروج

عائشة وطلحة والزبير على علىّ رضى الله عنهم أجمعين فى وقعة الجمل ، ولا خروج الخوارج عليه فى النهروان

فهل يريد الكاتب الجاهل بالدين والتاريخ وعبره أن يشير عليهم أنس بالخروج حتى يكون لهم فى التاريخ ما كان لفتنة عبدالرحمن بن الأشعث ومن معه الذين بنى برءوسهم بناء ، وسميت الوقعة بوقعة الجماجم تخليداً لعبرتها التاريخية .

إن كاتبنا حينما شكا من ظلم ملوك العصر بقوله ص ٢٩٧

« من مظاهر ذلك هذا الذى نشهده فى كل الطوائف فى البلدان الاسلامية أو الشرقية من الخنوع للخلفاء أولئك الجلادين الذين يحاولون اليوم أن يقوموا بتمثيل أدوار أسلافهم من الطغاة وقد رأينا البائسين المحرومين يجدون لذة كبيرة وسعادة نفسية ووجدناهم تشرق من وجوههم الكالحة المغبرة إذا أبصروا هؤلاء الذين أخذوا منهم كل شىء ولم يعطوهم شيئاً يمرون بهم بل انهم يقفون صفوفاً صفوفاً ليتمتعوا برؤيتهم وليسعدوا بمشهدهم إذا ذهبوا أو جاؤوا بمواكبهم التى يجب أن تملأ النفوس حقداً وغضاضة من غير أن يتألموا من ذلك أو تطرف له أعينهم بل لعلهم يذهبون يدعون لهم من أعماق صدورهم يسألون الله أن يزيدهم مما أعطاهم وأن يرفع من مقامهم فوق رؤوسهم أكثر مما رفع ولا ريب أن هذه الروح التى برئت من الاحقاد النافعة ،ومن الغضب والغيظ لرؤية المظالم والظالمين أثر من آثار هذه الروايات الخ .

فأنت ترى الكاتب مع حقده لهذه المظاهر الملوكية والمواكب لهم لم يستطع أن يتكلم فى أهلها إلا بحسرة عجائز الخوارج وتنهدات عذارى الفوضويين — هذا وهو فى القرن العشرين الذى يعده أرقى بمراحل كثيرة من قرن سائلى أنس ، القرن السابع الميلادي ، فاذا كان وهو بزعمه قد ارتقى

عنهم بتطور ثلاثة عشر قرنا علماً وشجاعـة وزعامة وإصـلاحا وبدنا ، لم نسمع منه غير أنات المرضى وآهات المكظومين ، أفلا يعذر أنس فيما أشار عليهم من الحكمة ورعاية مصلحة الجماعة الاسلامية حينئذ ، وليس مراد أنس أن حكم الحجاج لايأتي ما هو خير منه ، ولـكن يريد أن الجماعه الاسلامية فى زمنه خير من الجماعة التى تأتى بعده ، فالخروج عليها وتمزيق شملها سفه وطيش ، وعواقبه وخيمة كما سطره التاريخ فى دفاتره ، ودلت عليه حكمة أحاديث الحث على الجماعة والتمسك بها ، والبعد عن الفرقة وشرورها .

سنعود فيما بعد — قبيل آخر الكتاب — إلى شىء من نفاق الكاتب وجبنه ومناقضاته ومدحه لأقوام يرجو منهم فتات خبزه ، ثم ذمهم تحت ستار من النفاق حفظا لعيش دنيء . (١)

أطال الكاتب الكلام وكرر فى تعليل هذه الفكرة ، فكرة تعظيم الأوائل واحترام القدامى من ص ٢٩٨ـ ٣١٨ وأخذ يعدد مالها من شرور فى نظره ، وتحسر وبخع نفسه حزنا للألوف الكثيرة من مؤلفات أهل تلك القرون ، وانها شىء ضار غير نافع ، إلى أن خرج بالنتيجة التى يريدها ويتمناها « ص ٣٠٨ » فيقول

« يجد المصلحون اليوم - يعنى نفسه - عناء وإرهاقاً فى محاولتهم هدم ماشاده الجهل الأول ويذهب كل ما يبذلونه أو أكثره فى هـذه المحاولة هباء . . . . والعائق الاكبر هو أن هؤلاء الذين يراد اصلاحهم يرون الكمال فى أولئك

(١) ومن ذلك طلبه ممن ذمهم بالظلم والغشم أن يشتروا له بيتا بمصر ببضعة آلاف من الجنيهات حتى رمى بسبب ذلك منهم بالجنون والحمق . ومن مد رجله لايمد يده

القدامى الذين يجدون هذه الأباطيل والخرافات فى كتبهم فمن المستحيل أن يجمعوا بين الكفر بأباطيلهم وبين اعتقاد الكمال المطلق فيهم ـ والسبيل التى لا سبيل سواها لاخراج هذه الجماعات المنكودة مماهى فيه أن تعلم الكفر بهؤلاء والشك فيهم وإساءة الظن بهم وبعلمهم وأن تعلم انهم كانوا تحت ظنهم بهم جداً وانهم أبعد عن الكمال من المعاصرين ومن المتأخرين وأن تعلم كيف تثق بنفسها وبعقلها وباستعدادها

إني لأنظر إلى هذا الميراث الثقيل الباهظ الملقى فى طريق المسلمين، وإلى هذه الأسفار التى تروع أعدادها ويعجز تعدادها . وما فيها مما لا يستقيم لأمة أمرها ووجودها معه فأفزع وتذهب الافكار بي كل وجه ثم تؤوب مجتمعة بي مجمعة على أنه لا خلاص إلا اذا استطعنا أن نكفر بهذا الميراث وعلى انه لا يمكن الكفر به الا اذا عرفنا كيف ننزل مورثينا اياه عن هذه العروش السماوية التى صنعناها لهم على حساب قوانا العقلية والدينية ثم أجلسناهم عليها ثم جثونا تحتهم نسبح بحمدهم ونقدسهم وننزههم عن كل مايخطر بالبال من اثم أو نقص أوضعف . فهل من سبيل الى هذا على انه لا سبيل سواه »

فاجمع بين هذا وبين رمى أنبياء بنى إسرائيل أنهم نكبة على البشر ؛ ورمى المتدينين وأنبيائهم بتأخير الحياة وإطفاء تألقها، وان الايمان بالله كان نكبة على البشر ، وانظر ماذا بقى فى جعبته من الحط على الدين وأهله وأنبيائه ، والايمان بالله واليوم الآخر

ونقول على سبيل التنزل : لاسبيل إلى هذا الكفر والمروق ،وهدم تاريخ الاسلام والكفر به وبرجاله وتراثه وتراثهم وبالدين كله بهذه السهولة التى يريدها الكاتب ويريدنا عليها لأجل أن نستبدل بذلك كله حضارة مادية عارية من كل فضل ، متهتكة ؛ يشكو عقلاؤها من شرورها ،

ويعترفون أن السعادة لم تمر بباب من أبوابهم كما نقله الأستاذ الامام فى آخر تفسير سورة «والعصر» عن ماكس نوردو فى كتابه المسمى (الأكاذيب العرفية لتمدننا الحديث) قال الأستاذ الامام رحمه الله تعالى

« إن ما يُرى فى بعض الأمم من ظاهر السعادة ليس إلا لمعان السراب حتى إذا جاءه وحقق أمره لم يجده شيئا »

وقال ماكس أيضا فى كتابه المذكور ما معناه: إن الناس كانوا ولم يزالوا يطلبون الحق، ولم يكونوا فى زمن أبعد عنه منهم فى هذا الزمان. ثم قال ما ترجمته « إنك لو طرقت أى باب تسأل: هل مرت السعادة بهذا البيت؟ لأجابك مجيب: إذا شئت فاطرق بابا آخر، فان السعادة لم تمر ببيتنا »

وهو يقول ذلك بعد أن ذكر ما عليه حال الأمم الأوربية جميعها، ونسبته من السعادة والشقاء، وبعد أن أجمل من وصف أحوالهم والمصائب التى تتوقع لهم، والآلام الشاغلة لقلوبهم أجمعين، ما يرحمهم لأجله المقصرون عنهم، ويزهد الراغبين فى مثل حالهم، ويصرفهم عن اقتفاء آثارهم، وبيّن سبب ذلك وأنه بُعدهم عن الحق؛ ونزوع أنفسهم إلى الباطل، وفقدهم الصبر فى طلب المال، وهرولتهم خلف داعى الشهوة لا يعصون له أمرا، ولا يخالفون له إشارة. ومنشأ ذلك خلو نفوسهم من الركون إلى الاله الواحد خالق الجميع ورازق الأحياء، ومقدر الأسباب لمكاسبهم على حسب ماوهبهم من القوى والقدر .اهـ وكما سمعته من كلام أستاذ جامعة بون الالمانية وكما يشهد به الواقع المحسوس

وها هو ذا غوستاف لوبون إمام الكاتب ومقلده ينصح للشرق

بيقائه على دينه وخلقه وأدبه ، وينعى على الغرب ويتوقع له شراً عاجلا

قال لوبون فى كتابه (حضارة العرب) ص٣٦

« إن مابين الشرق والغرب من الاختلاف عظيم ، وهو يبلغ فى عظمته مايتعذر معه اعتناق أحدهما لمبادىء الآخر وتفكيره

«وتعانى مجتمعاتنا تحولا بعيد المدى فى الوقت الحاضر ، وقد قلبت مبتكرات العلوم والصناعة كياننا المادى والأدبى رأساً على عقب ؛ ويقاسى الغرب خلافا شديداً فى مجتمعه ، ويكابد فى سبيل معالجة الشرور التى نشأت عن ذلك الخلاف أزمة عامة تسوقه باطراد إلى تبديل نظمه ، ويئن من عدم الانسجام بين المشاعر والمعتقدات الجديدة ، ويألم من تصدع مبادىء الأجيال السابقة . وتنال يد التغيير فى الغرب الأسرة وحقوق التملك والديانة والأخلاق والمعتقدات ، وتصبح هذه الامور موضوع جدل ، ولا يقدر أن يتكهن بما يتمخض عنه العلم الحديث.

(قلت) قد أغنى الواقع عن التكهن فلقد ولّد العلم الحديث بما أعطى الناس من صنائع وغرور بها ، وبما أفقر النفوس من الخلق والدين — شروراً طار لظاها فى حربين عالميتين فى أقل من ربع قرن ، حصدتا من النفوس والرجال والنساء والاطفال ما الله به عليم ، وخربت الديار وأعرت الابدان ، وأجاعت البطون ما تقشعر له الابدان ؛ والحرب الثالثة على الابواب ربما تأتي على البقية الباقية من الحضارة والعمران

قال لوبون : وقد كلفت الجماهير فى الوقت الحاضر بمبادىء سلبية ، وقد بلغ كلفها بها درجة الحماسة . قال : وحال الشرق غير ذلك ، فالشرق

فى طمأنينة وسكون ، ولا عهد له بما عندنا من الانقسامات والحياة الصاخبة ، وقد بلغت شعوبه التى هى أكثرية البشر ـ درجة ظاهرة من التسليم الهادىء الذى هو عنوان السعادة على الاقل ، وتتمتع شعوب الشرق بما خسرناه من التماسك ، ومعتقدات الشعوب الشرقية قوية ، وتحافظ أسرها على استقرارها القديم ، وبقيت مقومات المجتمعات القديمة كالديانة والاسرة والنظم والتقاليد والعادات ـ وهى التى أصابها فى الغرب من الهدم ماأصابها ـ مؤثرة فى الشرق مسيطرة عليه ، وليس على الشرقيين أن يفكروا فى تبديلها ...

فهذا لوبون الذى يقلده كاتب الاغلال يفرق بين الشرق والغرب ، وينعى الغرب ويندبه ويتوقع له ماحققته الايام من الخراب والدمار ، ويمدح الشرق وينصح له أن لا يغير أوضاعه وخلقه ودينه . فماذا يقول كاتب الاغلال فى كلام إمامه هذا ؟ هل يرميه بالجهل والغباوة أو بالنفاق وسوء النية ، أو يرجع عما آذى به العقلاء والخلق والدين والآداب ، فيكفر عن هذا التضليل بالرجوع عنه ونصح الناس بما نصحهم العقلاء قديماً وحديثا أنه لا صلاح لهم إلا بدينهم وخلقهم وآدابهم . وإن كنت أستبعد أن يتركه شيطان الغرور والاعجاب بالنفس أن يراجع الحق ، فذلك ما لا يرجى منه ولكن القلوب بيد الله تعالى يقلبها كيف يشاء

ونقول للذين يريدون القوة ويتوهمونها من كتاب الاغلال : إن هذا الكتاب سموم وجراثيم للهلاك ، وليس من القوة فى شىء ، بل هو هدم لكل مابقى فينا من قوة ومن طريق إلى الفلاح والفوز ، وليس بعد

تقويض الدين وآدابه وعقائده ، والكفر باختيار الله والتوكل وإنكار قدره ومشيئته ، والكفر بالآخرة والعمل لها وتحميق أهلها والمؤمنين بها من غاية فى الافساد والشر

وبالجملة فليس ثم إلا دين الله وأنبيائه ورسله والصالحين من خلقه ، ودهرية فرعونية لوبونيـة تكفر بالله رب العالمين وبملائكته ورسله وآياتهم ونصر الله إياهم وخذل أعدائهم . وأسباب متصلة الحلقات محكمة الارتباط ينفى بها غوستاف ومقلده وقبله «أوغست كنت» وقبلهم فرعون ينفون بها رب العالمين الفاعل المختار ، أو رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين ، خالق الأسباب والقادر على وقفها وإبطالها ، والفعل بدونها ، وتأييد رسله متى شاء بوقفها أو إبطالها .الخ ماتقوم الديانات ويؤمن الرسل والمؤمنون بهم .

وهاك كلمة هندية فى قيمة الحضارة الأوربية مدعمة بشهادة أحد أبناء تلك الحضارة . قال السيد أبو الحسن على الحسنى الندوى فى كتابه « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » الذى شرح فيه فساد المجتمع العربي والفارسى والروم قبل البعثة المحمدية ، ثم شرح الاصلاح الاسلامى العام للانسانية أجمع ، ثم تكلم على أصل المدنية الاوربية الحالية وبذورها الاغريقية والرومانية وخلوها من الروح والمعنى والخلق ، معززاً أقواله بشهادات حكماء الغرب — إلى أن قال :

قال الاستاذ جود فى كتابه المرشد إلى الشر العصرى ص ٢٦١ :

يقول دسرائيلى : إن المجتمع فى عصره يعتقد أن الحضارة هى الراحة

أما نحن فنعتقد أن الحضارة عبارة عن السرعة ، فالسرعة هى إله الشباب العصرى ، وأنه يضحى على نُصُبه بالهدوء والراحة والسلام ، والعطف على الآخرين بالقسوة .

ثم قال جود : إن الأوربيين قد فقدوا تعادل القوى والأخلاق ، والتوازن بين العلم بظاهر من الحياة الدنيا وبين الدين منذ قرون ، فلم تزل القوة فى أوربا بعد النهضة الجديدة ولم يزل العلم ينموان على حساب الدين والأخلاق ، ولم يزل ذانك فى ارتفاع وارتقاء ، وهذان فى انخفاض وانحطاط حتى بعدت النسبة بينهما ، ونشأ جيل كأنه ميزان لصقت إحدى كفتيه بالارض ثقلا « كفة القوة والعلم » وخفت الثانية « كفة الأخلاق والدين » حتى ارتفعت جدا ، فبينما يتراءى هذا الجيل للناظر فى خوارقه الصناعية ، وعجائبه الكونية وتسخيره للمادة والقوى الطبيعية لمصالحه وأغراضه كأنه فوق البشر ، فاذا هو لا يتميز فى أخلاقه وأعماله فى شرهه وطمعه ، وفى طيشه ونزقه وفى فسوقه وظلمه ، عن البهائم والوحوش . وبينما هو قد ملك جميع وسائل الحياة إذا هو لا يدرى كيف يعيش ؛ وبينما هو قد بلغ الغايات ووراء الغايات فى كماليات وفضول الحياة ، إذا هو لم يعرف المبادىء الأولية والبديهيات للحياة الانسانية والمدنية والاخلاق ، فتراه يصعد إلى السماء ويريد أن يناطح الجوزاء ، وهو لم يتقن شؤون الارض ، ولم يصلح ما تحت قدميه . وقد خوّلته العلوم الطبيعية قوة قاهرة ولكن لا يحسن استعمالها كطفل صغير أو سفيه مجنون يُملّك أزمة الامور ، ويؤتي مفاتيح الخزائن ، فهو لا يزيد على أن يعبث بالجواهر الغالية والنفائس المخزونة ،

ويعيث فى دماء الناس ونفوسهم

ثم قال جود الانكليزى : إن العلوم الطبيعية قد منحتنا القوة الجديرة بالآلهة ولـكننا نستعملها بعقل الاطفال والوحوش . ويقول فى موضع آخر : إن هذا التفاوت بين فتوحاتنا الصناعية المدهشة ، وطفولتنا الخلقية المخجلة نواجهها على كل منعطف ومتمرج ، ونستطيع أن نتحدث من وراء البحار ؛ ونركب فوق الارض والبحر وتحتهما ، وننصب آلات الاذاعة فى منازلنا ، ونستمع فى سيلان إلى دقات ساعة لندن الكبيرة ، الاطفال يتحدثون على الاسلاك . البرقيات المصورة ، آلات الكتابة الصامتة . تملأ الاسنان من غير وجع . الثمار تنضج بالكهرباء ، الشوارع تفرش بالمطاط . أشعة رونتجن نوافذ نطل منها إلى داخل أبداننا . الصور المتحركة تتكلم وتغنى . نكشف عن المجرمين والمغتالين باللاسلكى . الغواصات تذهب إلى القطب الشمالى والطيارات نطير إلى القطب الجنوبى ومع ذلك كله لا نقدر فى وسط مدننا الكبرى أن نخصص رحبة ليلعب فيها أطفال الفقراء فى راحة وسلام ، ونتيجة ذلك أن نقتل منهم ألفين ، ونجرح منهم تسعين ألفاً سنويا . قال لى فيلسوف هندى فى انتقاده اللاذع لإطرائي بعجائب حضارتنا ـ وكان بعض سائقى السيارات قد نجح فى قطع ٣٠٠ أو ٤٠٠ ميل فى ساعة ، أو أن طائرة طارت من موسكو إلى نيويورك فى ٢٠ أو ٥٠ ساعة (لا أحفظ)

قال الفيلسوف : نعم إنكم تقدرون أن تطيروا فى الهواء كالطيور ، وتسبحون فى الماء كالسمك ، ولكنكم إلى الآن لا تعرفون كيف تمشون

على الأرض !! ثم قال جود (ص٢٤٧)

قد استطعنا أن نسافر بسرعة زائدة من مكان إلى مكان ، ولكن الأمكنة التي نسافر اليها قلما تصلح للسفر . وقد زويت الارض للرحالين وتدانت الأمم ؛ ووطىء بعضها عتبة بعض ولكن كان من نتيجة ذلك أن توترت العلاقات بينها وأصبحت أسوأ مما كانت ، أما المرافق التي استطعنا أن نتعارف بها إلى جيراننا عادت فحشرت العالم فى حرب . اخترعنا آلة الاذاعة وتحدثنا بها إلى الشعوب والامم الشقيقة ، فكان عاقبتها أن كل شعب استنفد موارد الهواء لإيذاء الشعب المجاور ومعاكسته ، فيقنعه بفضل نظامه السياسى على نظامه

وقال : انظر إلى الطائرة تحلق فى السماء فيخيل لك أن صانعيها لعلمهم ولباقتهم وصناعتهم هم فوق البشر ، وأن من طاروا عليها أولا كانوا فى علو همتهم وجرأتهم وعزمهم أبطالا مغاوير ، ولكن انظر الآن إلى المقاصد التى استعملت فيها الطائرة وتستعمل فى المستقبل ، أليس هى قذف القنابل وتمزيق جثث الانسان وخنق الأحياء وإحراق الأجساد ، وإلقاء الغازات السامة ،وتمزيق أبدان الضعفاء من النساء والولدان إربا إربا . فهل هذه إلا مقاصد الحمقى أو الشياطين؟

وقال ص٢٦٢ : ماذا عسى أن يقول المؤرخ كيف كنا نستعمل المعادن والذهب ؟ يذكر أننا توصلنا إلى معرفة الذهب وأماكنه باللاسلكى ، ويعرض صوراً تمثل اللباقة والمهارة التى كان أصحاب المصارف يزنون بها الذهب أو يعدونه . سيذكر المعجزة البونية التى كنا ننقل بها الذهب من

عاصمة إلى عاصمة ، ونقاوم بذلك قانون الجاذبية والثقل . سيستحل أن يقول إن أشباه الوحوش الماهرين فى فتوحاتهم الصناعية كانوا عاجزين عن التعاون الدولى الذى كان يقتضيه ضبط الذهب وتقسيمه تقسيما صحيحاً، كانوا يُعنون بدفن المعادن بأقصى سرعة ممكنـة ، كانوا يخرجون الذهب والماس والمعادن بكل مهارة من بطون أرض أفريقيا ،ليدفنوه فى ظلمات مصارف لندن وباريس ونيويورك . اه ما أردت نقله مما نقله السيد الندوى من كلام الأستاذ جود الانـكليزى . والأستاذ جود هو رئيس قسم علوم النفس والفلسفة باحدى كليات جامعة لندن

وقال الأستاذ السيد أبو عبد الأعلى المودودى الهندى فى فصل من فصول كتاب «تنقيحات» تحت عنوان « الأمم المريضة »:

ظهرت الحضارة الغربية فى أمة لم يكن عندها معين صاف ،ولا نبع عذب للحكمة الالهية . لقد كان فيها قادة الدين ولـكن لم يكونوا أصحاب حكمة ولا علم ولا شريعة إلهية ، لم يكن عندهم إلا خيال دينى لو حاول أن يسير بالنوع الانساني على صراط مستقيم فى طرق الفـكر والعمـل لما استطاع ، ولم يكن له إلا أن يكون حجر عثرة وسداً فى سبيـل ارتقاء العلم والحـكمة ، وهكذا كان ، فـكان عاقبـة ذلك ان الذين كانوا يريدون الرقى نبذوا الدين بالعراء ، واختاروا طريقا لم يكن دليلهم فيها إلا المشاهدة والاختبار والقياس والاستقراء ، ووثقوا بهذه الدلائل التى هى نفسها فى حاجة إلى الهداية والنور ،وجاهدوا واجتهدوا بمساعدتها فى طرق الفـكر والنظر والتحقيق والاكتشاف والبناء والتنظيم ، ولـكن ضلت خطوتهم

الأولى فى كل مجال وكل جهة ، وانصرفت فتوحهم فى ميادين العلم والتحقيق ؛ ومحاولتهم فى سبيل الفكر والنظر إلى غاية لم تكن صحيحة ، إنهم فضلوا أن يسيروا من نقط الالحاد والمادية ؛ ونظروا فى الكون على أنه ليس له إله . نظروا فى الآفاق والأنفس على أنه لا حقيقة فيها إلا المشاهد والمحسوس ، وليس وراء هذا الغلاف الظاهرى شىء ، إنهم أدركوا من نواميس الفطرة بالاختبار والقياس ، ولكنهم لم يتوصلوا إلى فاطرها ، وجدوا المخلوقات مسخرة فاستخدموها لأغراضهم وجهلوا أنهم ليسوا سادتها ومدبريها ، وإنما هم خلفاء سيدها الحق ؛ فلم يروا أنفسهم مسئولين عنها ولا عليهم تبعات وحساب ؛ فزاغ أساس مدنيتهم وتهذيبهم وانحرفوا عن عبادة الله إلى عبادة أنفسهم ، واتخذوا إلههم هواهم ، وفتنتهم عبادة إله الهوى ؛ فساروا بهذه العبادة فى كل ميدان من ميادين الفكر والعمل على طرق شتى وسبل متفرقة خلابة رائعة ، ولكن مصيرها إلى الهلاك . هذا هو الذى مسخ العلوم الطبيعية فصارت آلة لهلاك الانسان. ضاعت الاخلاق فى قالب الشهوات والرياء والخلاعة والاباحة ، وتسلط على العيش شيطان الاثرة والشح والفتك ببنى الانسان ، ودس فى عروق المجتمع وشرايينه سموم عبادة النفس والانانية ، والاخلاد إلى الرفاهية والتنعم ؛ ولطخ السياسة بنعرة الجنسية والوطنية ، وفروق الالوان والاجناس وعبادة القوة وتأليهها والتغنى بها ، وجعلها هدف الانسانية الاكبر . وبالجملة إن البذرة الخبيثة التى أُلقيت فى تربة أوربا ونهضتها الاخيرة نبتت منها دوحة خبيثة أثمرت ثمرات يانعة سامة ، وأزهرت

أزهاراً بهيجة شائكة فروع خضراء تنفث غازا ساماً لا يُرى لكنه يسمم دم النوع البشرى . وغارسو هذه الشجرة الخبيثة من الغرب قد مقتوها، وأمسوا يتذمرون منها ، فقد خلفت فى كل ناحية من النواحى مشاكل وعُقداً عجزوا عن حلها .وما حلوا عقدة إلا ظهر غيرها ، ولا قطعوا فرعا إلا نبتت فروع شائكة أخبث منه ، فهم فى معالجة أدوائهم وإصلاح شؤونهم كمعالج الخمار بالخمر ، ومداوى الادمان بالمداومة عليه وكناقش الشوكة بالشوكة التى تنكسر مع أختها ، عالجوا الرأسمالية الظالمة بالاشتراكية المتطرفة ، حاولوا استئصال الديمقراطيه الزائفة فنبتت الدكتاتورية المستبدة الخانقة . أرادوا أن يحلوا مشاكل الاجتماع فنبتت حركة تذكير النساء وحركة منع الولادة . أرادوا تشريع قوانين لاستئصال المفاسد الخلقية فهاجت حركة العصيان والجنايات . فلا ينتهى شر إلا بولادة شر ، ولا فساد إلا إلى فساد أكبر منه . ولا تزال هذه الشجرة تثمر لهم شروراً ومصائب حتى صارت الحياة الاوربية جسداً مقروحا متسمما يشكو كل عضو منه أوجاعا وأوصابا ، وأعيا الداء أطباءه ، واتسع الخرق على الراقع

الامم الغربيه تتململ ألماً بقلوب مضطربة وأرواح متعطشة إلى ماء الحياة ، ولكنها لا تعلم أين معين الحياة ، وأكثرهم لا يزال يتوهم أن مصدر مصائبهم من فروع هذه الشجرة فتراهم ساعين فى قطع الفروع ، ونزع الأغصان ، مضيعين أوقاتهم فى ذلك ، ولم يعلموا أن أصل هذا الشر كله من أصل تلك الشجرة ، فمن الحماقة أن يترقب الانسان فرعا صالحا من شجرة خبيثة . وقليل من عقلائهم من أدركوا أن أصل حضارتهم فاسد

وشجرتها خبيثة يجب أن تجتث من فوق الارض ؛ ولكنهم لطول عهدهم قرونا عديدة فى ظل هذه الشجرة حتى نبت لحمهم ونشز عظمهم من ثمارها لم يعرفوا أصلا آخر غير هذا الأصل يستطيع أن يخرج فروعا وأغصاناً وورقا وثمرات طيبة صالحة سليمة نافعة ؛ فهم ومن قبلهم فى النتيجة والعاقبة سواء ؛ فهم يتطلبون علاجا يداوى سقمهم ؛ ويرفع عنهم كربهم ؛ ولكنهم لايعلمون ولا يعملون أين هو ؛ ومَن علمه منهم ـ إن وُجد ـ لايطلبه ولا يرغب فيه .

انتهى ما أردت نقله من كتاب (ماذا خسر المسلمون) للعلامة السيد على أبوالحسن الندوى أستاذ التفسير بندوة العلماء بلكهنؤ بالهند مما لخصه من كتاب المستر جود الانكليزى رئيس قسم علم النفس والفلسفة باحدى كليات جامعة لندن من كتابه (المرشد إلى الشر العصرى) وما لخصه من مقالة « الأمم المريضة » من كتاب « تنقيحات » الذى كتبه على شكل مقالات الاستاذ أبو عبد الأعلى المودودى الدهلوى منشىء مجلة « ترجمان القرآن » الأردية بلاهور أوسع المجلات الهندية وأكثرها رواجا وحظوة عند الطبقة المثقفة وهو من كبار علماء السياسة والاقتصاد والفلسفة العصرية مع التضلع من الدين وعلومه ،وهو مؤسس (الجماعة الاسلامية) الواسعة الانتشار بالهند وأقوى جمعياتها الدينية . وللاستاذ المذكور كتاب « الجهاد فى الاسلام» وكتاب «الحجاب » و «تفهيمات» فى مباحث دينية فى الدفاع عن مسائل إسلامية . وكتاب«تنقيحات» فى المسائل الناشئة عن اصطدام الحضارة الاسلامية بالحضارة الغربية الاوربية ،

واصطراع الفكر الاسلامى والغربي . ورسالة (دينيات) فى التوحيد والعقائد لطلبة الكليات، نقلت إلى الانكليزية . وكتاب (نظام الاسلام السياسى) نقل إلى الانكليزية أيضا ، إلى غير ذلك

وقصدنا من هذه الكلمة أن يعرف كاتب الأغلال نفسه ، ومقدار ثقافته العصرية كماً وكيفا ، فلا يعجب بنفسه بما قرأ من أفكار دهرية مهلهلة ممزقة ، فيذهب بسفاهة وقلة حياء ليدعو إلى آراء بالية ، وجسد مسمم لا روح فيه ولا معنى . فهؤلاء حكماء الغرب والشرق ومنهم هؤلاء الأقطاب الثلاثة : جود الانكليزى والسيد عبد الأعلى المودودى والسيد أبو الحسن الندوى ، وغيرهم كثير قد عرفوا شرور المدنية الدهرية الغربية وحذروا منها ،وأشاروا بالتمسك بقديمنا الذى يعده كاتب الاغلال أغلالا غلت يداه إلى عنقه وملأ الله فمه ترابا ، وأطفأ شعلته التى يريد بها حرق مابقى لنا من تراث فاضل وتجفيف ما بقى فى الكوب من علالة أخلاقية ، ومن ثمالة دينية .

وإن أنس فلن أنسى ما حدثنى السيد أبو الحسن الندوى عن أخيه السيد عبدالعلى الندوى رئيس ندوة العلماء فى معرفته بثقافة العصر وتخرجه فى جامعة لكهنو من كلية الطب الحديث بها ، ثم جمعه بينه وبين الطب القديم الذى استفاده من حكيم الهند وزعيمها الكبير (أجمل خان) ثم تضلعه من علوم العصر بلغة أهله (الانكليزية) ثم قيامه بادارة ندوة العلماء وإمامة مسجد الحى وعلاجه لمرضاه جسديا وروحيا مع الزهد والورع ، والسير على طريقة الصالحين الأولين ، فلم يطش طيش كاتب الاغلال لنبذ كل

فضيلة بدعوى أنها غل . والكفر بالاسلام وعقائده وآدابه وروحانيته وعباداته وملائكته وقدره وثمرة الايمان بالله واليوم الآخر والتوكل عليه والثقة به الخ ما هذى به وما نفثه من سمومه وجراثيمه القاتلة السامة (فإنا لله وإنا اليه راجعون) (ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب)

***

نقلت مجلة مسامرات الجيب عدد ٩٤ (٢٧ ابريل سنة ١٩٤٧) تحت عنوان « هل للطبيب أن يقتل المريض ؟» قالت :

« وفى مدينة بنسلفانيا (أمريكا) عثر على جثث خمسة أطفال ووالدتهم وأبيهم ، وُجد الأطفال فى الغابة مغطين بملاءات وعلى مقربة منهم الاب والام ، وتبين بالبحث أن حالة الاسرة المالية قد ساءت ملى حد أصبحت معه لاتجد قوت يومها ، فاما اشتد اليأس بالأب ، وتقطع قلبه لمشاهدة زوجته وأطفاله يتضورون جوعا ، ويتلوون بالألم وهم يعتصرون بطونهم ، باع بعض ملابسه واشترى بثمنها مسدساً وبعض رصاصات ، وبعد أن أنام أطفاله فى الغابة وغطاهم بالملاءات ، أطلق عليهم الرصاص وأرداهم قتلى فى الحال ثم قتل زوجته ثم قتل نفسه »

يريد منا الكاتب أن نكفر بديننا وتاريخنا لهذه المدنية الوحشية البغيضة الخليعة الرقيعة فنصبح بهائم ووحوشا كاسرة ، ولا أريد أن أكثر من الشواهد والامثلة من الواقع وكلام العقلاء على فساد هذه المدنيه وضررها بالناس وإن تزخرفت وبرقت لهم بظاهرها الخداع

كسراب الصحارى ، فذلك يطول فيه الوصف

نعم اننا نؤمن أن الدنيا تترقى ، ورقيها محسوس ملموس كهذا الذى أعاد وأبدى فيه الكاتب لأنه لا يؤمن بغيره ؛ وهذا هو مبلغه من العلم وأمله من الحياة ؛ وغرضه من الوجود . اما الفضائل المعنوية والأخلاق وروح الدين فقد تأخر إلى الوراء مراحل ، والتاريخ والواقع والآيات والأحاديث وأقوال العقلاء كلها شاهدة بذلك

وقد قدمنا كلام الاستاذ الجامعى شيلر فى ذلك ونذكر الآن طرفاً قليلا من اشارات القرآن وتصريحات الأحاديث وإن كان لا يؤمن بها الكاتب لكنا نذكرها للمؤمنين بها لا له . فمن ذلك قوله (١) (أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية ابراهيم واسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً . فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، فسوف يلقون غيا) وقوله (فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدني ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه) وقوله (وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم ان الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون) وقوله (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون) ويأجوج ومأجوج هما اللذان قال الله فيهم (إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض) وقال تعالى (والسابقون الأولون أولئك المقربون فى جنات النعيم ثلة من الأولين

---

(١) سورة مريم والشاهد فيها قوله (فخلف من بعدهم خلف) الخ

وقليل من الآخرين)

والأحاديث كثيرة شهيرة فى دواوين السنه التى يؤمن بها المسلمون ، فمن ذلك حديث « لتتبعن سنن من قبلكم ذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه وراءهم » وحديث حذيفة الذى رواه البخارى ومسلم وأبوداود — واللفظ للبخارى — قال حذيفة « كان الناس يسألون عن الخير وكنت أسأل عن الشر مخافة أن يدركنى . . فقلت يا رسول الله إنا كنا فى جاهلية وشر حتى أتانا الله بهذا الخير ،فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال نعم .قلت فهل بعد هذا الشر من خير ؟ قال نعم وفيه دخن . قلت : وما دخنه ؟ قال قوم يهدون بغير هديى ، تعرف منهم وتنكر . قلت فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال نعم، دعاة على أبواب جهنم من أجابهم اليها قذفوه فيها. قلت يارسول الله صفهم لنا . قال هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا . قلت :فما تأمرنى إن أدركنى ذلك الزمن ؟ قال تلزم جماعة المسلمين وإمامهم قلت فان لم يكن لهم إمام ولا جماعة ؟ قال فاعتزل تلك الفرق كلها ، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك »

وحديث « يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها . فقال قائل : أومن قلة نحن يومئذ ؟ قال بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن فى قلوبكم الوهن . قال قائل يارسول الله وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت » رواه أبوداود من حديث ثوبان

وأحاديث فتنة الدجال الكثيرة التى تبلغ حد التواتر المعنوى ،

وأحاديث الدابة وطلوع الشمس من مغربها ، وحديث « لا تقوم الساعة حتى لايقال فى الأرض الله الله » وحديث « لاتقوم الساعة إلا على شرار الخلق وعلى لكع بن لكع » وحديث « خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» وليس المراد ذكرها بألفاظها وأسانيدها فلها محل مبسط موفى من دواوين السنه بعنوان « الفتن والملاحم وتغير الزمان » آمن بها المسلمون وإن جحدها الجاحدون ، وحكمة قيلها لبيان الواقع من جهة ، وللاحتياط لتأويلها والعمل على التفادى منه بقدر ما يمكن لا للاحتجاج بها واليأس من رحمة الله بسببها . كلا ثم كلا

إن الكاتب لايؤمن بها وبما هو أظهر منها من أصول الايمان والاسلام كالايمان بالله واليوم الآخر والقدر خيره وشرّه على الوجه الذى آمن به المسلمون وصدّقه المؤمنون ؛ ولكن على وجه دهرى إلحادى تلقفه من نفثات سموم غوستاف لوبون وأمثاله

ولكن هل لنا أن نسأله : هل بغايا عصره وراقصاته وخليعاته خير من أمهاته وعماته وخالاته فى القرون الماضيه فى العفة والحشمة حسبما تقرره نظريته الارتقائية خُلقا وديناً ؟

﴿ الأسباب — أوهام الناس فيها ﴾ ص ٢٧٢ — ٢٨٦

بدأ الكلام بالتمثيل بالتربة الغنية بالعناصر اللازمة للانبات ، وببذر البذر فيها ووقته المناسب وسقيه وفاق أصول الرى الصحيحة ، فاذا هو قد نبت حتما ، ومثّل بالتربة الخبيثة وعدم إمكان الانبات فيها وبالحى إذا قطع عنه الهواء أو الطعام والشراب فانه يموت. كل ذلك دليل على لزوم المسبب لسببه وعدم انفكاكه عنه بحال ، وأنه لا يمكن أن تدخل بينهما قوة فتحل ما بينهما من ارتباط ولا أن يتدخل الله تعالى فيلغى السبب أو يوجد بغير سبب وإلا كان قوة مجنونة أو كالمجنونة الحمقاء السفيهة . وسيأتي له فى باب مشكلة لم تحل إن من يؤمن بالله الفاعل المختار لا يمكن أن يكون سببياً فلا يكون ناجحاً فى الحياة وأن من يؤمن بقدرة الله تعالى على كل شيء فقد آمن أن الكون محكوم بقوة مجنونة أو كالمجنونة ، ونقلت نص كلامه فى ص ١٧ والرد عليها من كلام علماء القرن العشرين مشرفه باشا والسير جيمس جينز فى ص ٢٠ فارجع إليه وكن على ذكر منه . وتهكم بالخوارق والمعجزات واستهزأ بالقائلين بها . ثم قال هنا أول ص ٢٧٣

« أساء المسلمون الظن بالاسباب[1] وأكثروا من القول فى تقليل قيمتها

---

١) أيّ مسلمين ؟ ان المسلمين الاولين أخذوا بالاسباب كل مأخذ ، والاسلام أمر بالأخذ بالاسباب أمراً ، فاذا كان المسلمون الآن لا يحسنون الاخذ بالاسباب على وجهها لضعف فى التربية بنواحيها فهل معنى ذلك أنهم لا يقولون بالاسباب ؟ وليس السبيل الى تنبيههم هذا الذى كتبه صاحب الاغلال ، فانه إنما يضلهم السبيل بمحاولة إيهامهم أن التقدم رهن بتركهم الدين ، واتباع سبيل غير المؤمنين (غ)

وأثرها — بل فى تجريدها من كل قيمة وأثر ، وملأوا المنابر والكتب والنوادى والمجالس كتابة وخطابة بأن تحصيل السبب وافيا ليس معناه تحصيل المطلوب ، وأن فقده ليس معناه فقد المطلوب ، فقد تأخذ بأسباب شىء أحسن أخذ ثم لا تنال غرضك وقد تنال كل ماترجو بدون أن تأخذ بسبب واحد من أسباب ذلك .وقد زعموا أن القول بذلك قول بعظمة الله وبقدرته الشاملة وتصرفه المطلق

وقال ص ٢٧٨ « ومن أعظم ما جعلهم يسيئون الظن بالأسباب شيئان احدهما ـ انهم حسبوا الايمان بقدرة الله المطلقة فى تصرفها وعملها ينافى الايمان بالأسباب وحسبوا أنهم إذا آمنوا بالسبب فقد قيدوا الله به وألزموه بألا يخرج عنه وأن لا يعمل بدونه والله عندهم غير مقيد فى فعل من أفعاله بل هو يفعل ما يشاء بلا قيد ولا سبب ولا إلزام [1]

وثانيهما ـ إنهم وجدوا المسببات كثيراً ما تتخلف عن أسبابها ووجدوا أن الانسان قد يؤدى السبب على الوجه الأوفى الأكمل فيما يبدو ثم لايصل به ذلك إلى غرض منشود كما وجدوا أن المرء قد ينال حاجته وغرضه بدون سبب »

هــذا الذى يحكيه عنهم عايباً عليهم زارياً مخطئاً لهم هو الصحيح يشهد به الواقع ويؤيده الاستقراء ،ونزيده على ذلك انه ربما يعتقد فى الشىء زمنا طويلا أنه سبب لكذا أو مسبب عن كذا ثم يظهر بعد ذلك خطأ هذا الاعتقاد والأمثلة فى ذلك كثيرة فى الطب والكميا والطبيعة ،فكم من الأمراض الجرثومية كان يظن الناس أنها من فساد الهواء أو الغــذاء

---

(١) أما عند الكاتب ومن قلده فالله مقيد بسنن صارمة ونواميس طبيعية لا تنفصم أوقل عنه هو هذه السنن وأما الآيات والخوارق والمعجزات والديانات التى أتت بها فارم بها من وراء ظهرك وبهّت نقلتها ولو تواتروا حتى تكون سببيا ناجحا متألقا فى الحياة .

كالكوليرا والملاريا ثم عرفت بعد ذلك جراثيمها ،وكم أدوية اعتقد فيها ثم ظهر بعد ذلك خطأ الاعتقاد وكم من الآيات والخوارق خرقها الله لعباده كما شحنت بذلك كتب الديانات التي لا يؤمن بها الكاتب وإن آمن بها من هم خير منه ديناً وعقلا — والآيات والخوارق لا يعرف الناس لها سبباً والا لما كانت خوارق ،فهذه عصا موسى التي تتحول حية تسعى ماسبها وكذلك يده البيضاء فى جسده الآدم وانفلاق البحر له الخ وهذه نار ابراهيم التي صارت بردا وسلاماً وإخصابه بالنسل والذرية بعد العقم والشيخوخة منه ومن زوجه وهذه آيات عيسى بن مريم وهو أول الآيات ولادته من أنثى بلا ذكر وإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص على يديه ، وآيات نبينا محمد ﷺ من تكثير الطعام القليل صاع من شعير يطعم منه مئات الناس نحو الألف وكف من ماء يتوضأ منه المئات ، وقربتان من ماء تفتحان فيستقي منهما الجيش الكثير- أناسيه وإبله -والقربتان لم تنقصا شيئا .ودعاء مستجاب لشفاء مريض ونزول مطر وكثرة تمر يسد دينا لجابر ،ويبقى بعد ذلك طعام الأسرة سنتهم وكان الدائن لايقبل ذلك التمر فى سداد بعض دينه ،وانشقاق القمر والأسراء إلى بيت المقدس ؛والعروج إلى السماء والإخبار بالنبوءات المستقبلة الكثيرة ،ووقوع كثير منها كما أخبر وسيقع الباقي حتما وكرامات الصحابة والتابعين — ومن بعدهم من صالحي هذه الأمة المدونة فى كتب الثقات الأئمة وقد ذكر شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى طرفا صالحا منها فى كتابه (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) وتكلم عليها علميا ،ورد على منكريها فى رسالته « المعجزات » وكلاهما

مطبوع منتشر بين الناس ،سائر فيهم مسير الشمس.

***

يريد منا الكاتب أن نكفر بذلك كله وأن نكفر بقدرة الله تعالى على اخلاف الأسباب وسلبها سببيتها متى شاء وعلى عدم قدرته أن يوجد بلا سبب أو أن يخرق نظام الأسباب والمسببات ،بل نواميس صارمة لم تتخلف ولن تنخرم . ومن اعتقد الله قادراً عليها إيجادا وسلبا وتعطيلا فقد اعتقده قوة مجنونة أو كالمجنونة ،وأن الايمان بحتمية الأسباب وتسلسلها لا يمكن معه الايمان بخالق فاعل مختار ،فلابد أن نكفر به سبحانه وتعالى حتى نكون سببيين ناجحين عنده ،والا فلا نجاح لنا ولا تألق فى الحياة

***

ثم يريدنا أن نؤمن بقدرة الانسان التى لاتحد ص ٣٧ وأنه

« تُرك غير محدود القوى الذهنية وان له أن يشارك الله فى عمله وأن يخرج من نطاق الانسانية الضعيفة الواهنة إلى رحاب الألوهية التى تتصرف كيف تشاء وتعلم ماتريد(١)

وانه أى الانسان أول ص ٦٩ « ما خلق إلا ليغالب الطبيعة والحياة ولينازع الله (١)فى علمه وقوته وقدرته

ورجاؤه أو خشيته ص ٦٧ - وقد تحقق الأيام أى الأمرين - الرجاء أو الخشية - أحسن - أن يأتي الزمن الذى يقال فيه : الانسان الصناعى والحيوان الصناعى - وهذا ما لايزال العلم أمامه حيران عاجزاً ولكنه لم يعترف بالعجز ولم يفكر فى

(١) هذا كلام مجنون لا يفقه مايقول ولولا رجاء أخى المؤلف فى مامضيت فى قراءة هذا السخف المروى عن صاحب الأغلال (غ)

الاستسلام للاخفاق ،ومحاولة صنع المادة الحية وإيجاد الحياة [1] فى المادة لا يزال من المعارك الملتحمة التى لم يكتب للعلم حتى اليوم الظفر بها إذ يكاد يكون سر الحياة من أسرار الطبيعة التى لم يرفع عنها العلم الاستار ولـكن الانسان يقول انه انتصر فى نضال هو أشد [2] من هذا النضال الدائر الحامى من أجل الانتصار على سر الحياة ولغزها . وعلينا نحن أن نلزم الحياد حتى نرى لمن يكتب النصر .

وقال فى ص ٢٧٩ « أما تخلف المسببات عن الأسباب فهذا ما لا يكون أبداً وإذا تم السبب وجد المسبب لامحالة ولا يقع شىء فى هذه الدنيا إلا إذا اجتمعت أسبابه وإذا اجتمعت أسبابه فلابد من وقوعه على كل حال »

---

(١) الانسان لايستطيع أن يوجد شيئا مطلقا مهما تقدم به العلم وكل مايستطيعه هو استخدام ما أودعه الله فى المادة والطاقة من خواص ، حية كانت المادة أو ميتة ، وقد عبر العلم فى الماضى عن يأسه من إيجاد المادة أو إعدامها بقانون محفوظية المادة أو بقاء المادة كما كانوا يسمونه . ثم ظهر أن المادة لا تبقى وانها تنعدم كمادة بتحولها إلى طاقة ، وحتى هذا الانعدام قد كشفه العلم من غير أن يكون له فيه يد أو يكون له عليه أدنى سلطان فالعناصر الشعاعة كالراديوم والبورنيوم تتحلل إلى أشعة طبق سنن لا يستطيع العلم لها تغييرا ولا تحويلا ، فلا هو يستطيع أن يزيد فى سرعة التحلل ولا أن ينقص منه بأدنى مقدار مهما اجتهد فإذا كان العلم عاجزا حتى عن تعويق الانعدام أو تعجيله فهو عن إيجاد المادة فضلا عن إيجاد الحياة اعجز

فالعلم إنما يكشف عن الموجود كما أوجده الله ، واختراعاته إنما هى تطبيقات للسنن التى فطر الله عليها الأشياء فهو حين يكشف عن قانون لم يوجد هذا القانون وكل ما هنالك أنه بعد أن كان يجهل الموجود صار يعرف بعضه فيخيل إلى الجاهلين أن العلم يخلق ويوجد ،والعلماء أعرف الناس بعجزهم عن الخلق والايجاد (غ)

(٢) هذا كلام جاهل بالعلم وتاريخه فليس فى أهل العلم من يقول ان الانسان حل لغزا أصعب من لغز الحياة ليوهم نفسه أو غيره أن حل لغز الحياة ميسور (غ)

ثم استطرد لذكر آجال الأمم والأفراد وخطأ الذين يقولون أن للامم شيخوخة وضعفاً وهرماً . ونقول له ما بال النار التى أوقدها أعداء إبراهيم لم تحرقه حينما ألقى فيها، بل صارت بردا وسلاما عليه وما سبب تحول عصا موسى حية تسعى وكيف ولد عيسى بغير أب ولا تلقيح .وكم أعد من أسباب تخلفت مسبباتها عنها ومسببات بلا أسباب . ألا فليكشف القناع كما كشفه إمامه غستاف إذ صرح أن الخوارق والمعجزات أوهام انخدع بها راؤها ورواتها . ولا نجادله بالتواتر الذى لا ينكره إلا مباهت ولكن بالقرآن ،فإما إيمان به وكفر بالمادية الدهرية وإما إيمان بها وكفر بالقرآن المملوء بالآيات. ثم قال ص ٢٨١ :

وهذه الآراء مصدرها كلها هذه الفكرة الباطلة - وهى فكرة إنكار الأسباب أو التهوين من شأنها أو الاعتقاد بأن الله يفعل بدونها أو يدخل بينها وبين مسبباتها ويحول بينها وبين نهاياتها .

نعم نؤمن بأن الله يفعل بها وبدونها وله أن يبطلها متى شاء ،ولتهن الأسباب وليسقط عبادها وليسقط النجاح الدنيوى معها وليسلم لنا ديننا وإيماننا . وأغرب ما ترى من تحريف الكلم عن مواضعه قوله ص ٢٨٢

وأما قوله (قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم) فالمعنى فيه أن هنالك أقواماً من أشراف العرب يوجب عليهم شرفهم ومكانهم من قومهم وفى قومهم وتوجب عليهم سيادتهم ذات الحقوق المعروفة المرعية وظروفهم القاهرة الحاكمة أن يخرجوا للقتال على أى حال حتى ولو كان فى هذا الخروج الهلاك المحقق إذا ما أهاب بهم داعى المجد وان لم يدعهم الرسول وأصحابه إلى ذلك . . . حكم هذى الظروف عليهم المحفوفة بالأخطار وأسباب

الهلاك هو معنى كتب القتال عليهم ومعنى بروزهم إلى مضاجعهم ؛ وليس معنى هذا أن هناك قوة خفية تلزم قوماً معينين بالخروج لأنهم مرادون للقتل لأغراض لا تعقل ، ولنعدّ فهمنا للأشياء كلها من جديد

يعنى على ظلمات المادية والدهرية فبماذا أتعجب ! من تحريف الآية وتحميل (كتب عليهم القتال) ما لايحتمله حتى عند برابرة الأعاجم فضلا عن العرب أم من إنكار القدر والقوة الخفية التى ساقت من كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم. ولما شعر بسخف ما أتى به فى ذلك أشار إلى أنه تجديد فى الفهم وأنه يطرد هذا السخف فى التجديد(١)

وأسأله عن قوله تعالى (ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها)

ثم سار فى تقديس مادية الأسباب والاستدلال على ذلك من طبيعة العرب وبلادهم حتى قال آخر ص ٢٨٣

إن العربى هناك ليرى الريح الملقحة بالبخار تهب على سمائه الصافية فتنعقد السحابة الثقيلة المتراكمة فلا تلبث أن تتهاوى وابلا مدراراً على أرضه الجدبة اليابسة العابسة فتوجد الحياة ويوجد الأحياء ثم يكرر الجدب والشمس المحرقة على تلك الأرض الخضراء المعشوشبة فاذا كل شيء عابس هامد وهكذا تتكرر العمليات

---

(١) واسأله عن قوله تعالى فى أول السياق (ثم صرفكم عنهم ليبتليكم) وقوله (وما أصابكم يوم التقى الجمعان فباذن الله) (إذ يوحى ربك إلى الملائكة إنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) وما نريد منه تحريفا مضحكا مبكيا كالذى سمعناه فى تحريف (لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم) ويظهر أن الكاتب أراد من شرائع السماء مسخا دهريا مشوها قذرا أو أن يدس سمومه المادية الدهرية فى عسل الشرائع الالهية .

أمام بصره وبصيرته - ما بقي - بلا اختلال ولا اختلاف وبلا تدخل قوة من القوى في هذا فأين ما لاسبب له وأين السبب بدون مسببه ؟

فهل فطنت إلى قوله (بلا تدخل قوة من القوى) في هذا أي في نشأة السحاب ونشأة الحياة ؟ أليست هذه هي الدهرية ؟ وقوله (فأين ما لاسبب له وأين السبب بدون مسبب) أليس ذلك هو الكفر بالله وبآياته ومشيئته وقدرته . ونقول ان سني الجدب والقحط وجدت أسباب الامطار فيها ولم توجد الأمطار . والشمس وحرارتها والهواء موجودة كلها ولم توجد أمطار. ويستسقي النبي ﷺ لأمته فلا ينزل عن المنبر إلا وتهطل الأمطار كأفواه القرب ، ويمطرون سبتا كاملا (أسبوعا من سبت إلى سبت) حتى يضجوا إليه ليدعو برفعها فيدعو قائلا اللهم حوالينا ولا علينا ويشير بيده إلى السحاب فيتمزق تمزق الثوب وينجاب عن المدينة . فأين الأسباب التي عبدها الكاتب ويريدنا على عبادتها من دون الله تعالى ؟

واسمع لونا آخر من ألوان الهزء بالله وقدرته وشرعه والأعمال الصالحة قوله ص ١٩٧ س ١٠

« ومن الأمثلة السيئة للجهل بسنة الحياة أو بسنة الله(١) في الحياة أن الناس يريدون أن يبلغوا جميع أغراضهم المادية والمعنويه بغير وسائلها الطبيعية فهم يريدون أن ينالوا الثراء الوفير والأولاد والصحة والقوة وأن . . . وأن . . . بماذا ؟ إنهم يريدون أن يدركوا ذلك كله بالدعاء المجرد تارة وبالبكاء والضراعة

---

(١) وتفطن إلى هذا العطف التنويعي بأو التفسيرية تعرف أن الله في إيمانه وفلسفته هو سنة الحياة ليس هو رب العالمين خالق الأسباب ومسبباتها القادر على انفاذها وإبطالها والخلق بدونها متى شاء وكيف أراد

تارة وبالصلاة تارات وبالصيام أخريات وبالايمان حينا بلا عمل وبالتقوى أحيانا، وبقراءة القرآن أو بترتيب الأذكار والاوراد والاحزاب، ثم يزعمون أن القرآن والدين قد دلاهم على هذه الحقيقة. والدين والقرآن بريئان مما يزعمون

وذكر ص ٢١٤ الاعلان عن خطبة خطيب فى محاضرة عنوانها (الثقة بالله) فذكر خلاصه الخطبة واستحسان الناس لها وعلق عليها هازئا ساخراً بقوله

« انه حينئذ سيهبهم كل شيء وسيهلك لهم أعداءهم وسيقدم لهم صك الاستقلال التام ملفوفاً بحرير مصنوع فى السماء تحت إشراف الملائكة »

ياللهزء بالله وملائكته. ثم ذكر نجوم السماء المتلألئة التى تملأ الفضاء والتى تواجهك أينما توجهت والتى تزخرف بساطاً من حبات اللؤلؤ ذات الاشعاع المتوهج المتوقد الدائم الضوئية ومرور الأحقاب وهى محافظة على نظامها وسيرها ومداراتها بلا اضطراب ولا اختلال ولا فوضى ولا تصادم، وأن الذى يمسكها هو النظام الالهى ثم قال ص ٢٢٦ س ٤

« ثم سل قائلا : ارأيت لو أن الجن والانس والملائكة وكل الخلائق - أولين وآخرين - وقفوا فى صعيد واحد ثم سألوا الله جاهدين أن يفسد هذا النظام أو أن يغيره أو أن يتخلى عنه - أكان من الممكن أن يجيب الله هؤلاء الداعين أو يقبل هذا الدعاء »

والجواب أن هؤلاء المخلوقات من جن وإنس وفيهم الرسل والأنبياء ثم الملائكة ليسوا من البلاهة والجهل بالله وسننه أن يدعوا دعاءً أحمق لا فائدة منه وانهم ان أجمعوا على دعاء كان مستجاباً، ولكن الغرض هو تعجيز الله بما يسميه نواميس ونظاماً، والهزء بالجن والرسل والملائكه أنهم لم يعرفوا ماعرفه الكاتب من مادية الكون وطبعية نواميسه وقوانينه

وأحيلك على ماقرره علماء الطبيعة فى القرن العشرين من انتقاض قانون السببية ،وأنه تحول إلى قانون احتمال شبهه مشرفه باشا بحمار جحا المنسى. وقرر جيمس جينز فيما مضى ص ٣٢ بطلان غرور ماديى القرن التاسع عشر فى تلازم الأسباب والمسببات وبطلان آلية الكون وصرامة نواميسه الطبيعية فارجع إليه إن شئت

ولا نحتاج أن نذكر للكاتب الوقائع التى لا تحصى ولا تعد دعا فيها الداعون ربهم فاستجاب لهم وخرق السنن وهدم الطبيعة ،فدعاء زكريا الشيخ الهرم وامرأته العاقر وابراهيم وزوجه العقيم العجوز ونار إبراهيم وإحياء موتي عيسى وولادته بغير لقاح ذكرى ودعاء موسى على فرعون بالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم الخ

لانحتاج إلى شيء من هذا فالكاتب لا يؤمن به ، وإنما نذكر على سبيل الفكاهة وترويح النفس ماذكرته مجلة الدنيا المصوره عدد ٦ سنة ثالثة ابريل سنة ١٩٤٧ من مذكرات متهم بالقتل نجا من الاعدام بمعجزة هو جون فوجن قضت عليه محكمة تكساس بالولايات المتحدة بالاعدام لاتهامه بقتل أحد رجال البوليس وكان القاتل غيره ولما سأله قسيسه حلف له أنه لم يقتله وإنما ارتكب ماارتكب من النهب والسلب لإطعام امرأته وأطفاله الجائعين وكان صادقا فيما قال وقد عرفه قسيسه الايمان بالله العظيم الذى هو أعظم من رئيس الجمهورية الذى كان المتهم لا يعرف أعظم منه فتعرف إليه بعد الكفر به ولجأ إليه ودعاه ولما أخذ إلى الغرفة الخضراء حيث كرسى الاعدام الكهربائى وأخذ الجلاد بيد المجرم ليجلسه على الكرسى

وفجأة خيم السكون على الغرفة الخضراء، ووقف المحرك الكهربائي وحدثت المعجزة للمرة الثالثة إذ كان قد وقف قبل ذلك مرتين — وأعيد المجرم إلى غرفته، وقال قبل إعادته لحاضرى التنفيذ: أيها السادة هل جئتم ههنا لتشهدوا جريمة . جريمة قتل برىء متهم بالقتل تهمة غير صحيحة ؛ هل تأكدتم الآن براءتى . وقال فى مذكراته : كنت أول من دخل حجرة الكرسى الكهربائي فى ولاية تكساس وخرج منها حياً . ولقد أيقنت حقاً ان هناك إلها يأخذ بيد المظلوم فجثوت على ركبتى وصليت بحرارة

تأجل التنفيذ أسبوعاً ليرسلوا المحرك لاصلاحه ؛قال المتهم ليصلحوه وليفعلوا به ما شاؤوا ؛إنه لن يصعقنى (قال ذلك لحارس الليل) فسمعته يقول لحارس النهار : لقد جن جنونه فراقبه قال المتهم مضت ثلاثة أيام وأنا مطمئن النفس وفى اليوم الرابع فتح باب غرفتى ونادى البشير : لقد صدر أمر العفو عنك ياجون فاذهب فأنت حر لوجه الله . اه

لعل الكاتب يؤمن بمثل هذه القصة أكثر مما يؤمن بما جاء فى الآيات والأحاديث فى إجابة دعاء الداعين وإكرام الله تعالى لرسله وأنبيائه وعباده الصالحين . وما ذكره الهيهاوى الذى هم باغتيال السلطان حسين كامل رحمه الله تعالى تحت عنوان « خمس ليال فى غرفة الاعدام » فى أحد أعداد مجلة الاثنين من أنه ليلة صبيحة التنفيذ بات يدعو الله تعالى ويقرأ عدية ياسين حتى أخذه النوم العميق ثم أوقظ فاذا بحكمدار القاهرة « رسل أو هارفى باشا » ومعاونه فما شك أنهم آخذوه لحبل المشنقة ؛ فقال الحكمدار جئت بنفسى لأبشرك ببشرى إلغاء الحكم الاعدامى واستبدال الأشغال

الشاقة به قال فطار فرحا حتى صار يرقص أمامهم ويستعيدهم البشارة

وما ذكر فى أحد أعداد المختار من نحو سنتين من انقطاع حبل المشنقة بأحد من أرادوا اعدامه مع أنه جرب فى حمل كيس من الرمل ضعف وزن المجرم قبل ذلك .وكان ذلك مما أبطل التنفيذ الخ

***

يقول فى مسألة رفع الانسان إلى مقام الربوبية وعدم الفرق بين الخالق والمخلوق والايمان بارتقاء الانسان إلى مراتب الالوهية ص ٣٦

« من الواجب المفيد أن تعرف من أين جاء الانسان هذا الكفر بذاته وانسانيته . . يلوح أنه كفر هذا الكفر لأنه أراد أن يؤمن بالله الايمان الذى تصوره فقد تصور أن أساس الايمان بالله قائم على التفريق بين الخالق والمخلوق أو بين الله وعباده فانه يجب أن يعتقد بأنه كامل فى كل شىء قوى فى كل شىء والعبد يجب أن يعتقد بأنه ناقص فى كل شىء ضعيف فى كل شىء »

فهذا الفرق بين الخالق والمخلوق وبين الله وعباده فى الكمال والقوة والعلم هو أساس الديانات كلها أوجبه العقل والفطرة والتجربة وإن أنكره هذا الكاتب وسماه ص ٣٧ س ١٣ « فلسفة مجنونه مخذولة وتدينا مدخولا » وهزأ بالدليل العقلى الذى يفرق بين الخالق والمخلوق وهزأ بالديانات التى تقرر ذلك ، فحكى ذلك حكاية المنكر الهازىء بقوله آخر ص ٣٦

« ثم البرهان العقلى يقضى بألا يكون المخلوق الحادث مثل القديم الأزلى وإلا فلا فرق بين القدم والحدوث ولكن المسألة كلها قائمة على التفريق بين الحدوث والقدم أو بين القديم والحادث ولولا هذا لما كان هناك عابد ومعبود ،ولكن الديانات كلها مبنيه على العبودية »

يعترف بأن هذا هو بناء الديانات كلها وأنه حكم البرهان العقلى ثم يحكم عليه بعد عدة أسطر من هذه الصفحة بأنها فلسفة مجنونة مخذولة ودين مدخول ويقرر مع الهزؤ بمن يخالف ذلك بعد أسطر :

إن الانسان تُرك - ولا يقول خلق - غير محدود القوى الذهنية وأن له أن يشارك الله فى عمله وأن يخرج من نطاق الانسانية الضعيفة الواهنه إلى رحاب الألوهية التى تتصرف كيف تشاء وتعلم ما تريد »

وسخّف الخطباء والعلماء والوعاظ وجميع رجال الدين وغير رجال الدين الذين يقولون مؤكدين لنا

« بأن الانسان ما خلق ليكون عالماً ولا ليكون شيئا كبيراً ولا ليغالب الطبيعة والحياة ولا لينازع الله فى علمه وقوته وقدرته آخر ص ٦٨ وأول ص ٦٩

وقال ص ٦٧ « وقد طفق من أجل ذلك يبارى الطبيعة ويساميها فى كل أفعالها وعجائبها » ومثل بالبترول والمطاط واللؤلؤ الطبيعى والصناعى ثم قال « واننا لنخشى أو نرجوا وقد تحقق الأيام أى الأمرين أحسن — أن يأتى اليوم الذى يقال فيه الانسان الصناعى والحيوان الصناعى »

أى أنه يصنع الانسان انساناً وحيواناً لا يفترق عن الانسان الحقيقى والحيوان الحقيقى الذى سماه الطبيعى الذى هو صنع الله تعالى ثم ذكر محاولتهم الوصول إلى سر الحياة ومحاولة صنع المادة الحية ورجاءهم الوصول إلى ذلك ثم قال فى معرفة الانسان ما كان وما سيكون ص ٥٨ س ١٥

« انه - أى الانسان - راح يُولد هذا الوجود ويشهد تولده وتكونه وتوالده وذهب يحدث حديث الحاضر الشاهد : كيف ولدت مادة الكون (كذا) ومتى ولدت وكيف ظلت تتفاعل وتتطور ثم كيف أخذت تتوالد ثم كيف ولدت هذه الشمس وغيرها من الشموس (يالها من دهرية مغرورة) وقال ص ٥٩ « ثم لم يقف

بعمله عند هذا الحد بل ذهب مسرعاً يسابق الوجود فيسبقه وذهب يخبرنا عما بقى من عمر هذا الانسان وغيره من الأحياء ويخبر عن الأحداث والحوادث التى لا تزال فى طريق الوجود والتى لا تزال تترقب »

(يا للتهجم السخيف) ثم حرف قوله تعالى (ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم) وإنه نفى عنهم المشاهدة لا العلم ص ٦٠ وطبق على الناس وقت نزول القرآن قوله فى المشركين (يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) آخر ص ٦١ وعممها فى الجميع ولم يستثن مع أنها فى الكفار الذين لا يعرفون غير الدنيا وهم عن الآخرة غافلون أمثال من قلدهم الكاتب وارتضى فلسفتهم الدهرية. ثم قال ص ٤٨

« ماذا ترى الآن فى هذه الحياة التى تموج بأعمال الانسان والقوى المادية والفكرية التى أوجدها [1] هذا المخلوق. كيف استطاع الخروج من تلك الظلمات الأزلية حتى وصل إلى هذا العصر وكيف استطاع الوصول فى سيره المتعثر واستطاع أن يسدد وقع أقدامه المتحركة فى الظلام بدون أن يكون له هاد إلا طبيعته ومرشد الاحاجته ونور يبصر به السبيل إلا أمله وبدون أن يكون له قوة دافعة إلا استعداده المولد للطاقة بعد الطاقة بدون عطل أو توقف »

لا حول ولا قوة إلا بالله (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون) (وما بكم

---

(١) لقد قلنا من قبل إن الانسان عاجز كل العجز عن الإعدام فضلا عن الايجاد بل هو فى آلاته عاجز كل العجز عن أن يسترد من محصولها ما يكافىء كل أو جل ما وضع فيها من وقود . إن أهل العلم وحدهم هم الذين يعلمون مبلغ قصورهم عما ينبغى لأنهم أعلم بما يبذلونه وما يحصلون عليه . أما من عداهم فيظن فيهم ظن الطفل فى أبيه من القدرة على كل شىء (غ)

من نعمة فمن الله) (ولو شاء الله ما زكا منكم من أحد أبداً ولـكن الله يزكى من يشاء) (الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة) (هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً) (وخلق الانسان ضعيفاً)

***

علق على قول المسيحى الذى جعل فى تأليه المسيح فائدة للنصارى وتقديماً لهم على المسلمين أول ص ٣٩

« ليس بخاف مافى هذا القول من محاولة للتسامى بالمواهب الانسانية والحقيقة الأنسانية وكم الفرق بين هذه الروح التى أملت هذا الكلام وبين تلك الروح التى أملت قولهم (ما للتراب ولمعاوم الخ) لقد عظم الفرق فى التوجيه والاتجاه فعظم الفرق فى النتيجة والغاية » ثم انظر إلى قوله ص ٩٧ فى الممتازين من الناس الذين يهبون الشعوب ماهى فيه من اديان ومعارف وصناعات ومخترعات ومكتشفات ولولا هؤلاء لما استطاعت الانسانية أن تنعم بشىء مما تنعم به اليوم من وجوه هذه الحياة المشرقة الواضحة فلكل هؤلاء الذين أعطونا هذه الحياة وعودونا على التحرر والخطو إلى الأمام شكر الانسانية أجمع »

فجعل الأديان كالمعارف والصناعات والمخترعات من هبات الاقوام الممتازين الذين أعطونا هذه الحياة الخ

ثم انظر قبل ذلك بعدة أسطر تحقير الدين وأهله والمتمسكين به بقوله ص ٩٧

« وقد جهلت وهانت تلك الأمة التى تحتاج إزاء الحقائق السافرة الملموسة إلى براهين دينية تقنعها بفائدتها وجواز الأخذ بها وإذا ما رأيت أمة تثير غبار الجدل الدينى أمام مايجد من مبتكرات العقل الانسانى ـ مجوزة أو مانعة محللة

أو محرمة .. فاعلم أنها أمة فاشلة مريضة بعقلها وتفكيرها ودينها »

هكذا يكون تقليد الملاحدة كلوبون فالرسل والأنبياء والمؤمنون بهم الذين يقفون عندما شرع الله تعالى حلا وحرمة حظراً وإباحة فاشلون مريضون بعقولهم وتفكيرهم وبدينهم أيضاً فى نظر الكاتب ومن قلده. فبشرى للاباحية العصرية من رقص وفسق وفجور وعرى وتهتك وخلاعة

وذم آخر ص٩٧

«هذه المخلوقات البشرية التى تأبى مفارقة إلفها واعتيادها لأنها إنما تعيش بحواسها المجردة فما رأت وأحست واعتادت فهو الحق - ومالم تحس وتألف فهو الباطل وشبههم بالعجماوات ثم تناقض ومدحهم فى آخر ص ٣٢١ وأول ص ٣٢٢ إذ يقول (وقد أبدع الأغريق والرومان والمصريون القدماء وغيرهم من الشعوب القديمة لأنهم كانوا يبالغون جداً فى حب مظاهر هذه الطبيعة حتى عبدوها وصيروها كل أملهم ورجاءهم المنشود وهوت جميع الأمم التى انصرفت بآمالها عما ترى وتحس وتجد إلى مالاتجد ولاتحس ولا ترى - واستشهد بكلام غوستاف لوبون « إن الايمان بالله وحده كان نكبة على البشر ولم تستطع الحضارة البشرية أن تخطو خطواتها الصحيحة القوية إلا فى عهود الوثنية وعبادة الأصنام»[(١)]

فماذا نصدق وماذا نكذب المدح أو الذم وبأيهما يؤمن الكاتب أم هو التقليد يجعل صاحبه(كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل ان هدى الله هو الهدى) لقد فتن هذا الكاتب بما قرأ من معربات كتب غوستاف لوبون فنقلها نقل تقليد

(١) إن الذى يقرن بين وثنية الاغريق والرومان والمصريين القدماء وبين تقدمهم ويقرن بين الاسلام وبين تأخر المسلمين الآن إنما هو كذلك الطفل الذى رأى بقرة بيضاء تحلب فظن أن بياض لبنها من بياض جلدها ! (غ)

بدون فهم لما فيها من تناقض أو بفهم منكوس وصار صدى يرددها بلا عقل حتى أن غوستاف لما استشهد بكلام فيلسوف انكليزى معاصر له ذكره الكاتب قولاً لنفسه حتى كأنه هو الذى اطلع على كلام هذا الفيلسوف بنفسه، فرحى للتقليد والسرقة والتحلى بثياب الزور. ألا فليذكر لنا الكاتب اسم ذلك الفيلسوف الانكليزى المعاصر الذى ذكر كلامه آخر ص ٣١٩ إن كان قد وقف بنفسه على كلامه من كتاب له أو محاضرة أو من مجلة أو جريدة، وإلا فهو لص غير شريف، ومصور لأفكار غيره تصويراً مشوهاً مختلا، ومستق بغير أدب من حياض غوستاف الحمجة الوخيمة بدون اعتراف بمصدر تفكيره ؛ ولا سند أقواله، بل يخرج أقوال غيره مخرج المبتكر المخترع المختلق المخترق لها ؛ بلا حياء ولا حشمة ممن يطلع على ذلك منه

وقال فى شرحه لكلام غوستاف : إن الايمان بالله وحده كان نكبة على البشر. الخ ص ٣٢٢

(يريد بعهود الوثنية تلك العهود التى سادت عبادة الطبيعة ومجاليها الجميلة ويعنى بعهود التوحيد تلك العهود التى أعلن فيها الدعوة إلى عبادة الله وحده وإلى العمل للآخرة وحدها والتأميل فيها دون الدنيا كعهود انبياء بنى اسرائيل وأسباطهم)

فهل عقل الكاتب قوله « عهود أنبياء بنى إسرائيل » وان منهم موسى وهارون وداود وسليمان ويوسف الذين أسس الله على أيديهم عز هذه الأمة الاسرائيلية وسيادتها وملكها ؛ وما كتب لهم التاريخ من أثر ومن عمل ؟ أم هو التقليد الأعمى لما كتب غوستاف

بدون عقل وفهم ؟ وهل نسى الكاتب ما كتبه سابقا عن علوم اليهود وفنونهم ، وعن حكم سليمان فى طاب الغنى ، وهم أمة أولئك الأنبياء ، أو نسى عز بنى إسرائيل أيام داود وسليمان ومن قبلهما إلى موسى وهارون ، وما ناله المصريون من حكمة يوسف وتدبيره فى وزارته ايام خصب بلادهم وجدبها وهو من انبياء بنى اسرائيل الذين ذم الكاتب عهودهم الدينية تقليداً لصنمه غوستاف بلا عقل . أو هو الهوس فى ذم الدين ورجاله وقادته من الأنبياء والحكماء والعلماء ؟

وقال ص ٢٣١

(وقد ثبت فى تاريخ كل الأمم التى أوجدت [1] التاريخ انها كانت تذهب هذا المذهب فى حب الجمال وتصوره - على درجات متفاوته - . . كما ثبت من جهة أخرى أن الأمم التى لا تكون كذلك تعجز عن أن تبدع فى الحياة وعن أن توجد لها بين سطور التاريخ حديثا يقرأ فيشوق . ومن الواجب أن نعتقد أن الأمم أجمع إنما هى صنع خيالها وأن خيالها إنما هو هبة رجالها الذين استطاعوا أن يسبقوها فى التصور والتصوير وأن يحدوا لها على أنغام المثل العليا . .

يقال له : هل قرأت تاريخ هذه الأمم وتخصصت فى كليات هذا التاريخ ؟ أم هل النقل الحرفى أم هو مدح الطبيعة والجمال وإبداع الحياة وهبة رجال الامم لها ؟

---

(١) لقد أوجدت الأمة العربية فى عصر الخلفاء الراشدين التاريخ من غير شك فهل كانت تذهب المذهب الذى يزعم صاحب الأغلال ؟ إنه يدعى الدعاوى جزافا بغير حساب ليثبت مذهبه عن طريقها . وليس من يفعل هذا ممن يقام له وزن ولا حساب (غ)

وقال فى مدح الاباحية والانطلاق من حدود الادب والحشمة ص ١٥٩

(وقد لوحظ ولا يزال يلاحظ وعلم النفس يقرر بمباحثه صدق هذه الملاحظة — أن الجماعات التى تضيق عليها رغباتها وتحرم من ميولها الطبيعية حرماناً هو العنت والإرهاق تجىء أبداً عاجزة فى عقلها وقلوبها وعواطفها ومشاعرها عن اللحاق بالجماعات الأخرى التى أطلقت ميولها من الاغلال والحرمان. هذه حقيقة يقررها علم النفس والاستقراء والتاريخ)

بشرى لكم أيها الفجار والفساق رجالا ونساءاً فقد أباح لكم الكاتب حل العقال لتكونوا أقوياء فى العقول والقلوب والعواطف والمشاعر وتلحقوا بالجماعات الأخرى التى انطلقت ميولها من أغلال الأدب والعفة والحشمة والدين ، فتلحقوا بالفسق والفجور ركب الحياة وموكب الانسانية. وليس العجب من جرأته على علم النفس الذى يحمله تقرير ذلك ولكن العجب افتراؤه على الاستقراء والتاريخ ، لا أقول لهذا المباهت اقرأ تاريخ الامبراطورية الرومانية للمؤرخ الانكليزى « جيبون » وأسباب انحلالها وما كتبه العلماء وسطره التاريخ عن زوال الدول بسبب الرفاهية والفسوق والترف . وما أخبار ترف الأمويين والعباسيين والعثمانيين وغيرهم بخافية على من أرادها . وما أصاب الأمم المنقرضة بسبب الفسق والفجور وما حروب أوروبا المدمرة بسبب التنازع على الترف والرفاهية من العقلاء ببعيد

وقوانين انكلترا الصارمة بعد الحرب فى منع الترف أو تقليله إلى حد العدم حتى ما نعده ضرورياً فى حياتنا اليوميه كالدهن والسمن والبيض واللحم . واقرأ مقال « أتستطيع بريطانيا أن تنجح » للكاتب الأمريكى

(فرنسيس وكاترين دريك) فى مختار يونيه ٩٤٧ نقلا من مجلة اتلانتيك الشهرية تغنى عن نقل الشواهد على ذلك مبدوءاً بقوله : هل تستطيع بريطانيا أن تنجو من الافلاس وهى تعاني نقصاً فى الأيدى العاملة وقلة الطعام وتلفاً فى الآلات » واجمع بين قول الكاتب هنا وما نقلناه عنه فى ص ٦٠ تعرف الهاوية التى يريد الكاتب أن نتردى فيها ، ويكفى عقلك وقلبك ودينك فى وزن ذلك ونتائجه. ثم اجمع بين ماقاله الكاتب الامريكى فى ديون انكلترا الباهظة الفادحة التى تعد بعشرات ألوف الملايين ومئات ألوف الملايين وبين قول الكاتب فى الأغلال ص ٢٢٢ س ٢١ فى وصف بريطانيا « إنها ذات الثراء المخيف » فمن نصدق ؟ هذا المتطفل على مالا يعرف أم كاتبا المجلة الامريكية الشهرية اللذان يكتبان ما يعرفان من حقائق واقعية لمساها بأيديهما .

ومثل ذلك مدحه للانجليز فى اسقاطهم تشرشل ص ٣١٣ بقوله:

« إذ لاشك فى أن الانكليز إنما أسقطوا تشرشل لإيمانهم بأن من الممكن أو من المحقق أن من سيخلفه سيجيئهم بأفضل وأعظم مما يجيئهم به واهب النصر لو أبقوه مكانه . . ولا ريب أن شعباً يعتقد هذه العقيدة فى تشرشل وفى خلفه شعب يؤمن أشد الايمان بالمستقبل وبالتطور وبأن المستقبل وأهله دائماً أفضل وأكمل من الماضى وأهله، تقوده هذه الأفكار الجميلة . . لعسير جداً مباراته وإنزاله عن سلطانه الضخم الواسع »

الخ ما استطرد ورمى به المسلمين أنه لوكان فيهم تشرشل لعبدوه وعدوا إسقاطه جنونا وخيانة وكفراً بالله وتجهيل المسلمين الذين يذكرون سلفهم وأسماءهم الذين هم عند الكاتب لم يفعلوا شيئا «بل صنعوا مايستحقون

عليه الرجم والتدمير والكفران الأبدى » لأنهم حفظوا الدين وحافظوا عليه وجاهدوا فيه وله، وهذا ممايستحقون عليه الرجم والتدمير والكفران الأبدى عند الكاتب الذى يفضل الانكليز واستعمارهم على المسلمين حتى على صحابة محمد ﷺ، كما صرح بذلك عندما خانه حزمه ونفاقه أمام الكاتب الشهير سيد افندى قطب رئيس لجنة التأليف بوزارة المعارف المصرية

فهل يعجب الانسان من جهل هذا الكاتب بسياسة الانكليز وطرق قيام الحكومات فيهم تبعاً للحزب الفائز فى الانتخاب وسقوط حكومة الحزب الفاشل وأن فوز إتلى وسقوط تشرشل كان بسبب فوز حزب العمال وفشل حزب المحافظين ولهذا أسباب معروفة ذكرها الكتاب السياسيون فى الصحف السائرة فى حينه خلافاً لما علل به الكاتب واستطرد فى مدح الانجليز . أو يعجب لمدح الكاتب للانجليز فى ثرائهم المخيف وسياستهم وسلطانهم الضخم الذى يعسر عند الكاتب انزالهم عنه واستعمارهم الذى يفضله الكاتب على عهد الاسلام الزاهر فى عصر رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين رضى الله عنهم ومن بعدهم وفتوحاتهم الوضاءة فى غرة جبين الدهر . ثم يشيع اليأس فى نفوسنا ويرهبنا بطش اليهود وقوتهم ويحسن لنا البقاء فى احضان الحماية الانكليزية أو الأمريكية ولو قرأ الكاتب ما كتبه السياسيون فى اخطاء تشرشل الشنيعة أيام وزارته لكف عن كيل المدح له جزافاً . واقرأ فى مختار يوليو مقال « فصل خفى من التاريخ » وفى عدد ١٣٧ (٢ شعبان سنة ٣٦٦) من جريدة أخبار اليوم مقال الأستاذ عباس العقاد ومحمد التابعي تغنيني عن نقل

الشواهد - بقوله ص ٢٢١ س ١٧

« نؤمل اليوم أن تحمينا بريطانيا وأمريكا من هذا الغزو المحيط الماحق - مع أنهما هما الخصمان - إننا نخدع أنفسنا كثيراً ونضللها حينما نظن أن فى حولنا - لو تخلت هاتان الدولتان - أن نحمى أنفسنا بقوانا الخاصة من غزو الصهيونية وأخطارها .

فالصهيونيون مسلحون اليوم بأعظم وأحدث القوى العلمية والصناعية والمالية والفكرية والدولية . أما نحن فنكاد نكون محرومين من كل ذلك »

وإذن فالمخرج هل هو أن نبقى تحت حماية بريطانيا ذات الثراء المخيف والسلطان الضخم الذى لا يقهر أو تحت حماية أمريكا الفتية الناشئة التى فارت قوتها اليوم ؟ أو نعمل على الاتصاف بالمناعة الذاتية الداخلية التى تخيلها الكاتب ذراً للرماد فى عيون من لا يقرءون مابين السطور ؛ ولا ينظرون ما وراء الستائر ويفضون الغلف لينفذوا إلى مابداخلها . إن كان الكاتب يريد بالمناعة الذاتية الداخلية التى يشير بها علينا :المادية الحسية مع ترك الخلق والدين فبئس ماأشار به وأخدع به من غش ، وأكرم بما بقى فينا من بقية دينية خلقيه ،ولعل الله ونرجوا رحمته أن يمن علينا بالرجوع إلى الدين الحق من كتابه وسنة رسوله ﷺ وسيرة الصحابة وخيار التابعين ،فنصبح خير أمة أخرجت للناس ،ونطفىء شر هذه المادية الدهرية التى قدمها لنا كاتب الأغلال بروح الله وشرعه وقدره وفضله ومعونته.

***

فسر القدر تفسيراً مادياً على خلاف ماجاء فى القرآن والسنة الصحيحة وكلام سلف الأمة وأئمتها فى ذلك ،مخطئاً فيهما قالوه وذهبوا إليه ، ثم

ابتكر له هذا المعنى فقال أول ص ٢٤٩

« فالقدر بجملته وجملة استعمالاته يراد به التقدير أى جعل الشيء ذا مقادير معلومة أى يراد به جعل الشيء منظما فى كمه وكيفه »

ثم شرح هذا التقدير الكمى والكيفى بكلام طويل ممل ، واستدل بالآية (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين . . ذلك تقدير العزيز العليم) إلى أن قال ص٢٥١

« قوله (ذلك تقدير العزيز العليم) يراد به القدر الذى ضل فيه الناس وصيروه عامل ركود وانحطاط مع أنه هو القوة والوثوب والنشاط . وختام الآية بقوله « العزيز العليم » هو كالتدليل على أن المقصود بالتقدير وضع الأشياء فى مواضعها وخلقها متناسبة متكافئة والعليم هو الذى يفعل ذلك ويقدر عليه)

فهل سمعت فى العجم أو البربر من فسر العليم بالذى يفعل ويقدر ؟

ثم قال فى آخر الصفحة

« وقوله ائتيا طوعاً أو كرها إشارة إلى فائدته وإلى أنه سنة محتومة لا تغير ولا تبدل » إلى أن قال ص ٢٥٣ س ١٧ « إن العالم يشبه إلى حد بعيد صناعة كبيرة فيها ملايين الآلات والعدد الدقيقة وكل هذه العدد والآلات تسير وتدور وتتحرك بدءوب لا ينقضى لغاية مقصودة ولايجاد شيء متقن عظيم بدون أن تقف هذه العدد وبدون أن تتصادم أو تتعارض أو يصيبها ما يحدث الخلل إن هذه الصناعة لابد أن يكون كل جزء فيها وكل آلة وكل عدة مقدرة بتقدير حكيم دقيق من ناحية حجمها وناحية موضعها وناحية كيفها ؛ ومن كفر بهذا التقدير فى هذه الصناعة الفخمة فقد كفر بعقله ، والايمان بهذا التقدير هو الايمان بالصناعة المذكورة والايمان بها هو الايمان بصانعها وكذلك هذا العالم إنما نظمه ونظم وجوده وبقاؤه وبقاء كل مافيه بالاقدار المودعة فى أجزائه الصغيرة والكبيرة ولا يمكن للايمان بالله مع الكفر بهذا كما لا يمكن الكفر بالله مع الايمان

بهذه الأقدار إلا أن ينأى المرء عن عقله بعيداً ولكن الكفر بهذه الاقدار هو كفر بالانسانية العاقلة المفكرة فلا يكفر اذن بالله إلا من كفر بالانسانية وبمزاياها العقلية والمنطقية »

فبشرى للطبائعيين والدهريين الذين يقولون بآلية الكون وحكمه بنواميس طبيعية قائمة بالمادة ، إذ شهد لهم الكاتب انهم بإيمانهم بهذه النواميس التي سماها أقداراً يؤمنون بالله ولا يمكن أن يكونوا كفاراً بالله مع إيمانهم بهذه الآلة العظيمة الدقيقة. ثم ويل للمؤمنين بالله الذين يؤمنون أنه قادر على خرق هذا النظام والتصرف فيه، وكم خرق من عاداته وسننه على أيدى رسله والمصطفين من خلقه — ثم الهبل والثكل لعقلاء القرن العشرين إذ يعترفون بتدخل القدر فى إبطال قانون السببية وعدم القطع به بل آل إلى قانون احتمالى جحوى (١) وارجع إلى مانقلت لك من كلام عميد كلية العلوم وصاحب كتاب « الكون الغامض » وصاحب كتاب « مصير الانسان » آنفاً تستغنى عن تكرار الاعادة

أما معنى القدر فقد شرحه الأئمة والمحدثون والمفسرون بما يملأ قلب الكاتب غيظاً وحقداً وبغضاً لهم بما هو مبسوط فى كتبهم . وأخصر كلمة نقولها هنا حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً « إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف عام وأنه خلق

(١) نسبة إلى حكاية جحا إذ كان يعد حميره فيفقد منها ماهو راكبه فترك ب حتى لايفقد منها شيئا والمثل ضربه عميد كلية العلوم على مصطفى مشرفه باشا فى محاضرته التى لخصت منها ما يرد على كاتبنا ومن قلدهم من دهرية القرن التاسع عشر وما قبله

القلم فقال له اكتب فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة » والحديث الآخر « كل شيء بقدر حتى العجز والكيس » وفى القرآن الكريم « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير »

وجواب موسى لفرعون عند ماسأله عن القرون الأولى فقال موسى (علمها عند ربي فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى) (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم مافى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين) (وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين) (يضل من يشاء ويهدى من يشاء) (ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون) (ولو شاء الله ما زكا منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكى من يشاء)

وحديث تحاج آدم وموسى وقول آدم فكيف وجدت أن الله كتب علىّ ذلك قبل أن يخلقنى بأربعين سنة ، فحج آدم موسى فحج آدم موسى »

وردّ الغالطين فى الاحتجاج بالقدر ليس بانكاره ، ولكن بتعليمهم إياه على الوجه الصحيح الذى يرشدهم إلى التوكل على الله ، وعدم الحزن على مافات ، مما لايوافق أهواءهم كما جاء فى الحديث « احرص على ماينفعك واستعن بالله ولا تعجزن ، فان غلبك شيء فقل قدّر الله وما شاء فعل »

ولقد كتب فى افتتاحية مجلة الرسالة أحد كتابها الأستاذ عباس العقاد

معترفا بالقدر ، مؤمناً به على الوجه الذى يقرره الدين ويوجبه ، وذكر صاحب كتاب « أومن بالانسان » ما معناه : إن علينا أن نسير فى أعمالنا قُدماً فان نجحت وإلا علمنا أن للعناية الالهية أغراضاً غير مانريد ومانحب

***

قال فى ص ٢١٥

« قال أحد القواد العبقريين [١] الذين عركتهم الحروب وعركوها « إذا احترب فريقان كان الله مع أقواها » ثم أخذ يوجه قول هذا القائد بقوله «وإذا استمعنا إلى قول الله فى كتابه « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » إستطعنا أن ندرك ما فى قول هذا القائد من حق وصدق فان هذه الآية قد جعلت نصر الله لنا إنما يأتى بعد نصرنا له ونصرنا له تعالى هو نصرنا لأنفسنا [٢]

(١) لعله هتلر مؤسس النازية الألمانية ، والكاتب لم يصرح باسمه مداهنة للانكليز يسترضيهم وكلمة زعيم ألمانيا من الخطابات التى يراد بها شحذ الهمم ليست من القواعد العالية، التى تحوج الكاتب الى تكلف توجيهها بهذه السخافات المضحكة المبكية

وقرأت فى بعض الكتب أو الصحف أنه ويلهلم غليوم الثانى عاهل ألمانيا قبل الحرب الاولى وموقد تلك الحرب الماضية قبل هذه

(٢) ويكون حل الآية وتفسيرها على زعم الكاتب هو إن تنصروا أنفسكم تنصركم أنفسكم، فيالها من عجمة مضحكة لقد ضحك الناس قديما على الاعجمى الذى فسر قوله تعالى (والسماء ذات الحبك) اذ قال أما السماء فهى السماء وأما الحبك فلا نعرفه نحن ولا أنتم. وهنا يؤول معنى الآية على ما فسرها الكاتب ان تنصروا أنفسكم تنصركم أنفسكم، والمغزى ليس فى الميدان الله ولا الايمان به ولا الثقة به والتوكل عليه، فياقرة عينك يالوبون بمطوع نجدى صعيدى يقرر دهريتك من كتاب الله تعالى .

وإذن فالله لاينصرنا إلا إذا نصرنا أنفسنا ولا يمكن أن ننصر أنفسنا إلا اذا كنا أقوياء واذن فالله مع الناصر لنفسه والناصر لنفسه هو الأقوى واذن فالله مع أقواهما وهذا هو القانون العادل الشامل فمن هلك به فقد هلك بالحق والعدل ومن هلك بهما فلا ناصر له »

ونسأل الكاتب الفيلسوف : أين كان الله ومع من فى غزوة بدر ؟ ومن كان الأقوى منهما ؟ وما معنى (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة) ؟ ومع من كان الله فى جهاد موسى مع فرعون ؟ وقوله (ذروني أقتل موسى وليدع ربه) وما معنى قوله تعالى (ونريد أن نمن على الذين استُضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم فى الأرض ، ونرِى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها)

وقال فى ص ٢٢٧

« والقدر هو النظام كله . . ويجب أن يعلم بأن الخلاف الذى قام بين الأنبياء والمصلحين وبين جميع أصناف المخالفين هو فى أمر واحد تحته أمور كثيرة هذا الأمر هو أن الأنبياء والمصلحين كافة انما جاءوا بالنظام والدعوة الى النظام فى كل شيء والى الايمان بهذا النظام . ثم شرح هذا النظام الى أن قال « ولا انتظار للخوارق والمعجزات التى تطلب من وراء الأسباب ومن وراء القوانين الطبيعية

ثم استدل بقوله تعالى (ولن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا) ثم قال :

« فهى لا تغير بل تجرى على وتيرة واحدة أزلا وأبداً ولا تصرف عن سبيلها بل تمضى فيه غير مبالية بمن هلك ولا بمن نجا » .

وقد قطع بعض الآية عن بقيتها وعن سياقها ، ليتأتى له تحريفها ،

والاستدلال بها على ما ذهب اليه من الباطل . إن الله لا يخرق السنن الطبيعية ، والنواميس الآلية الميكانيكية جرياً وراء ما ذهب اليه طبيعيو القرن التاسع عشر ، وقرره غوستاف فى آرائه واعتقاده . ولو جاء بالآية تامة مع سياقها قبلها وأراد أن يفهم الحق الذى دلت عليه لما هوى فى تلك الحفرة المادية الدهرية على وجهه

***

سابق الآية ولاحقها وسياقها هو (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً . استكباراً فى الأرض ومكر السيء ، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ، فهل ينظرون إلا سنة الأولين ، فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا . أولم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة ، وما كان الله ليعجزه من شيء فى السموات ولا فى الارض ، إنه كان عليما قديراً . ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ماترك على ظهرها من دابة ، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ، فاذا جاء أجلهم فان الله كان بعباده بصيرا)

فأنت ترى أن الآية فى سياق تهديد قريش لكفرهم ونفورهم من النذير ، واستكبارهم على دعوته ، وأنهم إذا أصروا على كفرهم ومكرهم فلابد أن يصيبهم ما أصاب أمثالهم من الامم الماضية ، فاذا جاءهم ذلك فلن يرده عنهم راد ، ولن يحوله عنهم محول ، وهى كآية (وما منع الناس أن يؤمنوا إلا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قُبلا) وقوله في

ذكر ما أصاب المكذبين من الأمم الماضية (أكفاركم خير من أولئكم؟ أم لكم براءة فى الزبر) وانظر إلى ختام السياق بقوله (وما كان الله ليعجزه من شيء فى السموات ولا فى الأرض) بهذه التأكيدات المتكررة من نفى الشأن مع لام الجحود مع التأكيد بزيادة «من» وتنكير «شيء» فى سياق النفى، وتكرير النفى فى قوله (ولا فى الارض)

فهل يتصور العاقل أن ينقض آخر الكلام أوله، أو هو الفهم المقلوب؛ أو هو المادية الآلية وتقرير آلية الكون ونفى اختيار الله وخلقه وقدرته الشاملة؛ وتسمية ذلك قوة مجنونة أو كالمجنونة؛ والنعق بحماقات لوبون فى آرائه واعتقاداته؛ إذ ادعى أن الخوارق أوهام، وإن نفى تسلسل الأسباب يرجع بنا إلى عصور الأساطير، وإن علم الحياة نقض القول بعلة العلل — يعنى الله تعالى، وان الأنبياء والمؤمنين بهم منهوسون، وان الجنات أمل كاذب، والآخرة وهم باطل الخ

يريد الكاتب أن يمزق الدين رقعاً فيخيط منها ثوبا مهلهلا يلبسه تلك الفكرة الدهرية التى ضحك منها أهلوها وسموها فلسفة أطفال وقوانين جحوية، ونواميس احتمالية.

لو كان لفظ السنة فى الآية يفيد ما يريد الكاتب أن يحملها إياه من أن السنن أزلية أبدية لا تتخلف ولا تتبدل ولا تتغير، لناقض ما دل عليه القرآن من آيات الله تعالى التى أيد بها أنبياءه كآيات موسى وعيسى وإبراهيم وصالح والنبي محمد ﷺ، فيكون القرآن على فهم هذا الكاتب ينقض بعضه بعضاً. وهو ما تولى الله سبحانه وتعالى نفيه عن كتابه بقوله (ولو كان

من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) فكيف ساغ فى عقل الكاتب أن ينفى الله أن تبدل السنن والنواميس أزلا وأبداً فى موضع من كتابه ثم يقول فى موضع آخر (قلنا يانار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم) ويقول (وجعلنا ابن مريم وأمه آية) ويقول (ويكلم الناس فى المهد) (ويبرىء الأكمه والأبرص باذنى ، وإذ تحي الموتي باذني ، وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير فتنفخ فيها فتكون طيراً باذنى) ويقول (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) وكيف شق البحر لموسى ؟ وكيف آتى صالحا الناقة مبصرة ؟ وكيف وكيف وكيف ؟ الخ ماذكر الله عن أنبيائه ورسله وآياتهم وخوارقهم . ولكن الأمر كما قال الله (وماتغنى الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون) (وكذبوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلواً)

فهل يثبت القرآن فى موضع ما نفاه بتاتاً فى موضع آخر ؟ أو يهدم مابناه أو يتعارض ويتضارب فيدل على أنه من عند غير الله ؟ تعالى الله وتبارك كتابه وصدق رسوله وسائر رسله . وكذب الدهريون والماديون ومن جرى فى ركاب بغالهم ليظهر بمظهرهم وإن ضحك منه العقلاء ومن تعلق بهم وهو فيهم ملصق ليس منهم

ثم فسر القضاء بمعنى الفراغ فقال أول ص٢٥٨

« فالقضاء إذن المقرون بالقدر يراد به الفراغ والانتهاء فالواجب علينا أن نؤمن بان الله قد خلق الخلق ووضع النواميس والسنن ثم فرغ منها بحيث لا يحتاج إلى تعديل ولا مراجعة ولا تكميل أو اصلاح أو تدارك . . . وقال فى أول ص ٢٥٩ « فالقضاء والقدر معناها أن الله قد أوجد هذا العالم مقدراً بمقادير مضبوطة محكوماً بسنن لا تقبل التغيير وأنه تعالى قد فرغ من ذلك فراغاً

لا يعقبه تبديل ولا تعديل ولا زيادة ولا نقصان لأن ذلك هو شأن الضعفاء أو الجهلاء أو السفهاء — وتعالى الله عن ذلك .

واعجب من تفسير آية (وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلنّ علواً كبيرا)ص٢٥٧ :

(وفرغ من إنهاء ذلك الى بنى اسرائيل)

فهل رأيت أعجمياً فسرها هذا التفسير فضلا عن عربي كاتب يزعم نفسه مجدداً مصلحاً . واجمع هذا التفسير مع تفسير آية (لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم) ليكون عندك نموذجان من تحريفات الباطنية القرامطة لكتاب الله ليلبسوا منه رقاعا مهلهلة تدل على مامنيت به عقولهم وأفهامهم من سخف . وياليت القوم كانوا أصرح من ذلك وأعقل وعلموا أن دين الصابئة والمجوس ووثنية اليونان ودهرية القرن الثامن عشر والتاسع عشر وحماقات غوستاف لوبون فى آرائه واعتقاداته مناقضة كل المناقضة للحنيفية ملة إبراهيم ومن بعده إلى خاتم الأنبياء محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . فلم يحاولوا الخلط بين ما لا يختلط ، ولا المزج بين ما لا يمتزج ، ولا الجمع بين النقيضين ، ولا القبض على المشرق والمغرب ، فأراحوا أنفسهم وأراحوا الناس معهم ، وكشفوا النقاب عن آرائهم ونحلهم ، فمن شاء وافقهم وشرب من وردهم بلا غش ولا تمويه ولا مكر ولا خداع ، ولكنهم رأوا أن الناس لا يستجيبون لهم بسهولة إذا كشفوا القناع وصرحوا بما يريدون ، فلجأوا إلى هذه المهازل وتلك المضحكات من التحريف والتسخيف .

وما تحريفات أبي زيد الدمنهوري لكتاب الله تعالى من الناس ببعيد ولكن كاتب الأغلال طم الوادي وأتى إلى الدين من أصله يقلعه بمادية دهرية حتى يصبح الناس أحياء متألقة ، وكان الأجدر به أن يتمهل ويتأني حتى ينظر مآل الدهرية الأوربيه ومدنيتهم التي يحطم بعضها بعضا ، كالنار يأكل بعضها بعضا ، وقد أضرمت على نفسها حربين طاحنتين فى ربع قرن ، والشرر يتطاير لإشعال حرب ثالثة ، لا يعلم مدى ضررها وخرابها إلا الله تعالى . كان عليه أن يتمهل حتى يرى عواقب هذه المدنية المادية وماذا يكتب لها من حياة أو فناء ؟ وهل تقوم من هذه النكبات التي انصبت عليها : نساء تعرض فروجها لتسد رمق حياتها ، فتيات يبعن عرضهن بقرص أو قرصين من الخبز الاسود لا يطرد الجوع . وعصابات مخربة ، ومذاهب هدامة

هذا هو ما يدعونا اليه كاتب الأغلال ليخرجنا من نور ديننا إلى ظلمات دهرية مادية سببية تنكر الرب واختياره وتكذب رسله وآياته

﴿ التوكل : أخطاء الناس فيه ﴾

نقل الكاتب بعض أخطاء فيه وسمى أشخاصاً ، ونقل كلاماً لهم تشهيراً وتهجيناً ثم خلص إلى النتيجة التى يريدها من صرف الناس عن الله وعن الثقة به والتوكل عليه ، واحتقار من يؤمن به ويعتمد عليه الى الايمان بالانسانية التى هى كل شىء عنده فقال ص ٢٦٤

« إن الشعوب التى تلقن أنه لا يصح لها أن تعتمد فيما تحتاج إليه على قواها وسواعدها وتلقن أن هناك قوة عليا مستعدة أبداً للقيام بكل مايراد منها استقلالا فما عليها إلا الضعف والاستسلام والانتظار . . .

إن الشعوب التى يقضى عليها بأن تلقن هذه الخرافات والمحالات لهى شعوب غير جديرة بالحياة والاستقلال فى جانب واحد من جوانبها . . ولكن الأمم الجديرة بالكرامة وبالحياة هى الأمم التى تلقن منذ تستطيع الفهم انها إنما وجدت فى الأرض مجردة من كل ما يملك الناس مسلحة بكل أسلحة الجهاد والنضال لتوجد هى حياتها بنفسها ولتعمل كل مايلزم لبقائها وسلامتها وسعادتها وتلقن أن الانسانية بمجموعها هى التى أوجدت هذه الحياة وبنت هذا المجتمع وسخرت كل هذه الطبيعة بعقولها وأهلها دون أن يعينها معين (١) ويشاركها مشارك وأن هذه الانسانية لو أنها انتحت هذا المنحى فى الاتكال وراحت تلتمس من تتكل عليه ومن تكل إلى قوته القيام بما تريد وبما لاتستغنى عنه لظلت حتى اليوم — أى من يوم وجودها — منتظرة مرتقبة ما لاسبيل الى حصوله،

(١) فروع متدلية من قول غوستاف أن علم الحياة نقض مبدأ علة العلل وأن الاله للناس هو الأمل، وأن خيالهم وحرصهم هو الذى أوجد حضارتهم الى ما تراه مبثوثا بصريح العباره فى كتابه الآراء والمعتقدات وكتاب حضارة العرب. واغنى من نقل نصوصه وهذياناته

ولبقيت كاحدى هذه الفصائل الحيوانية أو لانقرضت كما انقرضت فى سالف الدهور الاحياء التى عجزت عن مغالبة الحياة ومجابهة الطبيعة العاتية .

ثم شبه (ص ٢٦٥) المتوكلين على الله بالطفل الذى يلقن أن حوله قوة غالبة عزيزة لا يمتنع عليها شىء ، وان هذه القوة على استعداد لأن تهب له كل مايشتهى فى كل وقت ، وفى كل مكان ، ثم خلص بهذا السؤال : هل من الجائز أن يصنع مثل هذا الطفل خيراً ، وأن يقوى على شىء ، ثم صرح أن الرجل المتوكل على الله شر من ذلك الطفل فقال ص ٢٤٥

ثم ليعلم أن شراً منه ذلك الطفل أو الرجل الذى يعلم هذه التعاليم الاتكالية ويلقن كل هذه الملقنات للاستسلام والانتظار

والجواب سهل جداً فان المسألة لا تخلو من أمرين : فاما أن تكون الدهرية الوجودية الطبيعية التى تنفى الخالق وتصرفه وربوبيته صحيحة ، فيصح تبعاً لها هذا التفريع الكلى الذى فرّعه الكاتب وشرحه ، وأعاد فيه وأبدى ، وإما أن يصح دين الرسل كلهم ودين رب العالمين خالق الناس ومربيهم ومرسل رسله إليهم ليعلموهم الايمان بالله والاعتماد عليه وانه لا حول لهم ولا قوة عندهم إلا منه سبحانه وتعالى وانه (إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده) وانه (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده) وأنه (وعلى الله فليتوكل المتوكلون) وأنه(وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) (فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين) إلى مالا يحصى من الآيات (فابتغوا عند الله الرزق) (إن الله هو الرزاق

ذو القوة المتين) وهذا لا شك صحيح لا يصح إيمان المؤمن بدونه بل هو لب الايمان وثمرة اليقين وملتقى إجماع الرسل والديانات ،وحينئذ تبين أن الكاتب يدعو الى فلسفة دهرية وفكرة إلحادية وشريعة فرعونيه (ما علمت لكم من اله غيرى) (أنا ربكم الأعلى) (وما رب العالمين) (لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذباً) وعند غرق هذا الرب الجاحد لرب العالمين ذهب غروره وكبره وجحوده وطغيانه واعترف صاغراً (آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين) ثم فسر الكاتب التوكل ذلك التفسير الذى هو روح كتابه ومحور دعوته ، وشرحا مبسطا لحماقات غوستاف وهى الأسباب والايمان بها مع الكفر بالله وتعجيزه فقال بعد ما ضرب مثلا بالوكيل الذى ترضاه وتعتقد بأن ما سيقوم به من أعمال وأسباب وما سيضع من وسائل أعمال مؤدية للغاية وأسباب موصلة إلى النتائج ثم خلص إلى ما يريد فقال ص ٢٦٧ س ٦

(وهكذا لننظر الى التوكل على الله فالتوكل الصحيح عليه هو أن تثق ثقة مطلقة فى أن ما وضعه لعباده من أسباب ووسائل لتبلغهم غاياتهم هى أسباب مؤدية الى مسبباتها ونتائجها بلا تخلف . .)

ومثل بالعلاج الصحيح فى أدائه بلا ريب إلى الشفاء والبذر الصحيح فى التربة السليمة مؤد ولا ريب إلى الانبات واختلاط الذكورة القادرة على الاخصاب بالأنوثة القادرة كذلك مؤد إلى وجود الولد إلا أن يوجد مانع من الموانع الطبيعية ثم قال

« وهكذا القول فيما يدعى أسبابا ووسائل ، فكلما ازددت ثقة بهذه الأسباب التى جعلها الله كذلك ازددت توكلا عليه وثقة به وبأعماله وتصديقاً بأخباره حينما أخبر بأن الأسباب موصلة إلى غاياتها ، وإذا شككت فى الأسباب والطرق التى جعلها الله وجوزت ألا توصل إلى شىء فقد نقص توكلك على الله وإيمانك بنظامه وأصيب يقينك بأخباره وأصبحت من الشاكين غير المتوكلين . . . »

إلى أن قال ص ٢٦٨ س ٣

« أما غير المتوكلين حقاً فهم أولئك الذين لا يثقون بسنة من سنن الله ولا بناموس من نواميسه ويجوزون عليهما الاختلال والاختلاف »

فبشرى لفرعون إذ كان من المتوكلين حقا حينما أخذ بالأسباب من جنود وجيش وملأ وركب وسار وراء بنى إسرائيل ليردهم إلى حظيرة عبوديته . وأما موسى الأعزل الهارب ببنى اسرائيل الى شاطىء بحر عميق مغرق ، فضرب البحر بعصاه فانفلق ، وانخرقت له سنن الكون ونواميس الطبيعة ، فلم يعرف التوكل بالشرح الذى شرحه كاتبنا ، وكذلك سائر الأنبياء ابراهيم وهود وصالح وشعيب ولوط . فأعداء ابراهيم لما أوقدوا النار واثقين بها ليلقوا فيها ابراهيم كانوا عند الكاتب خير العارفين بالتوكل وكانوا سادة المتوكلين العارفين بالله

أما ابراهيم الذى قال حين ألقى فى النار (حسبى الله ونعم الوكيل) فكان مثلا طيباً — عند الكاتب — للجهل بالله وبالتوكل عليه ، وكان الذى قال للنار (كونى برداً وسلاماً على ابراهيم) عند الكاتب — قوة مجنونة أو كالمجنونة ، سفيهة فوضوية ، تضع سنناً وتخرقها ، وتعارض النواميس الطبيعية التى لا تعارض ولا تختل أزلا وأبداً

وكذلك موسى حينما دخل أعزل من كل سلاح مادى إلا إيمانه بالله وتوكله عليه ـ على فرعون جبار الدنيا فى عصره بقوته المادية وملئه وجنوده . وكذلك سيد المتوكلين خاتم الرسل حينما خرج لقريش فى قلة من صحابته نحو الثلثمائة إلى نفيرهم العام الذى خرجوا به ليحموا عيرهم حاملة أرزاقهم ومادة حياتهم بقضهم وقضيضهم وخيلهم ورجلهم. الخ

(وبعد) فاما أسباب لاتتخلف أزلا وأبداً ،وما يخالف ذلك فكذب عند الكاتب . وإما رب يفعل مايشاء بسبب وبغير سبب ،ويجرى السبب أو ينقضه أو يبطله كما أخبر بذلك واتفقت عليه رسله وعقلاء الناس

وبالجملة فاما دهرية أو إيمان ، واختر لنفسك ماتطمئن اليه وما ينثلج له صدرك . وكل ميسر لما خلق له .

قال الكاتب خلافا لاجماع المسلمين بل المتدينين بل العقلاء ص ٢٦٨

« لأن التوكل كما ذكرنا هو الإيمان بالأسباب ، لست أريد أن أقول هو الأخذ بالأسباب مع الاعتقاد بأن الله تعالى قد يفعل من غير الأسباب .فان هذا هو السفه والفوضى التى لا ضابط لها . . . ولا شك أن الاعتقاد بأن الله يدخل فى الأسباب ويدخل بينها وبين الآخذين بها فيجعلها حينا أسباباً ،لأنه راض عن الآخذين بها ويجعلها أحيانا أخرى غير أسباب لانه غاضب على الآخذين بها ويجعلها . . . ويجعلها . . . و . . . و . . . و . . . وهكذا يتصرف نقضاً وبناء فى نواميسه وخلائقه ـ على حسب رضاه وسخطه وحبه وكراهته على حسب اختلاف الأديان والمذاهب وعلى حسب تغير مشيئته ، نعم إن الاعتقاد بأن الله هكذا يصنع ينافى التوكل على كل احتمال »

وهكذا يلون الكاتب عقيدته أو دهرية القرن التاسع عشر أوما رضعه

من حماقات غوستاف لوبون : بالألوان المختلفة والحقيقة واحدة ، ومحور واحد تدور حوله الرحا دورات متعددة ، ولا تخرج عن هذا المحور مهما تعددت الدورات : دهرية مقنعة بخرق بالية

ثم نزع إلى حديث المقضى عليه حينما قال حسبي الله ونعم الوكيل ، وقول النبي ﷺ « إن الله يلوم على العجز ولكن عليك بالكيس ، فاذا غلبك أمر فقل حسبي الله ونعم الوكيل » والحديث الآخر « إن الله يلوم على العجز فابذل من نفسك الجهد فان غُلبت فقل توكلت على الله » ثم قوله ﷺ « فان غلبك أمر فقل حسبي الله ونعم الوكيل » شارحا بقوله ص ٢٧٠

(معناه إذا أعطيت من نفسك المستطاع ثم غلبت وجب عليك أن تعلم أنك إنما غلبت بالحق وبالقوانين التى لاتفرق بين من يقعون تحت طائلتها ويحتكمون إليها وإذا كان ذلك كذلك وجب عليك الرضا بالحكم وإن كان غلبا أو هزيمة لأنه عدل ووجب عليك الثناء على الحاكم القاضى وان كان قضاؤه عليك لأنه عادل غير محاب ولأنه عالم غير جاهل ووجب أن تقول حسبي الله ونعم الوكيل)

وعلى هذا التفسير فعلى كل مظلوم فى حكم أن يثنى على قاضيه ويرضى بالحكم مهما كان، إذ أن الرسول ﷺ قد علم المغلوب على أمره أن يقول حسبي الله ونعم الوكيل التى هى بحسب تفسير الكاتب : الرضا بالحكم والثناء على الحاكم ، فياسفاهة الذين وضعوا محاكم الاستئناف والنقض والابرام ، وقضاة فوق قضاة لنظر شكاوى من لم يرضوا الحكم الأول ويروا أنهم مظلومون ، فقد فسر لهم الكاتب ما أمرهم النبي ﷺ أن يقولوه عند الغلب « حسبي الله ونعم الوكيل » بالرضا بالحكم والثناء على

الحاكم ، وإذاً فلا قضاة ظلمة ولا محكوم عليهم بظلم ، وما غُلبوا إلا بالقوانين العادلة والقضاء العدل الذى يجب الثناء عليهم وتقبيل رءوسهم وأيديهم وأرجلهم من مظلوميهم . وفى الحديث الصحيح « إنما أنا بشر أقضى بنحو مما أسمع ، فمن قضيت له من أخيه بشىء فانما هو قطعة من النار فليأخذ أو فليدَع » وفى القرآن فى قضاء داود فى الغنم والحرث قوله تعالى (ففهمناها سليمان)

ولكن هذا التحريف المضحك المبكى سببه الانحراف عما يعرف الناس من أوضاع دينهم ومحاولة إطفاء الشمس واستبدال فتيلة بها ، بل دعوة الناس إلى ترك شمس الدين وضيائه إلى ظلمات الدهرية المادية ؛ والأسباب والمسببات الصارمة والنواميس الطبيعية المطردة أزلا وأبداً ، ووصف الله بقوة مجنونة أو كالمجنونة سفيهة فوضوية إذا تحكم فى الأسباب أو أبطلها — عند الكاتب

قال ص ٢٧٠:

(وأما قول صاحب الناقة أطلقها وتوكلت فانه يذهب فى هذا القول وهذا العمل إلى أن معنى التوكل هو الاستسلام وترك الحيطة والعقل مؤملا أن يفعل الله مايشاء وأن ينزل من أجل ناقته جبريل وميكائيل فى يد أحدهما خطام وفى يد الآخر عقال ليحفظا له الناقة من الضياع والهرب (١) فرد عليه الرسول هذا قائلا (أعقلها وتوكل) مبيناً له أن الاتكال معناه الأخذ بالوسائل مع الاعتماد عليها وعلى انجاحها ومبيناً له أن من سلك الطريق لزم أن يطمئن وألا يخشى من وراء

(١) وتأمل ما فى الكلام ولا يؤذينك مافيه من رائحة الهزء بملكين كريمين من خيار ملائكة الله جبريل وميكال وحط من قدرهما وعملهما فى ملكوت الله

الاسباب جوراً ولا عدواناً كأن يهاجم ناقته المعقولة روح من الأرواح أو عفريت من العفاريت أو شيء آخر خفي من الأشياء الأخرى الخفية[1] . . أو كان يصنع الله بناقته بعض الأشياء التي يزعمون أنه يصنعها خروجاً على السنن والاسباب والعادات بقصد الامتحان أو الابتلاء . . . وهذا ما يشير إليه قوله (وتوكل) أي اطمئن وثق بالنتيجة ما أخذت بالحيطة الكامله)

وختم الباب بهذه النتيجة آخر ص ٢٧٠ وأول ص ٢٧١

(وإذا مافهم التوكل كهذاالذي ذكرنا كان قوةمن أعظم القوى وكان مهمازاً يسوق الانسانية أعنف سوق إلى العمل وإلى إفراغ الجهد كله ،وكان قاطعاً لدابر الكسل والركود والاتكال انتظاراً لما وراء الأسباب ولما في الغيب مما لن يجيء ومما ليس في الحسبان والتوكل بهذا المعنى هو روح الانسانية ومتى زايلها فقد حانت وفاتها وهو بهذا المعنى روح الأديان وروح الاسلام)

وقبل أن نتكلم على النتيجة الأخيرة نسألك : هل تنبه فكرك إلى ما افتراه على صاحب الناقة مما لم يدر بخلده من أمله في نزول جبريل من السماء بزمام وميكائيل بعقال ليحفظا له ناقته ، ولو حلفت بالله أن هذا الخاطر لم يخطر ببال هذا الأعرابي لرأيت أني صادق ، ولكن الهزء بعالم الغيب من الله وملائكته عند الكاتب لا حد له ينطلق اليه بمناسبة وبغير مناسبة كما حمّله هنا لخاطر هذا الاعرابي صاحب الناقة الذي ظن أن التوكل يكفي بدون أسباب — وكثيراً ما كان يكفي عند مايريد الله

---

(١) ولعل الكاتب لا يصدق ماحكى الله في قصة عرش بلقيس (قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر ام أكفر) الآية

خرق سننه لتأييد رسله وكرامة صالحيه

وأما أمل الأعرابي فى أن الله يفعل مايشاء فى حفظ ناقته مما يعرف ومما لايعرف ؛ فأمل صحيح ، فلله أن يلقى السكينة على مشاعر الناقة فلا تقوم ولا تهرب ، ولله أن ييسر من خلقه الانس أو الجن من يحفظها للأعرابي حتى يعود وإن تهكم الكاتب المادى الدهرى بذلك وبالأرواح الخفية ، وبالأسباب الغيبية ؛ وأفعال الله بأسباب ظاهرة وغير ظاهرة ؛ وبغير أسباب بالكلية بل بقدرته ، فسنرجىء البحث معه فيها إلى مابعد

وتفسير الكاتب لقول النبي ﷺ له « اعقلها وتوكل » بقوله « فاطمئن وثق بالنتيجة إذا ما أخذت بالحيطة » افتراء على مراد سيد العقلاء وخاتم المرسلين ، فكم من صاحب ناقة عقلها ولم تحصل الطمأنينة ولا الثقة بهذا السبب ، وكم من النوق تنفك عقلها بنوع من حركتها ، ومحاولات سهلة منها لذلك وتنطلق هاربة ، والواقع شاهد عدل ؛ ويتعالى مراد النبي ﷺ فى قوله « وتوكل » عن هذا التهافت الذى يحمّله إياه الكاتب . وإنما النور الظاهر من هذا التعليم النبوى فى هذا أن يثق صاحب الناقة بعد عقلها بالله تعالى القادر أن يجعل هذا العقل مفيداً مؤديا ماقصد منه فلا تحاول الناقة الانفلات منه ولا يتسلط عليها مخلوق من شياطين الانس أو الجن فيحل العقال ؛ وهكذا نشرب الدواء ونعتمد على الله أن يجعله نافعاً ونبذر البذر مراعين مايلزم بحسب طاقتنا العلمية والعملية معتمدين على الله أن يكمل نقصنا وأن يتمم مافاتنا بجهلنا ، وأن يدفع الغوائل والعوائق التى نعلمها والتى لانعلمها عنه حتى ينبت ويقوم على ساقه ويثمر ،

وهكذا فى كل شىء له سبب أو لاسبب له نعرفه أونعرفه معرفة ناقصة

ونسأل الكاتب سؤالا نرجو جوابه بلا بهت ولا مكابرة : هل عرف الناس جميع أسباب الأشياء وجميع عوائقها معرفة قطعية لا خلاف ولا نقص ولا شك فيها ولا انتظار لمزيد عليها ، أم هى اجتهادات وتخمينات تمسك الناس بها أمس وقد يرفضونها اليوم أو غدا ؛ والكاتب يعترف أنهم لايزالون يجهلون سر الحياة ويحاولون فهمه . فهل على الناس عيب إذا توكلوا على الله واعتمدوا بقلوبهم عليه بعد أن يعملوا مايعرفون من الأسباب على قدر طاقتهم ومبلغ علمهم

ثم نسأله سؤالا آخر : هؤلاء الفاشلون فى نضال الحياة سياسياً أو حربياً أو اقتصاديا ما سبب فشلهم ؟ والأمثلة كثيرة فى الناس : نابليون وهتلر وموسلينى حتى تشرشل الذى يتغنى الكاتب بعبقريته ، لا يزال يتكشف للناس الغلط تلو الغلط فى سياسته ؛ وتشير إلى ذلك صحف أمريكا ويلخصها أعداد المختار من حين إلى حين كعدد يولية ١٩٤٧ فى مقال (فصل خفى من التاريخ) وكقول محمد التابعى فى أخبار اليوم (أول يونية) : « إن روسيا تسيطر الآن وهذا بفضل أخطاء سياسة تشرشل الشنيعة أثناء الحرب على معظم وسط أوربا وجنوبها الشرقى ، وفى وسط هذا القسم الكبير المهم من أوربا تقوم اليوم حكومات شيوعية تصدع بأوامر روسيا »

ما هو سبب فشل هؤلاء الفاشلين وهم لم يألوا جهداً فى إنجاح أنفسهم ؟ إن قال : القدر وسلطته الغيبية فهذا هو المطلوب ، وإن قال :

جهلهم بأسباب النجاح وسلوكهم بغير قصد غير طريقه فهو المطلوب أيضا فلا عيب حينئذ على المؤمنين بالله فى توكلهم على علام الغيوب بعد بذل الجهد فيما يعرفون ليكمل نقصهم فى العلم بالأسباب ؛ ويقوى ضعفهم فيما ضعفوا فيه منها ؛ ويمدهم بالعون والتوفيق والهداية والالهام ، ويقوى هممهم فى ذلك .

وسؤال ثالث : لماذا يفشل أفراد وأقوام فى الحياة وينجح آخرون هم أقل من أولئك علماً وعملا وقوة ومعرفة بأسباب النجاح ؟ فان أراد أمثلة من الأمم فخذ مصر واليمن وبلاد العرب والشام والعراق وإيران ، ثم ضع القسطاس المستقيم لعلم كل واحدة منها وعملها ومعرفتها بأسباب الحياة وطرقها ، ثم علل استقلال المستقل منها وفشل الفاشل عن الاستقلال فيها ، كاليمن وبلاد العرب فى جانب ، والأخرى فى الجانب الآخر

ولا نريد تعليلا سخيفا كتعليل الكاتب فشل علي بن أبي طالب وانهيار جيوشه بسبب دينهم ، ونجاح معاوية وجنود الشام بسبب قلة دينهم ، فهذا تعليل سخيف لم يسبق الكاتب اليه عاقل فيما نعلم ممن كتبوا التاريخ بعلله وأسراره ، اللهم إلا إذا كان أمثال غوستاف لوبون وأمثاله أصحاب الفلسفة المادية الآلية الطبيعية التى يضحك منها اليوم عقلاء القرن العشرين ؛ ويعلنون الاعتراف بالقدر وعالم الغيب ، والتصرف الالهى الذى يسخر الكاتب منه ومن المؤمنين به . والواقع والتاريخ ووقائعه قضاة عدل وشهود أثبات ونزاهة لما قلنا.

وسؤال رابع : لماذا فشل الكاتب فى الحصول على ثمن بيت بمصر

بمبلغ ٥٠٠٠ جنيه ممن طلبه منهم حتى رموه بالجنون والحمق : أهو القدر الذى قلوب الخلائق بين أصابع مقدره ؟ أم هو جهله بأساليب الحياة الذى كان يجبره ويكمله استخارة الله قبل الطلب ثم الاعتماد عليه والتوكل والدعاء فى إنجاح الطلب ؟

هذا أم الحرمان من القناعة والزهد وعدم الرضا بما قسم الله حتى هوى فى حفرة الذل والتسول فأذل نفسه بسؤال مالم يجيبوه اليه وحمقوه فيه واسترذلوه ؟ ولقد سأل أقوام دون الكاتب مطالب أكثر مما طلب فنجحوا فيما فشل فيه ، أليس هو القدر الذى أفشله فيما أجيب أمثاله ممن هم دون الكاتب عند نفسه علماً وأدبا وفضلا ، فلماذا فشل ونجحوا ؟

سأرجىء البحث فيما ذكر من حب الدنيا وفى الزهد فيها وما موهه من آراء وما حرّفه من فهم الآيات ، وما شوه به الدين من آراء . إلى فرصة أخرى إذ يحتاج ذلك إلى بسط وتفصيل

وكذلك فى مسألة اختلاط الرجال بالنساء ومدح التبرج والعرى ، والاعتذار عن الفسوق والفجور والآراء الهدامة الشاذة كقوله ص ٩٨

(ان النساء شقائق الرجال وأنهما سواء فى هذه الحياة وفى القدرة عليها ، والحاجة اليها ،وفى أعمالها ومطالبها ، وأن مافيهما معاً من أعضاء وغرائز وميول متشابهة متساوية من عقل وفكر وروح وحياة وتكوين عام ليناذى بسقوط هذه الفروق المدعاة بينهما ، فان ذلك تفريق بين متساويين متماثلين ،وهذا باطل فى قانون العقل وقانون العدالة العامة بل وفى كل القوانين حتى القوانين الطبيعية العمياء)

ولا أريد أن أرد عليه فيما ادعى من المساواة بين الجنسين وعدم

الفرق بينهما عقلا وقانونا حتى لدى القوانين الطبيعية العمياء بقول الله (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله به بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) (وللرجال عليهن درجة) ولا باستدلال الرسول على نقصان عقل المرأة بأن شهادة اثنتين منهن بشهادة رجل، وبقعودها عن الصلاة والصيام وقت حيضها ونفاسها — لا أستدل عليه بذلك إذ لا يؤمن به وإن آمن بلفظه حرفه بما رأيت من غرائب التحريف البربرى الأعجمى حتى يجره على وجهه إلى ما تردى فيه من تهتك وإباحية؛ وإنما أترك الكلام للواقع والمشاهدة؛ وعلمى (النسيولوجيا) منافع الأعضاء (والبيولوجيا) علم الحياة، فهى أعقل من الكاتب وأعرف بخلق الرجل وبدنه وأعضائه وغرائزه، وبالمرأة، وكلامهم فى هذا مبسط مبين؛ وأنا مللت الكتابة والنقل؛ وسأرجىء ذلك إلى فرصة أخرى

(وبعد) فهل يحيض الكاتب ويحبل ويُرضع؛ وهل له مبيضان لتوليد البويضات الجنينية ورحم لنموّ الجنين فيه وثديان لإرضاع المولود؟ وهل يرقص ويتكسر؟ ولا أسأله عن الطبخ والغسل والخبز، وسكنى البيت وتدبيره وتربية الأطفال وغسل ثيابهم وأقذارهم، وغسل الثياب وكيها. وبالجملة ما تقوم به زوجه فى داره، وسائر النساء فى دورهن فضلا عما اختصصن به من أعضاء الحمل والولادة؛ فلعله يقوم بذلك بدل زوجه. وهل زوجه كتبت كتاب أغلاله واتصلت بدعاة التبرج وجالستهم؟ لا أظن ذلك فيها ولا أظن قدرتها على ذلك. فضلا عن فقد أعضاء الذكورة وما اليها. فالرجال رجال والنساء نساء مهما تلونت الحياة

وللقارىء أن يحكم على قوله بما يستحقه من وصف التعقل والهدوء أو التهور وعدم الاتزان . ذلك قوله آخر (ص ١١٠)

(ولعل إلزام المرأة البيت للاسباب المذكورة) أي صيانة لهن من الخلطة بالفجار (لايقل سخفا عن هذه العملية الوحشية الشنيعة) عملية اخصاء الذكور الذين يخدمون النساء « للاسباب المذكورة أيضا »

ثم ضع هذه وما معها قبلا وبعداً بل الفصل كله — مع قول الله تعالى لأطهر نساء العالمين زوجاته ﷺ أمهات المؤمنين (يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا . وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله . إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) واحكم أيهما أزكى وأهدى سبيلا وأقوم قيلا وأصدق حديثا : آلله أم صاحب الأغلال

لقد كانت ابنة الشاطىء وهى امرأة مثقفة وسيدة مهذبة ، أعقل من صاحب الأغلال، وأوسع علماً وحكمة حينما بينت فى هلال يونية ١٩٤٧ سخف تسوية المرأة بالرجل وسفه ذلك فى مقال عنوانه « عدل لاخير فيه » فى مقال طويل ممتع مملوء بالبراهين الواضحة نقتطف منها ما يأتي . فانها بعد أن ذكرت حجج من يدعون نصرة المرأة ثم سألت وأجابت : ماهذه المساواة المرجوة بينهما : أمساواة فى الخلقة والتكوين ؟ محال . أمساواة فى الشخصية ؟ مسخ وانحراف . أمساواة فى العمل ؟ خلل واضطراب . أمساواة فى الأعباء والمسئوليات ؟ ذلك هو قرار قانون الحياة من أول

الزمان . أم مساواة فى الحقوق المدنية فهو حاصل وأيده الاسلام حين قرر للمرأة حق التعامل ، واعترف بشخصيتها المدنية ، وجعل لها نصيبها العادل من الحقوق المالية والواجبات (قلت) والمواريث

ثم ذكرت أن المساواة بمعناها المطلق لاتوجد حتى بين أفراد الرجال أنفسهم — وضربت أمثالا كقبول بعض الطلاب فى بعض الكليات العلمية ورفض آخرين لتفاوت تافه شكلى كنمرة فى مجموع الدرجات أو قيراط فى الطول والعرض ، أو سبق ولحق بيوم واحد فى العمر والسن فيصبح هذا رئيساً وهذا مرءوساً . بل اختلاف فى مواهبهم :هذا صانع وهذا مهندس وهذا قاض ـ محام ـ طبيب ـ تاجر . ولو طالبوا جميعاً بحق المساواة المطلق لاضطرب الأمر واختل النظام

ثم قالت : وهل الأمر بين الرجال والنساء إلا مثل هذا أو شبيه به أو قريب منه : لكل حرفته التى يصلح لها ، وعمله المناسب لشخصيته ومواهبه . ولو خلينا المرأة — باسم المساواة — تتخلى عن عملها فى البيت وتدع حرفة الأمومة لتنطلق فى ميادين الرجال صانعة أومهندسة أوتاجرة أو موظفة بشركة لأنها إنسانة آدمية لكان مثلنا مثل من يوجه الرجال جميعاً نحو ميدان واحد دون نظر فى مدى حاجته اليهم أو تقدير لحاجة الميادين الأخرى اليهم .

اللهم انى لا أجد فرقا بين اشتغال النساء بالأمومة واشتغال الرجال بالصناعة والتجارة والسياسة إلا كما بين توزيع الأعمال بين القضاة والعلماء والمهندسين والأطباء والموظفين والصناع . هى مسألة تنويع أعمال وتوزيع

كفايات ، واستثمار مواهب ، واستغلال قوى ، وانتفاع بمقدرات . ولا ظلم ولا تعسف ولا أثرة ولا بغية استعباد كما زعموا

قالت : فان أبوا إلا أن يسموه ظلما فالمسئول الأول عن هذا الظلم هى الطبيعة الأولى(١) التى فرقت فى الخلقة بين الرجل والمرأة بل بين الرجل والرجل ، والمرأة والمرأة . الطبيعة التى جعلت فى كيان الأنثى مكان الولد ، وفى ثدييها النبع الالهى لغذائه ، وفى خُلقها الصبر على تكاليف تربيته وحضانته ، وجعلت فى الرجل خشونة المقاتل وقوة المكافح وجَلد الصياد . الطبيعة التى لم تخلق قط المساواة المطلقة بين أى اثنين من الناس ولو كانا توأمين ، ولم تخرج قط من مصنعها مثلين متساويين وإنما وزعت المواهب وفرقت الكفايات ، لتضمن صانعاً لكل حرفة ، وعاملا لكل عمل ، وبطلا لكل ميدان . هى المسئولة عن هذا الظلم وهى خصمنا الواحد ، فان شئنا أن نطالب بالعدل وتحقيق المساواة بين الجنسين فلن نجد حَكما نختصم اليه لينصفنا من الطبيعية الظالمة ويحكم لنا عليها وهيهات هيهات . فما كانت أحكام الطبيعة بالتى تستأنف أو تنقض أو تعقب . فليصيحوا أن المساواة بين الجنسين عدل وحق ، وليضجوا من ظلم الطبيعة وتفريقها ، فلن يجدى الصياح ولن تنفع الشكوى

---

(١) تريد الكاتبة بالطبيعة فطرة الله التى فطر عليها خلقه وقدره السارى فيهم النافذ عليهم وأما وصفها بالظلم ونحوه فتتكلم بلسان الخصوم لتلزمهم الحجة من كلامهم على حد تعبير الخليل فى محاجة عباد النجوم للكوكب والقمر والشمس (هذا ربى) من غير اعتقاد لذلك .

هبوا المستحيل قد كان واستطاعت المرأة أن تقوم بهذا العمل أو ذاك مما قام به الرجال فهل ترانا ندخل الرجل إلى البيت ليحترف الرضاعة والحضانة والتربية مما قامت به الأنثى من عهد حواء أم ترانا نترك البيوت معطلة خلاء ؟ أسئلة لا تنتهي وما أحسبها تنتهي فنسأل : أى خير فى ذلك العدل ؟ ولمصلحة من هذا الانقلاب ؟ أمصلحة المرأة وقد كانت بأنوثتها من القلب الحبيبة الشائقة ،والملهمة الفاتنة والسيدة الحاكمة ،تعنو لها جباه الملوك وترنو إليها أبصار الفرسان ،ويتخذها الرجل فى بيته حرماً مصونا لا يمسه الغبار ولا تجرحه الأعين ، ولا تناله الأيدى ولا تتطاول اليه الأعناق. أم مصلحة الرجل وسيفقد فيها موضع حبه ، ومثار فتنته ، بل سيفقد سره الأكبر الذى يغريه بالكفاح ، ويهون عليه مايلقى فى موكب الحياة ، ليرى إلى جانبه ذلك المسخ الجديد الذى يثير الرحمة ويبعث على الرثاء ؟ أم هى مصلحة الجماعة وسوف تحرم بهذا الانحراف — إن حصل — بيتها السعيد يتكامل فيه الجنسان ويتعاون الزوجان على حمل الأمانة العظمى ، لترى مكان هذا البيت نزلا كئيباً يأوى اليه رجل مجهد محروم وزميلة له شقية تعسة قد أنهكها جهاد لم تتعوده وأرهقها عمل لم تتهيأ له

ألا إن فى المساواة معنى من العدل لا خير فيه أو هكذا تراها الانسانية . أما الطبيعة فتراها وهماً من الأوهام . وأما المرأة التى مزقوا حجابها وأخرجوها من بيتها فتراها لوناً من الظلم لا مساواة فيه .

(بنت الشاطىء : من الأمناء)

انتهى مانقلته ملخصاً من هذا المقال القيم المدعم بالحجج العقلية

المنتزعة من طبيعة الوجود وحقيقة الواقع وعلم النسيولوجيا والبيولوجيا. ولا يسوأنك ماذكرت الكاتبة مكرراً من لفظ «الطبيعة» وظلمها ونحوهما فهى ترد باطل المدافعين عن تبرج النساء بلسانهم وتعبيراتهم لا بلسان الدين وعباراته

ولها كلمة أخرى فى آخر مقال «الاسبانيات فى المدرسة والبيت» فى هلال ديسمبر سنة ١٩٤٧ قالت

« ألا ليت قومى يعلمون أن المرأة الغربية لم تترك بيتها راضية ، ولم تحترف عن رغبة وهوى ، وإنما أُخرجت من البيت تحت ضغط عنيف من ظروف سياسية واقتصادية واجتماعية قاهرة ، واحترفت عن حاجة واضطرار ؛ وهى بعد لا تزال تحن إلى البيت الذى حُرمت منه ، وترى فيه نعيمها المفقود وحلمها الجميل

« ألا ليتهم يعلمون أن فى الغرب مذاهب سياسية واجتماعية نأت بالأنوثة عن صخب المعترك السياسى وغبار الطرقات وشذوذ المساواة ، وأبقتها فى دنياها موضع العزة وجمال البيت وصانعة الأبناء وأنثى الحياة» اه

ولو كان هؤلاء الدعاة إلى الدعارة والفجور واختلاط الجنسين يكفيهم قال الله تعالى . قال رسوله ﷺ . قال العلماء — لما احتجنا إلى كل هذه التطويلات من كلام أهل العقل والتجربة ومقررات علم منافع الأعضاء

وفى قولها فى وصف لبن الأم بأنه النبع الالهى لغذاء الطفل وكذلك استشهادها بما أقرته الشريعة الاسلامية من حقوق المرأة المدنية ،ودفاعها عما قرره الدين والفطرة والعقل من صيانة المرأة وحجابها — دليل إيمان

الكاتبة وعقلها ، وحبها للفضيلة والخلق الكريم ، على خلاف ما دعا اليه كاتب الأغلال من تبرج المرأة واختلاطها بالرجال وما يتبع ذلك من فسق وفجور وانحلال ، عمياً عن آداب الديانات والشرائع وقوانين الفطرة والحياة والوجود ، ودعائم الأخلاق والحشمة والعفة ، وما جره التبرج والفجور والاختلاط مما يندى له جبين المروءة والحياء والخلق الكريم

ولقد حدثنى وجيه جدة وفاضلها الشيخ محمد نصيف عن سفير إيطاليا بها أنه قال له : أحب من دينكم أمرين :

(١) تحريم اختلاط الرجال بالنساء (٢) تحريم الربا

وقال السفير : كيف أثق بامرأتى تذهب مع شاب صديق أو خليل لها فى رحلة إلى جبال الالب عدة أيام أو أسابيع : شاب مكتمل الرجولة والفتوة والحيوية ؟ ثم مدح تحريم الاسلام للربا وحثه على إقراض المحتاج وإمهاله بدون قصم ظهر معيشته بالربا

قال الوجيه : زوّج أحد اللوردات بنته فوُجدت بكراً فشكرها أبوها على محافظتها على بكارتها وقدم لها هدية لذلك . فضربت على عجيزتها وقالت له : اشكر هذه فهى سبب حفظ هذا .

وذكر لى أحد المختلطين بالانكليز عنهم أنهم لا يعرفون بكارة البنت ويقولون هل تعرف بكارة للشبان فتعرف بكارة للفتيات ؟

وذكر أن امرأة سفير فرنسا كانت تعشق سكرتير السفارة فكانت تخلو به فى حجرته فاذا طرق السفير عليهم أجابت ارجع فسآتيك تعنى بعد الفراغ من خلوتها بخدينها . فهل هذا ما يدعونا اليه كاتب الأغلال ؟

وتهكم الصاوى الكاتب فى أخبار الدنيا تحت عنوان هل صرنا أقل من الصين ؟ حينما منعت الرقص المزدوج ، فتهكم بغيرة الأزواج الذين يرون زوجاتهم تتنقلن من ذراع خدين إلى ذراع آخر وهن مخمورات بخمرة الهوى وخمر المدامة . فأى إنسانية هذه ؟ أم هى حيوانية المدنية المادية الدهرية الفاسقة الفاجرة التى انطلقت من كل حياء وحشمة وخلق إنساني .

إن تعليم المرأة الكتابة والقراءة والمطالعة فى كتب الدين والأخلاق وشيئا من قوانين الصحة وتدبير المنزل ومبادىء العلوم مع الحشمة وعدم الاختلاط ، أمر لا يجادل فى حسنه وطلبه ووجوبه عاقل . أما فن الرقص والغناء والاستحمام المختلط على الشواطىء ، دع زيارة المسارح والسينمات والمواخير والخلاعة والمجون . فهذا فلينصح به كاتب الأغلال لمن يحب ، وعليه أن يبدأ به فى بيته وذويه ليقتدى به المعجبون به وبعبقريته ونبوغه كمن ناصروه فى صحف مصر وأطروا كتابه

وقد أبان معالى عشماوى باشا فى حديثه مع مراسل الأمانة (شعبان ١٣٦٦) حيرة العقلاء فيما وصلت اليه حالة المرأة المتعلمة إذ يقول «أم أتكلم فى مشكلة المرأة المثقفة وقد وقفت عند مفترق الطرق بعد أن تهيأ لها إعداد مضطرب ارتجلناه بغير غاية معروفة أو رسالة مرسومة »

***

يريد كاتب الأغلال فى كتابه (ص١١٩) أن يصور الرسول الكامل فى جسده وروحه ، فى قواه البدنية والخلقية والروحية إنسانا فاتر الجسم

واهى القوى بليد الهمة صوفياً هندوسياً ، أو راهباً نصرانياً ، فيستبعد عليه تفوقه فى القوى الجنسيـة ويظنها منافيـة لما بعث له من جـلائل الأعمال . ولعله تأثر فى ذلك بما كتبه المضللون المغرضون من دعاة النصرانية فى رميهم للنبى الكريم بأنه شهوانى ، ولكن الله الذى أكمل خلق رسوله وخُلقه وجسده وروحه أعلم منهم ومن كاتب الاغلال بما فطر عليه نبيه من التفوق فى كل كمال بدني وروحى إذ يقول (يا أيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك ، وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى إن اراد النبى أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين) فهذه الاباحة للزواج التى لا حد لها من رب النبي وخالقه لا تكون عبثاً ولا لغواً إلا عنـد من لا يؤمن بالقرآن ولم يعرف الرسول ولا رب الرسول

وعهدنا بالكاتب فى كتابه ذم التجرد والزهد والمعنويات والمرض وتقديس القسوة والمادة والصحة والعافية وما اليها ، فما باله اختار هنا للرسول ما هجنه واستقبحه ، وباعده عما دعا اليه وألف كتابه له ؟ وعقلاء الناس على خلاف الكتاب يرون أن كمال القوة الجنسية والنزعات الجسدية والشهوات البدنية ، لا تتنافى مع سمو الأخلاق وعظمة العظماء ، وبطولة الابطال . وها هو ذا (جون سيتوارت ميل) الانكليزى يقول فى كتابه « الحرية » تعريب طه السباعى باشا (ص١٠٢)

« إن الشهوات والنزعات ليست إلا جزءاً متمما وركنا جوهريا من

صفات الانسان الكامل شأن الروادع والمعتقدات كحذوك النعل بالنعل .
وليس يخشى من طغيان النزعات إلا عند اختلال توازنها ، أعنى عند ماتشتد طائفة من الميول والأغراض مع بقاء غيرها مما كان يجب أن يجاريها فى القوة ضعيفاً معطلا . والسبب الحقيقى فيما يقترفه الناس من القبائح ليس قوة الشهوات ولكنه ضعف الضمائر . وليس هناك تلازم طبيعى بين قوة الشهوة وضعف الضمير ، بل الأمر على عكس ذلك ، فانك إذا وصفت امرأ بالتفوق على غيره فى قوة العواطف وتنوع الشهوات فكأنك تسلم بأن نصيبه من مواد الفطرة البشرية أوفر وأجزل ؛ فهو لذلك أقدر ولا شك على عمل الخير وإن يكن أقدر على ارتكاب الشر ، وما قوة النزعات إلا اسم آخر للنشاط والهمة وقد تصرف الهمة إلى فاسد الاغراض ؛ ولكن لا مشاحة فى أن الطبيعة الموصوفة بالهمة والنشاط هى أبداً أقدر على جلائل الامور ومحاسن الافعال من الطبيعة الموصوفة بالبلادة والجمود وان توقد الاحساس الذى هو مصدر قوة العواطف وحدّة النزعات لهو أيضاً مصدر أشد ما يعرف من حب الفضيلة وأبلغ ما يوصف من ضبط النفس . ولن يستطيع المجتمع أن يؤدى فروضه ويصون مصالحه إلا بتربية قوة الاحساس هذه وإذكاء جمرتها

ولا عجب فما هى إلا المادة الخام التى منها تصور طبائع الابطال وتصاغ نفوس النوابغ فكيف يوفق المجتمع إلى غرضه إذا نبذ هذه المادة جهلا منه بطريقة الانتفاع بها وتصوير الابطال منها . إن الشخص الذى تكون شهواته ونزعاته خاصة بنفسه معبرة عن طبيعته جدير أن يكون من

ذوى الاخلاق . أما الذى لا تكون شهواته ونزعاته على هذه الصفة من الاستقلال فليس له من الخلق إلا مقدار ما يكون للآلة البخارية . فاذا كانت عواطف المرء قوية فضلا عن كونها مستقلة ثم كانت له إرادة حازمة تتسلط على شهواته وبصيرة ثاقبة تتصرف بعواطفه فهو من ذوى الأخلاق والعزيمة ؛ وكل من يزعم أن استقلال الشهوات والنزعات غير جدير بالتنشيط فانما يقول بأن المجتمع ليس بحاجة إلى قوة الشكيمة ، وشدة المراس ، وأنه لا يستفيد خيرا من ذوى الأخلاق الكبيرة ؛ وأن علو الهمة ليس من الحسنات المنشودة »

انتهى كلام هذا العالم الاجتماعى الأخلاقى الانكليزى ، وهو جدير بالاعتبار وهو شهادة عدل على صحة ما جاء فى الاحاديث الصحيحة مما اختص الله سبحانه رسوله ﷺ وهو المثل الكامل من كمال خَلقه وخُلقه وقوة عواطفه وسجاياه البدنية والروحية إذ يقول « حُبب إلىّ من دنياكم الطيب والنساء ، وجُعلت قرة عينى فى الصلاة » فجمع له بين كمال البدن والروح . ويقول « لكنى أصوم وأفطر وأقوم وأنام وآكل اللحم وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى » وقيامه بحقوق أزواجه وإعفافه لهن وهن يزدن على تسع أمر لا يشك فيه مسلم . وإباحة الله له ماشاء من النساء وما دلت عليه الاحاديث من قوة بدنه وروحه ، وما اختص به من تفوق القوة الجنسية : تكتسح ظلمات الكاتب وما استند اليه من شعر الأخطل وخطله وتجنيه على علم النفس والاخلاق ، وخوضه فيما لايحسن سباحته لينتقص ما حبا الله به نبيه ﷺ من كمالات جسدية

وروحية ليتم له ما رمى اليه فى كتابه من إنكار فضل الله على خلقه واختصاصه من شاء منهم بما يبدد أوهام المادية الدهرية العابدة لحتمية الأسباب ، الجاحدة لآيات الله الخارقة لنظام الطبيعة المرغمة لأنوف عبادها

وإن أعجب لهوس الكاتب لتلك الخيالات التى رد بها ما اختص الله به نبيه من قوة البدن والعواطف والتفوق الجنسى ، فعجبى أشد من استدلاله على ذلك بحديث « كان إذا دخل العشر شد المئزر » فهذا هو الغباء أو الهوى : سحب حكم عشر من الدهر على أيام الدهر أو الحكم بثلث شهر على ١٢ شهراً ، أو رد عدة أحاديث مشتهرة صحيحة عند أهلها بمفهوم خاطىء مخطىء لحديث شد المئزر . ثم الوقاحة والسفاهة برمى حفاظ الأمة وأمناء الشريعة بالهوس الجنسى . الى آخر ماسمح به أدبه معهم

وهذا الكاتب الاجتماعى الانكليزى — وكاتب الاغلال يطرى الانكليز فى كتابه ويتغنى بفضائلهم — قد قرر ما نقلناه عنه فهل يلحقه فى رميه بالهوس الجنسى بمن رماهم به من حفاظ الاسلام ورواة الاحاديث أو يجبن ويتخاذل عن ذلك ؟

أحب أن أسمع مايقول فيه إن كان عنده شجاعة علمية أدبية حتى نعرف أن الكاتب ثائر ناقم على كل حق حيثما كان وأينما وجد . والذى يظهر لنا أنه جن فى رد كل ما هو إسلامى دينى ليخيط بدله مزقا دهرية لوبونية طبيعية .

وقد سمعت قرار الفكر الانكليزى فى المسألة فاسمع خلاصة أمريكية فى ذلك حتى تسمع تأييد الاسلام من شرق الارض وغربها كما قال الله

تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك انه على كل شىء شهيد) (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المجرمون)

أما الأمريكى فهو مؤلف كتاب (الانسان ، ذلك العالم المجهول) وهو حائز جائزة نوبل فى العلوم الطبية ، وقد لخص المختار مقاله ، وهو أعرف وأوثق معرفة بقوى الانسان ومنافع أعضائه اذ قرر ان إفراز الخصيتين الداخلى فى الدم مما يقوى العقل، وأن العظماء من القواد والساسة والحكماء كانوا أقوى فى العاطفة الجنسية من غيرهم، وأن اثر ضعف الخصيان فى القوى العقلية أمر مشاهد: بخلاف كاتب الاغلال إذ كذب بما لم يحط به علمه ولم يتصوره فهمه ،وكذب الرواة والمحدثين فيما نقلوا من قوة النبي ﷺ(١) وكذب أنساً خادم النبى ﷺ فى روايته طواف النبى ﷺ على نسائه فى ليلة واحدة بغسل واحد (ص ١٢٠) ورمى الحافظ ابن حجر خاتمة الحفاظ بالهوس الجنسي وتلفيق الروايات فى قوة جماعه ﷺ الخ البذاءات التى تليق بأدب هذا الكاتب وتربيته ومنبته وتمرده على المجتمع الاسلامى وليس الحافظ ابن حجر بأعظم من البخارى امام الدنيا فى حفظ حديث رسول الله ومعرفة صحيحه، فقد رماه الكاتب بالجهل بالحديث ، وأنه يروى

---

(١) كقوته ﷺ فى سائر المواهب الجسدية والروحية والخلقية فهو الانسان الكامل فى كل المواهب الانسانية حسية ومعنوية ولو عقل الكاتب حكمة إباحة الله له التزوج بعدد لا يحد من النساء لما استبعد وكذب ماجاء من الروايات فيما خصه الله به من القدرة الجنسية التى فاق بها الناس حتى أبيح له من النساء مالم يبح لغيره . حكمة تتعالى عن العبث والسفه .

الحديث الموضوع — المكذوب — وهو لا يعرف وضعه وكذبه . صرح بهذا شفاها فى دار وجيه جدة الافندى محمد نصيف بحضور صاحب الدار وولده الأديب حسين افندى نصيف وغيرهم من حاضرى المجلس حينما انجر بحثى معه فى مسألة سأذكرها بعد إلى الاستدلال بحديث رواه البخارى، فما تلكأ ولا تلعثم عن وصف البخارى بما نقلته عنه حرفياً — بلى ليس البخارى بأعظم من صحابة النبي ﷺ الذى فضل عليهم الاستعمار الانكليزى بشهادة كاتب شهد عليه بذلك فى داره هو سيد افندى قطب رئيس قلم التأليف بوزارة المعارف المصرية، بل الصحابة ليسوا بأفضل من أنبياء بنى إسرائيل وأنبياء المتدينين عموماً على اختلاف أجناسهم إذ رماهم بتأخير الانسانية وعرقلة سير الحياة الخ. بله أن الايمان بالله الذى جعله نكبة على البشر والايمان بالآخرة الذى جعله مؤخرا للمؤمنين بها عن اللحاق بركب الحياة

وهذا كله كان غريبا قبل أن نعرف اهدافه ومراميه التى كشف عنها كتابه (الأغلال) من مادية لا روح فيها ودهرية لا خالق لها، ونواميس صارمة لا آيات ولا خوارق ولا معجزات ولا قدرة خالق ولا اختيار له فيها. والديانات التى تقول بغير هذا أغلال تؤخر سير الحياة وتعرقل ركب الأحياء عند الكاتب .

وبالجملة تلخيص مشوه أو مبسط لإلحاد لوبون وأضرابه من ماديى القرن التاسع عشر وما قبله ثم تمزيق دين الاسلام خرقاً ورقاعاً لتلبسه تلك الفلسفة العفنة التى عافها الناس واستهجنوها وعدوها آراء صبيانية أطفالية.

وسأحاول اختصار تلك الكلمة العجلى التى شغلتنى عن أعمالى زهاء أسبوعين

فليس من غرضى استيعاب الكتاب الطويل الممل فقد كشفت عن أساسه ودعائمه ، وعمده وأركانه التى تتلخص فى هاتين الحكايتين — ومن أعطاك مفاتيح دار فقد أمكنك من معرفة ما فيها :

(١) ذهب أديب لموادعة صديق امريكى مسافر بطائرة فكان فى الوداع أن قال له : تصحبك السلامة باذن الله ومعونته ، فقال الأمريكى : الله ماله شغل فى هذا ! ! قال المودع : يحفظ الطيارة من السقوط ومن العواصف مثلا . قال الأمريكى إن سقطت فمن هـذا المغفل - وأشار إلى سائقها - الله ماله شغل فى هذا . فكتاب الأغلال تبسيط وشرح لهـذه الحكاية الأمريكية .

(٢) ذهب جحا (١) لشراء حمار من السوق فسئل أين تذهب ؟ قال أشترى حماراً من السوق قيل له قل ان شاء الله قال ليه ولماذا أقول ذلك ؟ الحمار فى السوق والثمن فى جيبى . ولما دخل السوق رزىء بلص سرق نقوده فلما رجع قيل له أين الحمار ؟ قال إن شاء الله ضاعت النقود ، فقيل له كان ذلك من أول . وضحك الناس عليه .

وفلسفة كتاب الأغلال هى فكرة جحا وهو ذاهب لشراء الحمار ولكن جحا انتبه إلى الحق بعد ضياع دراهمه فهل يرجع صاحب الأغلال ولو بعد خراب مالطة وبعد ما أفسد ما أفسد من أفكار قراء كتابه ؟

---

(١) جحا اسم لشخصية هزلية مجونية تنسب إليها حكايات مضحكة لها مغزى أدبى خلقى واختلف الناس فيه هل شخصيته خرافية أو له وجود تاريخى وفى سوق الوراقين تباع كتب باسم نوادر جحا .

الله أعلم بشؤون خلقه ولله فى خلقه واضلالهم حِكَم كحكمه فى خلق إبليس وإنظاره لاضلال خلقه .

فات أحد كبار الانكليز شيء عزم عليه فقيل له لو قلت إن شاء الله لحصل ، فكان يقول إن شاء الله حتى فيما مضى فيقول عملت كذا أمس إن شاء الله تعالى ، وأظنه المستر كوكس مهندس خزان أسوان الشهير بمصر

أقول سأختصر الكلمة بذكر فرع من فروع مادية الكاتب وهو إنكار تمثل الجن وتصورهم بصور ، وقد جرى بينى وبينه بحث فى ذلك لخصه فى كتابه ص ٢٠١ س ٢٩

« ومنذ شهور قليلة قام بينى وبين انسان عالم نزاع فى هذا وقد زعم هو بأن العفاريت يتصرفون فى هذه الدنيا وأنه يعرف إنسانا كانوا يخدمونه ويحضرون له الفاكهة من بلاد أخرى فى أوقات تفقد فيها الفواكه وانهم - أى العفاريت - ينقلوا له البراميل من بلدة إلى أخرى »

أقول : أنا ذلك الانسان العالم الذى عناه ، والذى قام بينى وبينه ذلك البحث الذى رواه مشوهاً ، ولم يذكر ما استدللت به من آيات وأحاديث منها حديث البخارى « إن شيطاناً تفلّت على النبي ﷺ ليفسد عليه صلاته فأمسكه الرسول وخنقه حتى أحس برد لسانه وهمّ ليربطه فى سارية المسجد حتى يلعب به صبيان المدينة ، فذكر دعوة أخيه سليمان (وهب لى ملكا لاينبغى لأحد من بعدى) فأطلقه » فما كان من الكاتب إلا أن رمى البخارى بالجهل بالأحاديث ، وأنه يروى فى صحيحه الحديث الموضوع وهو لايعرف أنه موضوع . وانفصل الحديث عند هذا الحد إذ لم نكن

ندرى ما وراء الأكمة وما يخفيه الكاتب في أغلاله من الكفر بالله واليوم الآخر والملائكة والجن والرسل والديانات كلها حتى أعلنه فى كتابه الأغلال . وسواء آمن بتمثل الجن وتصورهم أو لم يؤمن ، وصدق ماأخبر الله عنهم فى عصر سليمان وغيره ، وان منهم البنائين والغواصين والمقرنين فى الأصفاد ، ومن عرض على سليمان نقل عرش ملكة سبأ من اليمن إلى فلسطين أو لم يصدق . وسواء صدق الأحاديث فى ذلك أو لم يصدق ، وما توارثه الناس قديماً وحديثاً مما بلغ مبلغ التواتر الذى لاينكره إلامكابر مباهت حتى فى عصر المادة هذا يوجد فى عقلائه من يروى ماوقع من غرائب الحوادث التى لا يعقلها من لم يؤمن بعالم الغيب ويصدقها المؤمنون به

ولقد كان عقلاء الماديين أعقل من كاتب الأغلال وأبعد عن السخف فاذا رأوا شيئاً لا يفهمونه ، أو صحت عندهم رواية لا تنطبق على قواعدهم المادية ، قالوا : هذا شيء لم نعرف وجهه ، ولم يكذبوا به ولا بروايته ، واستحيوا من العناد والمكابرة والبهت وإغماض العين لانكار ضوء النهار ولك أن تطلع على ما يختاره « المختار » من حين إلى آخر ، آخرها مقال « قصة شبح » فى عدد يوليو (سنة ١٩٤٧) وراويه عن نفسه رجل من عظماء الانكليز معتمد الحكومة الانكليزية فى فرنسا . فصدقه أو كذبه . وقبلها فى عدد مارس (سنة ١٩٤٧) من مجلة المختار بعنوان (رأيت ملك الجحيم) فيها تمثل الشياطين فى غابة من غابات التبت .

وكل ذلك فرع المسألة الأصلية : الايمان بالغيب ، بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر ، جنته وناره وحشره ونشره ، وقضاء الله وقدره على

الوجه الذى آمن به المؤمنون الأولون : الصحابة والتابعون وتابعوهم باحسان إلى يوم القيامة . أم الكفر بذلك وتفسيره تفسيراً ماديا دهريا لوبونياً طبيعياً وجودياً على ظلمات فلسفة القرن التاسع عشر ،وإن ظن أنه يخدع الناس بذكر الأسماء الدينية وينزلها على مراده الذى اخترعه وحرفه من دين المادة والطبيعة والكون الآلى (ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب)

قال آخر (ص ٢٠٥)

« وليعلم بعد هذا أننا ممن يؤمنون بالأرواح وبالجان ، وبكل ماجاء عن الله ورسوله ، ولكننا ننكر الفوضى وننكر أن يكون الله قد ترك خلقه بلا نظام وبلا قانون يلزمهم الحدود ويريهم السبيل ، أو أن يكون قد تخلى عنهم للفوضى والطغيان »

فرحى لهذا الاعتراف ، إذاً فليؤمن أن الشياطين سخرت لسليمان (كل بناء وغواص وآخرين مقرنين فى الأصفاد) (قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك.. قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) (وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءى الفئتان نكص على عقبيه وقال إني برىء منكم إنى أرى مالا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب) تمثل الشيطان بسراقة بن مالك الجعشمى يوم بدر وقال لهم ما حكى الله عنه فلما رأى الملائكة مدداً يزعهم جبريل ولى هاربا فلما نادوا ياسراقة كيف تفر وتنهزم أجابهم الشيطان متمثلا بسراقة إنى أرى مالا ترون .

وحديث تفلت الشيطان على النبي ﷺ ليفسد عليه صلاته وتمكنه منه وخنقه حتى أحس ﷺ برد لسانه وهم بربطه فى سارية من سوارى المسجد لولا تذكره دعوة أخيه سليمان (وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى) وسارق تمر أبى هريرة مرارا وأعلمه النبي انه شيطان . ولشيخ الاسلام ابن تيمية رسالة فى أحوال الجن وعلاج من يصيبونه بمرض ونحوه، وكيفية اتقاء شرهم مفعمة بالأحاديث فى ذلك طبعها الشيخ منير الدمشقى بمطبعته المنيرية سماها (إيضاح الدلالة فى عموم الرسالة)وقد ساق البخارى فى كتاب بدء الخلق من صحيحه أحاديث على شرطه فيما جاء فى الجن وأحوالهم ، وفى القرآن سورة الجن وفيها وفى الاحقاف استماعهم لقراءة الرسول القرآن فى صلاته الفجر حينما كان ذاهبا إلى عكاظ بنخلة اليمانية (قرية بطريق الطائف) وأحاديث إسلام طائفة منهم وسكناهم المدينة . وتمثلهم فى صورة حيات وقتلهم لمن قتل منهم حية . والحديث بذلك فى صحيح مسلم وأبى داود وغيرهما

وفى تمرد الجن وطيشهم وعبثهم من الفوائد ما لا يقل عن نظيره من تمرد المتمردين من بنى آدم من تعليمنا كيف نصارعهم ولا نخافهم ، وننازلهم ولا نهيبهم ، ونزداد إيمانا بقدرة الله على خلق مخلوقات لا تُرى ثم ترى ونوعا حياً عاقلا على أسلوب غير أسلوبنا فى الحياة والمعيشة ، فاذا تمردوا على ما أُلزموه من النظام قاومناهم بما فطرنا الله من قوة ، وما هدانا اليه من عقل وتدبير مع الاستعانة به وازددنا علماً بما وراء المحسوس فوق مانعلمه من المخلوقات التى نحسها ، وأن هناك أحياء غير ما نعرف من

الحيوانات ، وأن وراء ما نبصر أمم تحيا وتعيش بطراز غير ما نعرف من طرز الحياة التى ألفناها رغم أنف الدهريين والماديين ، وإن كان فى الناس من يجبن عن مصاولة هذه المخلوقات الضعيفة من الجن وهو أرقى منهم عقلا وحولا وطولا ، فهناك من يخاف الفأر والهرة فضلا عن النمر والأسد مع أنه أقوى منها حيلة وفكراً ومعرفة بطرق اتقائها بل صيدها وحبسها فى أقفاصه . فليس فى وجود هؤلاء الجبناء من الناس وعبث الجن بهم أحيانا قليلة للعبرة مايخدش حكمة إقدار الجن على التمثل والتصور ، ولا فيه فوضى ولا خلل ، ولا ترك الله لخلقه وتخليه عنهم كماتصوره الكاتب

أنا أومن بتمثل الجن وتصورهم ، وأصدق الصادقين ممن يحكى شيئا من تلك الأحوال الغريبة التى تصدقها القرائن ولوائح الأحوال وشواهد الصدق ومع هذا لا أهاب الجن فى خلاء وظلام ووحدة ولا تشوشت علىّ حالة من حالات معيشتى ولا جرى علىّ فوضى ولا طغيان وأصدق من يحكى انه رآهم أو قاومهم وانتصر عليهم وفروا منه هاربين كسفهاء لصوص بنى آدم .

ومن شاء باهلته على ذلك أن ينزل الله لعنته على الكاذبين .

وليس فى تمثل الجن وترائيهم للناس فوضى ولا طغيان مطلق ولا ترك الله لخلقه وتخليه عنهم كما زعم الكاتب ، وفى تمرد المتمردين من الانس والجن وخروجهم على النظام والقانون حِكم وفوائد كثيرة من التوجه لمقاومتهم والهدايه إلى قمعهم وعقوبتهم والزامهم النظام والقانون ، وتعلم طرق اتقاء شرهم وفضح حيلهم وأطرهم على الحق والنظام والشرع .

وهل هناك من فائدة لنظام البوليس والادارة ولقانون الجنايات ومحاكمها وقضاتها لولا وجود الأشرار العابثون بالقانون والنظام من بنى آدم

والعجب لكاتب الأغلال أن يظن فيما جاء فى النصوص الدينية من تمثل الجن وظهورهم بأعمال تهويشية أو عبث ومجون : فوضى أو تخلّ لله عن خلقه أو نحو ذلك من التمويهات التى يرد بها ما جاء فى كتب أنبياء الله تعالى ، وما تواتر فى أخبار الناس عن ذلك . وهل فات الكاتب أن الحياة كلها كفاح وجلاد وصراع ؟ فهذه الوحوش تفترس ، وهذه تدافع أو تهرب أو تقع فريسة ، وهذه الجراثيم المرضية تهاجم جسوم الحيوان والانسان وهذه تدافعها . والغلب لهذه تارة ولتلك أخرى . وفى هذا الكفاح من علوم الحياة ومن التجارب ، ورقى العلوم والصنائع مايعرفه أهله . وقد ذكرنا ما فى عصابات اللصوص وقطاع الطريق ومقاومة القائمين على حفظ النظام والقانون لهم من حِكم وفوائد . فهل يعد الكاتب ذلك كله فوضى وتشويش وتخلياً لله عن خلقه ، وفساداً للنظام ؟ أو الجد والاجتهاد فى رد نصوص الدين بأوهام وسفسطات وبهرج من القول ، وجرى وراء المادة المنكرة لما وراء المحسوس والطبيعة ؟

إذاً فليبك الكاتب على عقله ودينه

ونسأل الكاتب الفاضل إذا كان يؤمن بما أخبر به القرآن من إرسال الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً ومن نزغ الشيطان للانسان ، ومن إنظار الشيطان إلى يوم الوقت المعلوم لاِغواء بنى آدم : هل فى ذلك كله فوضى وأن فيه ترك الله لخلقه بلانظام ولا قانون يلزمهم الحدود ؟

إن كان يؤمن بذلك وأنه لا فوضى فيه ولا تخلى لله عن خلقه ولا تشويش ولا طغيان فليضف إليه تمثلهم أحيانا وعبثهم، مما فيه مصالح لبنى آدم مما ذكرنا بعض فوائده، وإلا فليعلم أن شياطين دين المادية والناعقين بانكار ما لا يحسونه بحواسهم المقيدة المحدودة لما نقض مذهبهم بمشاهدات الناس لحوادث الجن، ومشاهدة الانبياء والرسل للملائكة وتمثل ما وراء المحسوس من عالم الغيب من الملائكة والجن بصور تُرى وتسمع وتحس، باهتوا التاريخ والتواتر والوقائع ليقوم لهم مذهبهم الحيوانى فى إنكار ماوراء مايعرفون — وما أقل مايعرفون — من الوجود ظاهره فضلا عن خفيه وغيبه. وجاء كاتب الأغلال يهرف بما لا يعرف جهلا أو غباء أو انخداعا بهذه الدهرية المادية التى تكذب بما لم تحط به علماً ولما يأتها تأويله

وإنا لنرجو اليوم الذى ترق فيه مشاعرنا وحواسنا وتتقدم الصناعة والاختراع حتى يرق ما بين المحسوس وغير المحسوس من حجاب ؛ فيرى هؤلاء العمى من الماديين مالم يكونوا يرونه قبل ذلك. ولسنا نطمع حينئذ فى إيمانهم لأنه بيد الله تعالى (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها. قل إنما الآيات عند الله ومايشعركم أنها إذا جاءت لايؤمنون. ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون. ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قُبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون)

***

ومن فروع الأصول المادية الدهرية التى اعتنقها الكاتب وفسر بها

ماجاء فى الدين ، مسألة إنكار العين وتأثيرها فقد قال (ص ٢٠٦)

« ومما يتصل بمسألة الأرواح المعتدية مسألة الاصابة بالعين أو النظرة أو ما يسمى عند العامة بالحسد فان الحاسد عندهم إنما يصيب بروحه الخبيثة ومسألة الاصابة مسألة ذات ذيول طويلة وحواش ضافية ولاعتقادها أثر جسيم فى حياة الكثيرين وفى عقولهم وأفكارهم وتصرفهم العام ولها فعل سحرى فى قوتهم العصبية والارادية والعقلية . . .

ثم سرد ماهو منتشر بين الناس فى تأثير العين من حق وباطل وماهو مبالغ فيه أو أوهام ، وهزأ بكل ذلك وبالروايات فيه صحيحها وسقيمها ، ومن ذلك رواية الموطأ والطلب من العائن أن يغتسل للمعين فقال ص ٢٠٧

وذكروا انه عليه السلام أمر أن تغسل عورة العائن والمواضع القذرة من بدنه ثم تجمع الغسالة ثم تصب على المعين ويسقاها . . . .

وقد كذب على الرواية بذكر عورة العائن تشنيعاً لها وتشويهاً وإنما الرواية فى غسل أعضاء الوضوء من العائن : وجهه ويديه وداخلة إزاره ، وفسروها بطرفه الملفوف على وسطه أو بحقويه اللذين يلف عليهما الازار . فحرفها الكاتب إلى عورة العائن إمعاناً فى التشنيع على الحديث ، وخيانة فى النقل ، لأنه يكتب لقوم فتنوا بالخوف مما يسمونه الجراثيم والمكروبات حتى أورثهم هذا الهوس جبناً فاقوا فيه النساء والأطفال ، وهلعاً خلع قلوبهم فقدوا به شجاعة الرجال ، فضلا عن الأبطال ، وجُنّوا بما يسمونه النظافة والوقاية من الأمراض ، حتى أن الواحد منهم يتقذر من فم جليسه وصديقه الذى قد يكون أصح منه وأنظف فلا يشرب من كوبه فضلا عن خلطته به فى طعامه ، بل يتقذرون أصابعهم الطاهرة

فأراد الكاتب أن يظهر لهم الدين هـذا المظهر القذر المحتقر تنفيراً وتقبيحاً ، فزعم أن الرواية جاءت بغسل عورة العائن ، والله حسيبه فيما كذب وافترى على الرواية ، ولو جاءت بهذا اللفظ لكان فى حمله على أحسن محامله الأدب معها ، فالعورة عند الفقهاء ماتحت السرة وفوق الركبة ، وليست خاصة بالقبل والدبر ،أو السوأتين

اعترف الكاتب بما جاء فى بعض الروايات ثم أخذ يحرفها حتى تطابق أصوله المادية فقال ص٢٠٨:

نعم جاء فى الأحاديث التى رواها المحدثون الثقات « أن العين حق وأنه لو كان شىء سابقا القدر لسبقته العين » ولكن هل هذه الأحاديث فى سبيل من جهل هؤلاء الجاهلين وفى صدد مما قالوا واعتقدوا كلا فان كلام النبوة أضخم وأسمى معنى وهدفا وغاية مما يتوهمون فالعين حق فان الانسان الشرير يرى بعينه فيحقد ويحسد بقلبه ثم يصيب بأعماله وكيده ،والعين حق أيضا فان فى كثير من العيون قوة آمرة ناهية بل قاتلة آسرة وأن الرجل الموهوب هذه القوة لينظر أحيانا إلى من حوله فيخضعهم بمجرد النظر ويسلس لنظرته وعينيه أشمس خلق وأعصى طبع ويبلغ من أنفسهم أقصى ما يريد وأبعد ما يرجو ،فيصبحون طوع مشيئته ورهن إشارته فيصبح بينهم الآمر الناهى المتصرف ويصير فيهم الزعيم المعبود أو الشيخ المعبود أو الأستاذ المعبود ، القول قوله ، والتفكير تفكيره والهوى هواه والدنيا دنياه . . .

ثم ذكر عجبه من استعباد شخص لأمة ، وعبادة أمة لشخص وفسره بسرّ عينيه . وضرب مثل ذلك الشيخ الجاهل السفيه الوقح فى كل جانب من جوانبه — كأنه يعنى محمود خطاب السبكى رئيس ومؤسس جماعة السبكية المتسمين بالسنية — ونجاحه فى أتباعه ، وتصرفه فيهم تصرف

الراعى فى قطعان غنمه ، أو كأنهم مخلوقات خلقهم هو وصاغهم فى القالب الذى يريده منهم ؛ أو كأنهم أموات بين يديه ، لايتحرك منهم عضو حتى يحركه ، وفرض عليهم أن يخشعوا بين يديه خشوع العابدين فى صلاتهم ، أو ذلة المشركين أمام أصنامهم ؛ وألزمهم أن يدخلوه بينهم وبين الله فى أقرب موقف يقفونه منه تعالى ، وألزمهم أن يضعوا خياله وصورته بينهم وبين الله وبين القبلة حين الصلاة ؛ وفرض عليهم أكثر مما فرض الله على عبيده ؛ وكتب لهم هذه الفروض فى كتاب من كتبه « يعنى العهد الوثيق » زورتها يداه ثم أمرهم أن يتعلموا هذه الفرائض وأن يستذكروها حفظا ليعملوا بها أينما كانوا

وفسر الكاتب نجاح هذا الشيخ الجاهل السفيه الوقح بسر عينيه .

ثم فسر حقية العين أيضاً بأنها مفتاح شخصية صاحبها ومجتمع قواه ومعانيه المختلفة ، ففيها يتجلى الحب والبغض والعداوة والصداقة ؛ والرحمة والقسوة ، والذكاء والغباء ، والقوة والضعف والحزن والسرور ، والصحة والمرض والهدوء والقلق . الخ

وأقول للكاتب الفاضل: ماذكرت من الأمثلة والشواهد والاستنتاج صحيح ولكنه ليس مراد حديث « العين حق» بدليل بقية الحديث «ولو كان شيء سابقا القدر سبقته العين » وبدليل الأحاديث المتواترة المعنى ، المملوءة بها كتب الثقات من المحدثين الذين وثقت بروايتهم لحديث «العين حق» التى تدل على تأثير العين التأثير الذى تنكره أنت وتهزأ به ، كحديث « استرقوا لآل جعفر فإنهم تصيبهم السفعة » وحديث رقية

الحسن والحسين « أعيذكما بالله من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة» وكحديث الموطأ فى المعين الذى لبط حينما قال له العائن « مارأيت ولا جلد مخبأة قبل اليوم » ولما اغتسل له العائن فكأنما نشط من عقال .

والأحاديث فى هذا كثيرة يؤمن بها المؤمنون ويجحدها الماديون . وآية (وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم) فيها إشارة إلى تأثير العين ، ونصيحة يعقوب لبنيه أن يدخلوا مصر من أبواب متفرقة ، ولا يدخلوا من باب واحد كذلك

ونسأل الكاتب عن معنى ما اعترف به من بقية حديث « العين حق» وهو « ولو كان شيء سابقا القدر لسبقته العين » ما معناه ؟ وهل عنده تحريف له حتى يتفق والمادية التى اعتنقها الكاتب ؟

ولعله خانه حذره حينما ساقه معترفا به ثم حصر عن تحريفه فسكت عنه فلم يضحكنا بما عودنا من تحريف وتسخيم

وليس اعتقاد الناس فى تأثير العين اتباعا للأحاديث الصحيحة المروية فى ذلك بمخذل لهم ولا عائق عن سبل النجاح كما زعم الكاتب (ص ٢٠٧) ولا مما يفسد الهيئة الاجتماعية ، ولا مما ينشر الفوضى والخيال المضطرب القاتل كما زعم (ص ٢١٠) وإن وُجد إنسان هستيرى المزاج كالذى عرفه الكاتب (ص ٢٠٨) أكلته الأوهام والظنون من هذه الناحية ، يحسب عيون الناس سهاماً مصوبة اليه ، فتخاذل وتمارض ليدفع عنه العيون المصوبة اليه ، فليس هذا المهستر هو كل الناس ، ولا هو القياس الصحيح لجميعهم . فالناس سائرون على جوادّ أعمالهم ، جادون فى مهماتهم ، بلا تلكؤ

ولا تخاذل ولا توقف ، فان ظنوا فى أحد تأثيراً عينياً تعوذوا بالله منه ، وتحصنوا بالتحصنات الالهية والرقى النبوية التى لا يصدقها الكاتب ولا يؤمن بها . فماذا يضرهم إيمانهم هذا ؟ بل لقد أفادهم الايمان بالله واللجأ اليه والاحتماء بحماه مما يكفر به الكاتب ويسفهه ، ويريد بكتابه أن يقلعه من قلوب الناس ليستبدلوا به مادية قاحلة مجدبة مميتة قاتلة مبعدة عن الله كافرة به ، منزلقة فى أوحال المادة

ماذا يبقى للناس إذا فقدوا فى وسط محيط الحياة المضطرب وأمواجه المصطفقة ثقتهم بالله وإيمانهم به وسفينة رحمته بهم ، وفلك حنانه وشفقته عليهم — إلا الحيرة القاتلة ونار اليأس المحرقة ، والقلق والاضطراب الذى أودى بذلك الحيران الذى أغرق نفسه فى شاطىء بحر الاسكندرية ، ووجد فى جيوبه اعترافه أنه ملحد زنديق لا يستحق أن يدفن فى مدافن المسلمين ، وأظنه اسمه « على أدهم »

فى إحدى افتتاحيات مجلة الثقافة للكاتب الشهير الأستاذ أحمد أمين مقال قيم فيما فقده الناس من الايمان ولم يعوضوا خلفاً عنه ، وما أصابهم من جراء ذلك من مصائب نفسية ومادية الخ

والعجب أن كاتب الأغلال ينكر تأثير العين بالمعنى الذى يعرفه سائر المسلمين ، ثم يخترع لها تأثيراً يضرب له الأمثال بتأثير بعض الزعماء على الدهماء بما أوتوا من نجاح فى التأثير عليهم بسبب دعايات أو إقناع دينى أو سياسى أو مذهبى ونحو ذلك . وإذا كان للعين ما ادعاه الكاتب من هذا التأثير فى الجماعات ، فما الذى يكفره من تأثيرها الآخر الذى جاءت به الشرائع

وما الفرق ؟ اللهم إلا الاغراق فى المادية والكفر بما جاءت به الشرائع من أسرار وحقائق تجحدها المادية .

**

يتهكم الكاتب بثقة المسلمين بدينهم مع أنهم لا يعملون به الآن فيقول آخر (ص ٢١٠)

وهناك مسألة كبرى نشأت أيضا من الجهل بسنة الله وسنة الحياة ومن الاعتقاد بأن العالم ليس محكوما بالنواميس

ذلك أن الناس ظلوا مئات السنين يعتقدون أن المسلمين لن يُغلبوا، لأن دينهم حق ، والحق يجب أن يكون أهله منتصرين أبدا وإن قصروا وأهملوا ونسوا أنفسهم وأن الاسلام لن يهزم أمام الأديان الأخرى لأنه الدين المرضى لله والله لن يترك مايرضاه للخذلان والهزيمة ،وقدعملوا على أن يصححوا هذه الأغلوطة بالاستدلال بآيات قرآنية مطلقة مجملة نسوا قيودها وشرائطها ؛فأمعنوا ضربا فى متاهات الأوهام واستمتاعا بأضغاث الاحلام،وظلوا سادرين حتى فجأهم العالم فانتبهوا مذعورين لا يدرون من أين ولا كيف . وقاموا يتلمسون الطريق وقمنا معهم ولكننا وجدنا بعد هـذه النومة الطويلة والأحلام الثقيلة أن أعلام الطريق قد عفت أو كادت ،وأن الرقاد الطويل الثقيل الذى هنئنا به قد باعد بيننا وبين الأمم اليقظى التى لم يغمض لها جفن فكيف ومتى اللحاق ؟ .

أقول : إن اعتقاد المسلمين ان دينهم حق ، وان الله تعالى ارتضاه ، وأنه لن يُغلب ولن يهزم ، كل هذا حق أيدته الآيات القرآنية ،والشواهد التاريخية ، والتجارب الواقعيـة الكثيرة . وإلا فماذا يقول الكاتب فى فتوحات الاسلام شرقا إلى حدود الصين ، وغربا إلى المحيط الأطلسى فى عهد خلفائه الراشدين وعهود بنى أمية وبنى العباس وبنى عـــثمان ؛ وفى

الانتصارات الصليبية فى عهد محمود زنكى وصلاح الدين الأيوبى وفى فتوح أوربا من غربها فى الأندلس ، ومن شرقها فى العهد العثمانى إلى أواسطها حيث أسوار فينا، كل هذا ما كان إلا بدينهم والعلم به والعمل به ، فكانوا بذلك سادة الدنيا قوة وغلباً ونصراً وفتحاً

ثم لما صار الدين عندهم اسماً بلا مسمى ؛ وعصبية جنسية ، بلا علم ولا عمل ، وناموا كما قال الكاتب نومة ثقيلة أضاعوا فيها دينهم ودنياهم ، واستيقظ الغرب بفضل ما استفاد منهم باحتكاكه بهم غربا فى الأندلس ومدارسه وعلومه وصناعاته ، وشرقا فى الحروب الصليبية ، استفاد من المسلمين حرية الرأى والبحث الحر ، وتقويم الحكام وإرشادهم ، وردّ أهوائهم وباطلهم ، والقيام عليهم للصالح العام ، إلى غير ذلك من أصول الاصلاح والخير ، ورجع إلى بلاده فبذر بذور الاصلاح فيها بالجمعيات العلنية والسرية ، وبالنشر والدعاية ، والصبر على الأذى والاضطهاد ، والقتل والصلب فى سبيلها حتى أثمرت مدنية أوربا الحالية التى خطف بريقها بصر الكاتب وأصمت رعودها آذانه ، فلم يعد يرى ولا يسمع غيرها

لقد أبدع الكاتب القدير سعادة عبدالرحمن عزام باشا فى رسالته «الخالدة» فى بيان محاسن الدين الاسلامى وعرضه على عقلاء الناس عرضا فائقا لانتشال المجتمع الانسانى من شرور المدنية الأوربية وأوحالها وأوضارها ، والحفر العميقة التى تردت فيها وأردت الناس معهم ممن اقتفى أثرهم . ثم قال وأمل فى رحمة الله :

وبعد فهل يكتب لسكان الشرق من المسلمين والمسيحيين الذين

تتعلق نفوسهم دائماً برحمة الله، وتترقب هداه إذا اشتدت الكروب والظلمات، أن ينهضوا مرة أخرى بميراثهم السامى الذى يُقوم من عوج النزاع الفكرى والاقتصادى والعنصرى، ويلطف من حدة المزاج الغربي حتى يؤمن بالأخوة الانسانية، ويعمل لخدمة السلام العام باخلاص نية؛ وحسن توجه بما مكن الله له فى الأرض. ذلك ما نسأل الله رب العالمين أن يعجل بتهيئة أسبابه، إن الله بالناس لرءوف رحيم

وقد كتب المستشرق النمساوى «ليوبولد فايس» المسمى محمد أسدالله رسالة سماها (الاسلام على مفترق الطرق) وصف حال الاسلام، ومهاجمة المدنية الغربية له من كل النواحى، وماذا يجب على المسلمين للنجاة من شرور هذه المدنية المادية، وماذا يلزمهم منها وماذا يضرهم، بحجج واضحة، وغيرة صحيحة ونصائح نافعة، فاقرأها فانها مفيدة قيمة تدل على تفكير عميق وتحقيق صاف رائق ونصح خالص عن تجربة وبصيرة.

وليس اعتقاد المسلمين فى دينهم الحق وأنه لا يُغلب ولا يهزم، بوَهْم قاتل، ولا فضحه الواقع كما زعمه الكاتب (ص ٢١١) ولكن الوهم القاتل هو الجهل بهذا الدين والإعراض عنه؛ وابتغاء العزة فى غيره من مادية القرن التاسع عشر التى أفسدت على الناس أديانهم وإن كانت أفادتنا ـ على حد المثل «رُب ضارة نافعة» أن نراجع ديننا وأن نمحو منه مالصق به من بدع وخرافات، وأن نفهمه على وجهه الصحيح؛ ونعمل على الوجه الذى يريده الله ويرضاه، فنجنى منه ماجنى منه المسلمون الأولون من عز وقوة، وغلب ونصر؛ ونضرب للعالم المثل العالى فى أن الدين نور وقوة هداية

وعمل حياة روحية ومادية .

والزمن كفيل أن يظهر لنا إن كان تألم الكاتب من انتشار الجمعيات الدينية الكثيرة التى تنادى بعز الاسلام ومجده الذى سماه الكاتب أغلوطة تاريخية كبرى (ص ٢١١) هل سببه الغيرة على الاسلام أو ألمه من الاسلام وخادميه والساعين فى إعزازه ونصره لاعتقاده فيه تأخيره لأهله عن ركب الحياة وموكب الجماعة

أما تعليله لنجاح هذا المخبول الذى يهذى بالمستحيلات الناعب بالآمال الناعق للجماهير المضللة حتى أخذ برقاب آلاف أو مئات آلاف أو ملايين من هذه القطعان البشرية يقودها كما يشاء « يريد به فضيلة الأستاذ حسن البنا رئيس جماعة الاخوان المسلمين ، تلك الجماهير المضللة والقطعان البشرية عند الكاتب » بأنه قد هاجم أضعف جانب فيهم وهو جانب الرجاء والأمل ، فانتصر عليهم بدون عناء فلا يعد نجاحه دليلا على أن له قيمة كشأن أمثاله من المخادعين المستولين على الجماعات بالتلويح لهم بالآمال (ص ٢١٢) فنترك الحكم على صحة هذا التعليل لتلك الجماعات من الاخوان المسلمين وفيهم الكتاب الأذكياء والمتعلمون النبهاء

وأما تهكمه بقول الحافظ ابن كثير « إن مدينة دمشق لا سبيل للأعداء من الكفرة عليها لأنها المحلة التى أخبر الرسول عنها أنها معقل الاسلام عند الملاحم وبها ينزل عيسى ابن مريم » تهكمه عليه بقوله (ص ٢١٥) ولا نعرف ماذا يقول لو عاش بعد أن كتب هذا فرأى الجيوش الفرنسية ثم الانجليزية تدخل هذه المدينة الاسلامية الجميلة غازية منتصرة أتراه يستطيع أن

يقول إن الاسلام أعطى هذا الضمان الجميل أم تراه يدعى ان ما أورده هنا فى كتابيه يصلح أن يكون برهانا على وجود هذا الصك الالهى المحمدى المزعوم. لا ريب فى أن الذى جعل مثل هذا الشيخ الجليل الحافظ يهم هذا الوهم هو الغفله عن سنن اللهالصارمة التى لا محاباة فيها ولا فوضى ولا محسوبية.

أقول : لقد أخزى الله شماتة الكاتب بهذا الامام الحافظ الواثق بما روى عن النبي ﷺ وبعز الاسلام ، فهذه دمشق الآن تتمتع على مرأى الكاتب وسمعه بحكومة وطنية تنفيذية وتشريعية بوزراء وبرلمان ،وبجيش وطنى من أبنائها ، وطرد الله عنها ما كان أدبها به من جيوش أجنبيـة : فرنسية أو انجليزية تأديباً عارضاً مؤقتاً كسحابة صيف . فماذا يقول الكاتب الآن وقد رأى وسمع ، هل يعترف بفضل الاسلام ويعود إلى حظيرته ، ويؤمن بما جاء عن نبيه من أخبار الغيب ويحترم العلماء المحدثين الذين رووا ذلك وآمنوا به ؟ أو يبقى مصرّا على النواميس الصارمة والمادية الدهرية التى عجّز الله تعالى بسببها ، وكذب رسله وآياته لأجلها ، ومشى وراء صنمه غوستاف لوبون الذى يتبجح بانكار الله وآياته وخوارق العادات التى أيد بها رسله وأنبياءهالداعين إلى طراطه المستقيم ، ودينه القويم ، إذ قال فى كتابه (الآراء والمعتقدات) ص ٢٩ « ومع أن علم الحياة الحديث أصاب فى نقصه مبدأ علة العلل (يعنى واجب الوجود : الله) فاننا نرى سلسلة الأشياء تبدو كأنها خاضعة لهذا المبدأ ، يؤيد ذلك كون الشروح العقلية التى أتي بها العلماء لم تقدر على حل كثير من الأمور الغامضة فى الكون — إلى أن قال : ولا نأسف على ذلك لأن كشف

المصير يجعل الحياة شقية، فالبقر لا يرعى الكلأ مطمئناً إذا علم أن مصيره إلى الذبح ، وأكثر الموجودات تتقهقر جزعا لو اطلعت على نصيبها »

وقال ص ١٤٨ « لعل أهم ثورة ظهرت فى عالم الفكر هى الثورة التى أدى اليها العلم باثباتــه إن الحوادث تصــدر عن نواميس مهيمنة لا عن أهواء الآلهة » إلى أن قال « فلو أن الحادثات التى يخبر بها أولو الكرامات فى الوقت الحاضر ممكنة لتقهقر العلم طائعاً إلى قرون الأساطير الخ — إلى أن قال : وإن كان البحث الدقيق فى خوارق ما بعد الطبيعة يدلنا على أن هذه الخوارق عبارة عن أوهام تكونت فى نفوسنا »

**

اغتر الكاتب بما يُذكر فى الأوراق والكتب من آراء تقــال رهن التمحيص والبحث ، فظنها حقائق راهنة وقطعيات لا تتبدل ولا تتحور ، فتراه يقول (ص ٢١٠)

وقد استطاع العلم الانسانى أن يصعد إلى الشموس وإلى المجرات يعـددها ويقدرها ويعلم ما هنالك . . .

وأهل العلم بذلك لم يغتروا هــذا الغرور فهذا نقولا حداد وهو من المغرقين فى المادية يقول فى كتابه «هندسة الكون بحسب ناموس النسبية» آخر ص ١٥٦

﴿ حاشية ﴾ نلفت نظر القارىء إلى أن هذا البحث وأمثاله من المباحث التى يطمح فيها العقل البشرى إلى استكناه أسرار الوجود لا تعتبر فى حكم المؤكد لأن المعلومات العامية والأرصاد والاكتشافات التى بنيت

عليها ليست حقائق راهنة بل هى تقريبية ،أو ربما تيسر لأهل العلم أن يؤكدوها أو ينقحوها أو ينقضوها بنظريات أصح منها بما يستجد عندهم من معلومات أقرب إلى الحقيقة وفوق كل ذى علم عليم . اه

وذكر مشرفه باشا فى رسالته النسبية الخاصة بعد ما ذكر قضاء نظرية النسبية على المذهب المادى ص ٤٤ — ٥٠ قال : والذين يقولون بالنسبية لا يرتكبون الخطأ الذى ارتكبه علماء القرن الماضى وهو خطأ الجزم باستحالة الخلق والفناء بل بالعكس فهم أبعد ما يكون عن الجزم بشىء أو القول باستحالة شىء وإن كان هناك صفة يتصف بها فلاسفة النسبية فهى البعد عن إلقاء أى قول فصل فى أية مسألة من المسائل التى يتعرضون لبحثها ،وهناك صفة أخرى ظاهرة فى أبحاثهم وأقوالهم ألا وهى الاعتراف بحدود المباحث التى يتعرضون لها .فالسير ارثر دانجتون مثلا وهو من زعماء فلاسفة النسبية يذكر فى كتابه عن « كنه العالم الطبيعى » إن العلوم الطبيعبة محدودة فى دائرة من دوائر المعرفة البشرية لا تخرج عنها ويترك الباب مفتوحا إلى المعرفة من غير طريق العلم . اه . ص ٥٠

يقول الكاتب ص ٥٨

انه راح يولد هذا الوجود ويشهد تكونه وتولده، وذهب يحدث حديث الحاضر الشاهد كيف ولدت مادة الكون ومتى ولدت وكيف ظلت تتفاعل وتتطور ثم كيف أخذت تتوالد ثم كيف ولدت هذه الشموس وغيرها من الشموس ثم كيف راحت هذه الشموس نفسها تلد الأتباع والبنين ليحيطوا بها . .

أما كاتب مجلة المقتطف ـ وهو من نعرف اشتغالا بهذه المسائل ـ

فيقول فى عدد أغسطس سنة ١٩٣٨ (ج ٣ مجلد ٩٣) فى هذه المسألة :
موضوع عمر الكون يختلف فى أركانه عن موضوع حجمه وسعته . وثم طرق لتقدير هذا العمر ليس بينها طريقة يصح الاعتماد عليها كل الاعتماد وهى تفضى إلى نتائج متضاربة ؛ والمسألة تدور على قدرتنا على النفوذ بأساليب علمية إلى ما كان عليه الكون فى الماضى السحيق ،ولا عجب إن قلت دقتنا كلما تغلغلنا فى الماضى اهـ

ثم ذكر الطرق التى بحثوا بها المسألة من قياس سرعة النور والمدة التى قضاها حتى وصل إلينا من أبعد المجرات والسدم . وتحليل الصخور المحتوية على مواد مشعة ـ كالرديوم ونحوه ـ ونظرية النسبية وتمدد العوالم الكونية وتباعدها ومبدأ توزع الطاقة المتعادل بين الذرات فى الغاز أو بين النجوم

ثم ختم المقال بقوله :لم يكن تصور رحاب الكون بالأمر السهل وأشق من ذلك تصور سعة الزمن الفلكى .

بخلاف كاتب الأغلال الذى جعل المسألة موضع الجزم والمشاهدة بقوله «راح يولد هذا الوجود ويشهد تكونه وتوالده» وذهب يحدث حديث الحاضر المشاهد الخ

وأهل العلم بذلك يقولون عن طرقهم ليس بينها طريقة يصح الاعتماد عليها كل الاعتماد ،وهى تفضى إلى نتائج متضاربة ؛ ويعترفون بقلة دقتهم فى هذه المسائل ،بخلاف صاحب الأغلال الذى يطالع هذه المسائل مطالعة سطحية ويجزم فيها بالآراء الظنية عند أهلها

ويقول الكاتب ص ٥٩ س ٢

« ثم لم يقف عند هذا الحد بل ذهب مسرعا يسابق الوجود فيسبقه، وذهب يخبرنا عما بقي من عمر هذا العالم وعمر هذه الحياة وهذا الوجود الذى سبق أن ولده وأن شهد نشوءه وتكونه وعما بقي من عمر هذا الانسان وغيره من الأحياء ويخبر عن الأحداث والحوادث التى لا تزال فى طريق الوجود والتى لا تزال تترقب لتثب وثبتها .

ويقول السير جيمس جنز فى كتابه «النجوم فى مسالكها ص ١٠٦» (الترجمة العربية) الطبعة الأولى :

فالذرات المدخرة فى الشمس فى الوقت الحاضر تكفيها ١٥ مليون مليون سنة على المعدل الذى تتناقص الآن لكنها قبل أن تأتي على آخر ذرة فيها بزمن طويل لابد أن تكون قدوصلت إلى حالة النجوم الأضعف الأصغر حجما . .

« وإذا أدخلنا فى حساباتنا اعتبارات من هذا النوع ترجح فيما يظهر أن يكون لمعظم النجوم مئات من ملايين الملايين السنين ترجو أن تعيشها قبل أن يخيم عليها الظلام آخر الأمر — وسواء استتبت هذه التقديرات فى النهاية أم لم تستتب فهناك شىء واحد يبدو لنا مؤكدا — هو أن الأعمار البشرية تتلاشى تلاشيا تاما إذا قيست بالزمن الفلكى — لقد رأينا أن الأرض ليست إلا هباءة فى الفضاء والآن نرى أن أعمارنا بل وتاريخ البشر كله ليس إلا هباء فى الزمن » اهـ

فترى جنز العالم الفلكى الطبيعى أحد أعضاء المجمع العلمى البريطانى يقول ترجح فيما يظهر — سواء استتبت هذه التقديرات فى النهايه أم لم

تستتب — شيء واحد يبدو لنا .

بخلاف كاتب الأغلال الذى جعل العالم : ماضيه وباقيه ،عند الانسان كمبناء ساعة ، يخبر عما مضى خبر حاضر مشاهد ، وعما بقى من عمر هذا العالَم وعمر هذه الحياة وهذا الوجود ،خبر خالقه وصانعه ، لان الانسان ـ عنده ـ خُلق لينازع الله فى علمه وقوته وقدرته

وقال السير جيمس جنز فى كتابه المذكور فى ختامه تحت عنوان (عمر العالم) «لانستطيع أن نقول شيئا موثوقا من صحته عن عمر العالم حتى نعلم الحق عن التباعدات الظاهرية للسدائم ، فاذا تبين أنها واقعية كان من الضرورى أن نجمع الحوادث الفلكية كلها بطريقة من الطرق فى ماض طوله بعض آلاف الملايين من السنين

أما الآن فالشواهد الفلكية العامة تبدو كلها كأنها تصيح احتجاجا على أن يكون الماضى قصيرا إلى هذا الحد ، إنه لايكاد يكون من الممكن تعليل الترتيب الحالى للنجوم إذا كانت أعمارها بهذا القصر . لهذا أرى من الراجح جداً أن التباعدات الظاهرية للسدائم سيثبت أنها زائفة ، وفى هذه الحالة يدل ترتيب النجوم على أن ماضيها يمتد إلى ملايين الملايين من السنين ،كما يمتد مستقبلها إلى نحو ذلك أو إلى ما هو أطول منه . أما الآن فالشواهد على ما يظهر مضطربة جدا بل متناقضة ، ونحن بعيدون عن أن نستطيع الوصول إلى قرار حاسم.

« ومهما يكن الرأى الذى يكتب له النصر فان الكون إذا حكمنا عليه بمقاييسنا البشرية للزمن قديم جداً تتلاشى بجانبه أعمار الناس والامم ، بل

كل تاريخ البشر فقد كانت النجوم قريبة جداً مما هى عليه الآن قبل أن يظهر الانسان على الارض ، وستكون على الراجح قريبة جدا مما هى عايه الآن حين يغادر آخر إنسان . إن تاريخ الجنس البشرى كله ليس إلا طرفة عين إذا قيس بأعمار النجوم . اه

فتأمل قوله (لانستطيع أن نقول شيئاً موثوقا بصحته)(لهذا أرى من الراجح)(أما الآن فالشواهد على مايظهر مضطربة جداً بل متناقضة ونحن بعيدون عن أن نستطيع الوصول إلى قرار حاسم) الخ — مع قول كاتب الأغلال : إنه راح يولدهذا الوجود ويشهد تكونه وتولده، وذهب يحدث حديث الحاضر الشاهد كيف ولدت مادة الكون ومتى ولدت — بل ذهب مسرعا يسابق الوجود فيسبقه ، وذهب يخبرنا عما بقى من عمر هذا الكون وعمر هذه الحياة وهذا الوجود الذى سبق أن ولده وأن شهد نشوءه وتكونه ، وعما بقى من عمر هذا الانسان وغيره من الأحياء . الخ

قل لى بربك : أليس هذا هو الغرور الصبيانى ، والجرأة السفيهة الحمقاء ، وقفو ما لا علم به.

وفى مداعبة لطيفة وحوار فكه نسأل الكاتب :هل درس شيئاً من العلوم الرياضية المتوسطة كهندسة إقليدس وحساب المثلثات المستوية والكروية ، وحساب اللوغارتمات الطبيعية والعادية ، والجبر الابتدائى والعالى والفلك العلمى والعملى. وكلها ماعدا اللوغارتمات من علوم الأوائل الذين يحقرهم ، فضلا عما توسع فيه المتأخرون من علوم الرياضة العالية ، وحسابات النسبية .

المسألة اليهودية

عُنى كاتب الاغلال بالمسألة اليهودية فى أغلاله عناية خاصة تسترعى الانتباه والحذر ، فكتب فيها عشر صفحات (٢١٦ — ٢٢٥) وساق فيها من الآراء والاحتمالات ما يدل الاشتباه والحيرة على غرضه الذى يرمى اليه : أهو نصح محض وإيقاظ وتحذير من مستقبل الصهيونية وشرورها ووطنها القومى الذى تسعى له سعياً حثيثاً متواصلا فى فلسطين ، فساق الانذار تلو الانذار كأنه النذير العريان يقول : صبحكم مساكم ، إن العدو بأسفل الوادى يريد أن يغير عليكم فيصبحكم — أو هى دعوة صهيونية مستأجرة لتفتير العزائم وتوهين القوى ينشر بأس الصهيونية وذكائها ، وعلمها وخبرتها وصناعها وعالميتها ، على حد قول الله تعالى (إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين)ومن ذلك تحريف الآيات فى ضرب الذلة على اليهود ، وإطفاء نارهم ، وبعث الذين يسومونهم سوء العذاب إلى يوم القيامة وتقطيعهم فى الارض أمماً (كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله)

سأترك الحكم على غرضه وما انطوت عليه دخيلة نفسه ، وذات صدره حتى تظهره الايام أجلى ظهور ، وحينئذ يكون الحكم للايام وللعقلاء وللقضاة العدل . وإنما المناقشة معه للفهم المقلوب ، والتحريف الشائن لمدلولات آيات كتاب الله ودفع معانيها الظاهرة فى الصدور والاعجاز وقلب مفهومها رأساً على عقب ، فهذا ما أخوضه.

قال الكاتب ص ٢١٦

هذا ما كان يقوله المسلمون فى العصور الخالية فى سيادة النصارى عليهم . أما اليوم فقد حل محل هذا الوهم وهم آخر ، وصاروا يقولون هذا القول ويهمون مثل هذا الوهم فى خطر اليهود وفى ملكهم ومحاولتهم إعادة وطن قومى لهم . . . فقد أكثروا من الادعاء بأن اليهود لاخطر لهم ذاتى، وأنه لايخشى منهم منفردين على المسلمين ولا على الأوطان الاسلامية لا على فلسطين ولا غيرها . ثم زعموا كما زعموا منذ ٥٠٠ سنة بأن الله قد دفع إليهم بعهد مكتوب بأن اليهود لن يكون لهم ملك ولن يكون لهم وطن خاص . ثم اتهموا كتاب الله بوجود هذا العهد فيه وراحوا يتلون الآيات منزليها فى غير مواضعها .

والآيات التى استدلوا بها هى قوله فى سورة البقرة (ضربت عليهم الذلة والمسكنة) ثم قوله من آل عمران (ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة) ثم قوله من سورة المائدة (كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله) ثم قوله فى الأعراف (واذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب وانه لغفور رحيم وقطعناهم فى الارض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك)

وقد حسبوا أن هذه الآيات قواطع فى أن اليهود لن تقوم لهم دولة، ولن تكون لهم صولة . ولكن هذا غير صحيح لا بالنظر إلى سنة الله ولا بالنظر إلى كتاب الله . أما سنة الله فانها قد علمتنا بأن من أخذ بأسباب الملك ناله واليهود من أعمل الناس اليوم لهذا الغرض ومن آخذهم بالأسباب

ونقول للكاتب : إن السنن وحدها ليست كافية فى نوال المطلوب إلا على قاعدته المادية الدهرية ، فلسفة القرن التاسع عشر وما قبله من آلية الكون وحكمه بالنواميس الطبيعية ، مع إنكار القدر والاختيار الالهى ، وقد قدمنا الرد على ذلك من كلام أساطين القرن العشرين وما

وصفوا به الفلسفة الآلية المادية أنها أفكار أطفال وصبيان ، وارجع إلى مانقلت سابقاً من كلام مشرفة باشا عميد كلية العلوم ، وكلام السير جيمس جنز العالم الانكليزى من كتابه « الكون الغامض »

ونقول لكاتب الاغلال : إن ألمانيا وإيطاليا واليابان لم يدخروا وسعاً فى الأخذ بأسباب السيادة على العالم من قوة عسكرية وحربية وصناعية ، فهل نالوا ما أخذوا بأسبابه ، أم هو القدر الذى جمع عليهم مالم يكن فى حسبانهم ؟

وأيضاً: فهل الأسباب التى أخذت بها مصر والعراق أقل مما هى فى اليمن وبلاد العرب وسوريا حتى استقلت هذه وفشلت الأوليان ؟ إن القدر الذى آمن به طبيعيو القرن العشرين وأدخلوه فى تفكيرهم العلمى لايؤمن به الكاتب ، ويعد الايمان به عجزاً وغلا يعوق التقدم والرقى . لذلك يعد الكاتب أخذ اليهود بالسنن التى يظنونها تصل بهم إلى أهداف الملك والوطن الصهيونى منيلا لهم ماسعوا اليه وإن خالفت النصوص القرآنية . ألا فلينتظر الكاتب نتائج أخذ اليهود بسننهم فإنا مع جهادهم وإعداد العدة لصدهم وإذلالهم ، مع التصديق بما أخبر الله عنهم منتظرون. ولا يخيفنا ما ذكر عنهم من ذكاء وغنى وخبرة وصناعة وعلم ، وها هى المسألة قد دخلت فى طورها العملى (قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوى ومن اهتدى)

قال الكاتب ص ٢١٦

وأما كتاب الله فان هذه الآيات ليست صريحة فى صدق هذه الدعوى أما

(ضربت عليهم الذلة) فى الآيات كلها فان الذلة عند أكثر المفسرين هى الجزية فيكون تفسير هذه اللفظة أن الجزية قد فرضت وقت نزول القرآن على اليهود وفرضها عليهم فى وقت من الاوقات لا يلزمه أن تكون مفروضة عليهم كل الأوقات بدليل أنها الآن مرفوعة عنهم مع صدق القرآن بأنها قد ضربت عليهم وإذا قدر بأن المراد بالذلة فى الآيات هو المعنى الأول السابق إلى الافهام لم يلزم منه صدق هذا الوهم ،ذلك لان أخبار القرآن بأن اليهود أذلة فى وقت نزوله لا يقتضى أن يبقوا أبد الآبدين كذلك . وما من أمة من الأمم إلا قد مرت بها عصور ذلة وضعف مهما كانت اليوم عزيزة منيعة وفى الكتاب (لقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة) وكل الناس يعلمون اليوم أن الذلة مضروبة على المسلمين على أوسع نطاق وأحكمه ولكن لا يمكن الزعم بأنهم سيبقون أذلة أبدا . . وأما المسكنة عند أشهر المفسرين فهى الفقر والمراد هنا الفقر القلبي لشدة حبهم المال وقيل المسكنة هى ضرب الجزية وقيل الخراج وكل هذه التفسيرات لا تنافى أن يكون لهم ملك وأن يكونوا يوما ما خطرا مرهوبا .

أقول : في هذا ألوان من غرائب التلاعب بفهم كتاب الله وتحريفه بقلة حياء (منها) كذبه على أكثر المفسرين أنهم فسروا الذلة بضرب الجزية. والمفسرون يعلمون أن أكثر يهود العالم حتى الذين فى الحجاز حول المدينة لم تؤخذ منهم الجزية وقت نزول هذه الآيات ، فكيف يفسرونها بما لا يؤيده الواقع ، والجزية نزلت فى سورة التوبة فى السنة الثامنة من الهجرة بعد إجلاء يهود المدينة عنها بله يهود العالم كله . ومن فسرها بالجزية فقد فسرها باللازم .

والذلة والصغار والحقارة والمهانة والمسكنة وعدم العزة والأنفة ، كلها معان متقاربة لائقة بحال اليهود أينما كانوا وحيثما قطنوا ، سواء

بأوربا أو بأمريكا أو بغيرهما. وأما المعنى الثاني الذي وهنه الكاتب بقوله « وإذا قدّر أن المراد بالذلة هو المعنى السابق للأفهام » مما ذكرناه من حال اليهود — فهو المعنى الحق، وهو صادق على اليهود وإن كذبه الكاتب وعدّه وهماً. فالآيات لفظها «ضربت» الذي يدل على الالزام وعدم الانفكاك من ضرب السكة والنقش على وجهيها ما تلزمه ولا يزول عنها. ثم أكدت ذلك بعبارة (أينما ثقفوا) المستلزم لعموم الأمكنة ومن لازمه عموم الأزمنة ثم أكدته تأكيداً آخر بالاستثناء الذي هو من أدوات العموم فيما عدا المستثنى بقوله (إلا بحبل من الله وحبل من الناس) وفسر الحبل بالعهد والميثاق، فهم أذلاء صاغرون أينما كانوا وأيان وجدوا إلا تحت حماية عهد إلهي ومحالفة من الناس، لا بقوتهم الذاتية التي يخيفنا منها الكاتب

فدعوى الكاتب على القرآن إخباره بذلة اليهود وقت نزوله فقط — كذب على القرآن الذي وصمهم بضرب الذلة والمسكنة عليهم أينما كانوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس، وقد عرفت معنى الضرب والعموم في (أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس)

وذكره أن أمماً مرت عليهم عصور ذلة ثم عزت بعد ذلك، لا يفيده شيئاً في دعواه، فالمسألة في اخبار الله أنهم ضُربت عليهم الذلة والمسكنة أينما كانوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس، لا مرور عصور ذلة على أمم بعدها عزة. وشتان بين المسألتين (الأولى) خبر الله القطعي بضرب الذلة على اليهود أينما كانوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس (والثانية) مرور عصور مختلفة على أمم. فأين هذا من هذا؟ ثم استشهاده على ذلك

بقول الله تعالى (لقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة) مما يدل على أن معرفته بالعربية فسدت إلى حد العجمة الشائنة أو هو الهوى وفساد النية فقول الله (وأنتم أذلة) جملة حالية والأحوال تتجدد وتزول (ودوام الحال من المحال) وأما (ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة) فخبر جزم عام لا يتخلف حتى تزول السموات والأرض ولو تبجح ترومان رئيس أمريكا وهدد بنصره لليهود تزلفا لهم لانتخابه رئيسا أصليا فيما يرجوه فى الدورة الانتخابية فستكذبه الأيام وتخونه الأماني (وليغلبن مغالب الغلاب) وقول الكاتب (وكل الناس يعلمون اليوم أن الذلة مضروبه على المسلمين على أوسع نطاق وأحكمه) فقد أملاه عليه بغضه للاسلام حتى لم يعد يفرق بين الذلة والضعف . نعم فى المسلمين اليوم ضعف لا ذلة حتى المحكومين بالأجانب منهم فيهم عزة بقدر ما فيهم من دين وفيهم ذلة بقدر ما تركوا من دينهم ألا فليخبرنا الكاتب عن الذلة بمعناها الصحيح أين هى فى اليمن وبلاد العرب ومصر والشام والعراق على تفاوت بينهم فى الضعف والقوة بقدر تمسكهم بالدين ، أما الذلة المضروبة على اليهود أيام دول النصرانية من عهد قسطنطين وما جرى عليهم من تشريد وقتل أفاقوا منه فى العصر الاسلامى قليلا مع ذلة يستلزمها خبثهم وماضيهم وما قدموا ، ثم جاء العهد الهتلرى وما صبه عليهم وإنا لنتوقع لهم تكرار التاريخ عليهم إذا لم يقلعوا عن خبثهم ونواياهم الشريرة (وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم

عباداً لنـــا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فاذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا)

وتسأل الكاتب متى احترم المفسرين وأخذ بأقوالهم حتى يأخذهنا عنهم أن الذلة هى الجزية ويعزوه إلى قول أكثرهم كذبا أو قلة فهم لما قالوه أو هوى وسوء نية ليعبر من ذلك على ما يناقض خبر القرآن ووعيده لليهود فيقر بذلك عين اليهود وينال منهم ما يبغيه؟ قال الكاتب ص ٢١٧

وأما قوله (كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله) فالمراد أن دسائسهم ومكايدهم التى حاكوها باحكام واستمرار للقضاء على الرسول ودعوته قد أخذها الفشل من كل جانب وأنهم هزموا فى كل حروبهم التى شبوها مريدين القضاء على لاسلام وهذا لا ينفى أن يكونوا خطرا فى المستقبل .

وأول الآية (وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ويسعون فى الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين)

فأنت ترى أن الآية فى وصف اليهود أينما كانوا وحيثما ثقفوا ليست خاصة بما فعلوه مع النبى ﷺ فأحبطه الله وأطفأه كما قيده الكاتب بذلك من

عنده ليتوصل بذلك إلى ما يريد من تهديدنا بهم . والعموم فى الآيةظاهر من قوله وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ومن لفظ كلما الذى يسور به المناطقة قضاياهم الكلية الموجبة، فمن أين جاء الكاتب هذا التخصيص الذى استنتج منه أن يكونوا خطرا فى المستقبل .

وتنبه إلى عبارته فى مكائدهم ودسائسهم :أخذها الفشل وأنهم هزموا .والله يقول :أطفأها الله ،فكأن الكاتب يعادى اسم الله ويتنفر من نسبة فعل إلى الله تعالى ولو نسبه الله لنفسه حتى لا ينخرم تلازم أسبابه ومسبباته وحتى لا يؤمن بقدر إلهى فوق الأسباب والنواميس أو يهدم ما بناه من مادية القرن التاسع عشر وآلية الكون وصرامة النواميس

قال الكاتب ص ٢١٧ س ١٦

وأما بعث الله عليهم من يعذبهم إلى يوم القيامة فانه لا ينافى الملك أيضا لأنه إذا كانت لهم دولة وبقيت الحروب بينهم وبين الآخرين مستعرة فان فى هذا أشد أنواع العذاب وأشد سوم لهم بالعذاب ولا ريب أن المتحاربين كل منهم يسوم الآخر ويصليه العذاب .

وهذا من جنس ما قبله تحريفا وتمويها ، فالآية وعيد من الله تعالى وإخبار منه أنه يبعث عليهم من يسومهم سوء العذاب ، وسومهم سوء العذاب فسره نظيره مما سامهم إياه آل فرعون فى قوله (وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم) فسوم سوء العذاب الذى جرى لهم فى عهد آل فرعون هو الذى أخبر الله عنه أنه يبعث عليهم إلى يوم القيامة من يفعل بهم نظيره ، وبعثه عليهم من يفعل بهم ذلك هو نظير ما بعث عليهم

من عباده الكلدانيين والأشوريين فى تاريخهم الماضى (فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا) (فاذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ماعلوا تتبيرا) فهذا البعث هو نظير ما أخبر الله أنه سيفعله بهم إلى يوم القيامة فمن أين تأتيهم الدولة ويكون لهم الملك مع هذا حتى يتوقعه الكاتب لهم ويشبهه بما يكون بين المتحاربين مع أن المتحاربين لا يقال فيهم عرفا ولغة انهم يسومون بعضهم بعضا سوء العذاب إلا للمنتصر منهم على المخذول المدال عليه ،ثم فى قول الله (عليهم)ما يدل على الاستعلاء والتحكم والاذلال لمن يذوق طعم الأسلوب العربي، ثم الغاية بقوله (إلى يوم القيامة) تعود لغواً على ماتوقعه الكاتب لهم من قيام دولة وملك لهم ويمسى هذا الخبر لغوا وذلك مما لا يعز على الكاتب ولا يستغربه ؛ لأن دينه الذى يقدسه واستبدله بالاسلام هو مادية القرن التاسع عشر وما قبله من كون آلى لا اختيار لخالقه ولا قدر بل نواميس طبيعية صارمة إن تخلفت بقدرة خالقها وإرادته دل ذلك عند الكاتب على أن الخالق قوة مجنونه أو كالمجنونة تقف فى سبيلها ، وأنى لها ذلك كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا . سبحان الله وتعالى عما يقول الكاتب فيه علواً كبيراً

قال الكاتب (ص ٢١٧)

فالقرآن لم يقدم لنا صكا بالضمان من خطر هذا الشعب الذكى الغنى الماكر بل قدم إلينا الأوامر الصارمة الصريحة بأن نحذر ونستيقظ ونقف وقدجاءت

الأحاديث الصحاح بأن حروبا عظيمة ستضطرم بين المسلمين واليهود وقديكون في هذا مايعطى بأن اليهود قد تكون لهم دولةوجيوش يحاربون بها ودفاعا عنها .

فليهنأ يهود صهيون فقد مزق لهم الكاتب وعيدات القرآن فيهم من ضرب الذلة والمسكنة عليهم أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس ومن الخبر الأكيد من بعث من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة مستعليا عليهم ومن إطفاء حروبهم التي يوقدونها لأغراضهم كاعادة ملك داود الخ وتوقع لهم ملكا ودولة يحاربون بهما المسلمين ،فياقرة أعين الصهيونية بهذه الدعاية السافرة لهم .

وإذا كان الكاتب يؤمن بما جاء في الأحاديث الصحاح الواردة في ذلك ففيها أن المسلمين ينتصرون عليهم حتى يختبئوا وراء الأشجار والأحجار وحتى يقول الحجر يامسلم : هذا يهودى ورائي . وتخبر بهم الأشجار إلا شجر الغردق فانه من أشجارهم . وفيها نزول عيسى بن مريم ولا يقبل من أحد إلا الاسلام سواء من اليهود أو النصارى وهذا هو أحد الوجوه في تفسير الآية (وإن من أهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا) أى أن أهل الكتاب وقت نزول عيسى يؤمنون به كلهم قبل موت عيسى عليه السلام . والوجه الآخر في معنى الآية أن كل كتابى سواء في وقت عيسى أو قبله يؤمن بعيسى وقت احتضار الكتابى تعرض عليه حقيقة الأمر في مسألة عيسى فيؤمن بالحق فيه سواء كان يهوديا أو نصرانيا والمحتضر تختصر له صفحات حياته اختصارا بارقا سينمائيا . . . .

قال الكاتب ص ٢١٨

ومما يجب الالتفات إليه أنه لا يحسن منا أن نحكم بأن القرآن قد جهر بأن اليهود لن يكون لهم ملك فى عصر من العصور فاننا لو حكمنا هـذا الحكم ثم أبطلت الأيام حكمنا هذا لخشينا أن يكون فى ذلك شىء من توجيه الاتهام إلى القرآن ونصوصه وقضاياه .

ونقول للكاتب : إذا حكم القرآن بحكم قطعى جزمنا به ، وأنه لاتنقضه الايام والليالى ، ولا تبطله الأعوام والعصور ، لأنا نعلم علماً لاشك فيه أنه من عند علام الغيوب (الذى يعلم السر فى السموات والأرض انه كان حليما غفورا)

بقى :هل حكم القرآن على اليهود هذا الحكم أنه لن يكون لهم مُلك فى عصر من العصور ؟ فقد رأيت النصوص التى حرفها الكاتب ومزقها شر ممزق ،ليخرج منها بهـذه النتيجة التى يقر بها أعين اليهود وينال بها حظوتهم ، وإن كان يُظهر بذلك الغيرة على صدق القرآن ، ويزعم إبعاد الاتهام لنصوصه وقضاياه ، وستظهر الأيام حسن فهم المسلمين لكتابهم وصوابه ، وإن ارتاب المبطلون ، وتشكك المتشككون (قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوى ومن اهتدى) (إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً) (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق)

ونصيحة الكاتب لنا بقوله (ص ٢١٨)

وأن أشد ما يفزعنا وأشد ما حملنا على أن كتبنا هذا الذى كتبنا فى هـذه المسألة هو أننا نخاف أن نبقى متوهمين أنفسنا وبلادنا بمنجاة من هـذا الخطر

المخيف الفاغر فاه اليوم كما كنا نظن أننا بمنجاة من الخطر المسيحى حتى قضى القضاء . . . وحينئذ لا يجدى الندم كما لم يجد فيما فرغ . وقد لاحظنا أن هـذا الغرور —وهو خليق بأن يسمى غرورا — مستول على تفكير إخواننا المقصودين بهذا الخطر الذى يكاد يحاط بهم (يعنى العرب فى جزيرتهم) فهم يرون أنهم لو خلى بينهم وبين اليهود جامعة اليهود ما جمعت من الأموال والقوات ومن العلم والمـكر والدهاء لـكانت لهم الغلبة ، وإن فقدوا كل شيء من هذه الأمور التى من ملكها فهو المنتصر ومن فاتته فلا شيء له .

وقوله ص ٢١٩ س ٦

ولهذه النتيجة — فتح فلسطين لليهود — نتيجة أخرى ،هى أشد هولا وأشد افزاعا لمن يفكر فيها ويدريها هى الامتداد العسكرى والاقتصادى والثقافى الذى سيكون أثرا محتوما لاحتشاد القوى اليهودية المخيفة فى ساحة ضيقة مثل فلسطين . . . ومن المعلوم أن هذا الامتداد لن يكون إلا فى بلاد العرب (قلت ومصر والعراق والشام ولبنان حتى اليمن) ومعنى هذا أن الآلة اليهودية لا محالة من أن تتحدى الآلة العربية وتصطدم بها ، ولا ندرى كيف تتكافأ الآلتان مع ما بينهما من الفروق العظيمة ، والقول بأن العزة للـكاثر قول كان يصدق أحيانا لما كانت الأمم والجماعات يتنازعون ويتقاتلون بالأكف والحجارة والسهام والنبال، وأمثال ذلك ولـكنه لا يجب أن يصدق فى الزمان الذى يكون العلم فيه هو الفاصل والحـكم والعدة .

وقوله ص ٢٢٠ س ٢٢

وأما فلسطين وسواها من البلاد العربية فهى عاجزة عن الامرين :عن تدمير اللصوص الواغلين أو إجلائهم وعن منافستهم تجاريا أو صناعيا أو زراعيا ،فما أطيبهم إذن مغنما وما أسعد من ظفروا بهم ودخلوا عليهم الأبواب، ومن السهل عليك أن تبسط يدك آمنا مطمئنا فتجتذب الطيور المسالمة الضعيفة من أوكارها

لتقدم لك على مائدتك طعاما شهيا سائغا — يريد أن هذا مثلنا مع اليهود — ولكن من الصعب عليك أن تفعل ذلك بعرين الأسود معنى هذا أن بعض الشعوب فيها مناعة ذاتية تقيها الفناء والعدوان وبعضها ليست فيها هذه المناعة فهى محتاجة إلى حماية خارجية والا ذهبت فى الهالكين واليهود يعلمون أننا فاقدون لهذه المناعة ولهذا فانهم لا يخشون وغولهم علينا ولا غزوهم إيانا . لن يهاجم اللصوص منزلك وأنت موجود فيه يقظان إلامتى وثقوا من ضعفك وهوانك

ثم نصح (ص ٢٢١) لفلسطين وغيرها من البلدان العربية لنجاتها من جميع الغزاة والدخلاء بتعلم كيفية إيجاد هذه المناعة الذاتية التى تكون فى استطاعتها تدمير الغازين ومنافستهم منافسة تمنعهم من أن يتلمسوا لأقدامهم بيننا موضعا ثم قال

أما مالم توجد فينا هذه المناعة فسنظل عرضة لضروب الغزوات وصنوف الغازين ولن يمنعنا من ذلك صراخ ولا احتجاج ولا شىء مما نصنعه من هذا القبيل .

ولم يشرح لنا تلك المناعة الذاتية هل يريد بها إصلاح خلقنا وديننا وبالتبع له دنيانا أو هو رفض ذلك كله والاستبدال به مادية طبيعية لا روح ولا خلق ولا دين فيها كما أعاده وكرره فى كتابه

وقال ص ٢١٩ س ١٤

وأما الاحتمال الآخر الذى يرضينا معشر العرب والذى نعمل له والذى هو أقصى أمانينا — أعنى إيصاد الأبواب كلها فى سبيل كل يهودى يريد دخول فلسطين — فهذا الاحتمال ـ على أنه أفضل احتمال ـ ليس فى استطاعته أن يرد عنا الخطر الصهيونى الذى أنشب أنيابه حقيقة فى جانب من جوانب هذا الوطن العربى وذلك أن اليهود حينئذ — وهم أهل الذكاء والحيلة والتصميم والتعصب القومى العجيب — سيلجأون إلى وسائل كثيرة هينة عليهم وعلى من

هم مثلهم ثقافة وعلما ونشاطا ومالا وشأنا دوليا ملحوظا . من هـذه الوسائل تنظيم عمليات التهريب برا وبحرا وجوا والتحايل على الوصول إلى ما زعموه وطنهم الذى لن تثنيهم عن دخوله قوة من القوى ومنها محاولة تكثير مواليدهم وتوالدهم بطرق فنية مبتكرة مفزعة . وهكذا حتى يصيروا عددا جسيما فى هذه البلاد وحينئذ ينطلقون فى سبيل تحقيق أغراضهم الكبرى التى أرصدوا لهـا أضخم الذهنيات العالمية يمدها ذلك الخيال اليهودى الذى ألهبته عبر التاريخ القاسية الطويلة ومعارف هذا العصر الفذ ، ثم تلك الشهية العتيدة التى شهر بالتمتع بها حفدة شيلوك وقارون إزاء المال والحياة وإزاء المنافسة فى تحصيلهما ، وإذن فالخطر اليهودى قد صار حقيقة واقعة على كل الاحتمالات والحالات فلو ظفرنا بأجمل ما يلعب بآمالنا - وهو وقف الهجرة الصهيونية نهائيا - لما كان فى ذلك شىء من الضمان إلا عند من اعتادوا أن يناموا تحت مطارق الأقدار، فكيف الخلاص إذن .

(ثم تساءل) لماذا يحاول اليهود أن يتركوا أوربا مهبط النشاط الانسانى الرائع ومجلى العبقرية البشرية وأن يتخذوا كل صعب وذلول ليتجمعوا فى هذا الوطن الشرقى العربى الذى يكاد يكون من الناحية الزراعيه والصناعية والعلمية فطريا بدائيا والذى لا قيمة لموارده الطبيعية بالنسبة للبلاد التى يفرون منها .

ثم نفى عنهم أن يكونوا قد خدعوا فاعتقدوا أن مجال العمل والنشاط والحياة فى فلسطين أعظم منه فى الأوطان التى تركوها كما أنه من غير الممكن أن يكون المبدأ الدينى قد خالط رءوسهم فاختاروا هذا المكان من الدنيا انقياداً لعاطفة دينية وطاعة لنص وجدوه فى كتبهم المقدسة. كل هذا لا يمكن أن يكون — وإن جوزه على الجماهير المضللة ولكن الرءوس التى نظمت هذا الغزو وأوفت به على الغاية ليس من الممكن أن يكون قد ألم بها هذا الخبال أو الخيال فالأمر إذن غير ذلك فما هو ؟

ثم افترض أن بريطانيا وأمريكا — أقوى قوتين تحكمان العالم اليوم — طلبتا إلى اليهود أن يختاروا لهم أغنى وأفضل منطقة فى ألمانيا أو اليابان أو إيطاليا ليصيروها وطنا قوميا بقوة السلاح فهل من الممكن أن يرضى اليهود بهذا الوطن المفروض المعروض وأن يقدموا على تجربته؟ أجاب بالنفى البات ثم سأل ولكن لماذا لا يفعلون

ثم أجاب بقوله ص ٢٢٠ س١٨

بالجواب عن هذا نعرف لماذا اختاروا بلدا عربيا وهان عليهم تحدى أهله وتحدى جيرانهم وإخوانهم انهم لا يقبلون مثل هذا الوطن لأنهم يعلمون أن أهله سيدمرونهم فى يوم من الأيام أو يجلونهم على الأقل لا محالة هذا من جهة ولأنهم يعلمون من جهة أخرى أن هذه الشعوب ليست هينة المنافسة ولا سهلة القضم والبلع أما فلسطين وسواها من البلاد العربية فهى عاجزة عن الأمرين معا عن تدمير اللصوص الواغلين وإجلائهم وعن منافستهم تجاريا وصناعيا وزراعيا فما أطيبهم إذن مغنما وما أسعد ما ظفروا بهم ودخلوا عليهم الأبواب ! من السهل عليك أن تبسط يدك آمنا مطمئنا فتجتذب الطيور المسالمة الضعيفة من أوكارها لتقدم لك على مائدتك طعاما شهيا سائغا ولكن من الصعب عليك أن تفعل ذلك بعرين الأسد .

ثم حضنا على المناعة الذاتية ولم يبينها لنا بما عودنا من بيانه المسهب الطويل المكرر فلماذا؟ أجبن وهو الشجاع المغوار الذى هاجم المسلمين فى صميم دينهم أم ماذا وراء الأكمة ؟ وليس فى فم الكاتب ماء فلماذا لم ينطق. أطنبت فى نقل ما وصف به الكاتب اليهود وما وصفنا والأمثلة التى ضربها لنا ولهم من الطيور الشهية المأكل السائغة المضغ والبلع ومن خلونا من

علوم العصر وصفاته ومكره ودهائه وغناه وماله بجانب تفوق اليهود حفدة شيلوك وقارون فى الذكاء والدهاء والشأن العالمى ليتفكر فى ذلك ساسة العرب وزعماؤها وقوادها وحكماؤها إن كان للتفكير موضع من عنايتهم فى ذلك حتى يبرهنوا أنهم أهل للحياة فى العصر عصر العلم والآلة والصناعة وحتى يكونوا جزءا من قافلة الجماعة وركب الحياة وأننا نهيب بهم كما أهاب بهم الكاتب مع فارق جوهرى بيننا وبينه إذ هو يلغى الدين ونحن نعده كما يعده سائر العقلاء أساس النهضة وعمود الحياة التى لا تقوم إلا عليه ، الدين الذى يقوم على حياة الروح والجسد على المعنى والمادة على الخلق والخلق ، على الزهد والغنى ، على القناعة والسعى والكسب ، على الايمان بقدر الله واختياره مع الأخذ بالأسباب ، على جريان الأسباب فى ودیانها مالم تر العناية الألهية تحويلا لحكمة عالية قد نعلمها وقد لانعلمها. لقد كان من شهوة كثير من الناس انتصار المحور ، وتدمير الحلفاء تدميرا عسكريا — وإن كان رأسهم قد تدمر معنويا واقتصاديا — ولكن العناية الالهية لها من الأغراض والحكم ما هو فوق هوى الكثير (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض) (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم)

وختم الكاتب مقاله بقوله ص ٢٢٥ س ١٤

والذى نريد أن نقوله هنا هو أنه لا محاباة ولا نسب بين الله وبين أحد من خلقه وقد وضع نواميس وسننا وقوانين تحكم هذا العالم على وفق حكمته العليا وعدله الشامل . فمن وفق لاستخدام هذه النواميس والسنن والقوانين وسار معها بلا اصطدام ولا خروج فقد نال مايبغى ومن عاند هذه النواميس والقوانين

وحاول الخروج عنها فقد هلك ولا محالة ،ولن ينفعه أن يقول انه مسلم وأنه يصلي ويصوم ويكثر من ذكر الله بلسانه كما أن هذه الأقوال والدعاوى لن تجـــدى من ذهب يتحـــدى سنة الله ، فترك الطعـام والشراب والمحـافظة على الصحة والحياة زاعما أنه مسلم مؤمن وزاعما أن المسلم المؤمن معصوم محفوظ منظور من قبل العناية الالهية .

ونحن مع الكاتب نقول إن الأقوال بلا أعمال لا تفيد ولا تجدى ولا قيمة لها عند الله ولا عند خلقه، ولكن نقول ان المسلم حقا الذى يعرف الاسلام من كتاب ربه وسنة نبيه وسيرة الراشدين من خلفائه وسيرة صحب رسول الله ﷺ ورضى الله عنهم ومن تبعهم على أثرهم فى فهم الاسلام والعمل عليه والسير على صراطه فهذا معصوم محفوظ منظور من قبـل العناية الالهية، لا تعارضه السنن والنواميس بل تخدمه بمعونة العنـــاية الربانية وبالهداية الالهية وبالتوفيق السماوى ورحمة أرحم الراحمين والشواهد من الواقع والتاريخ أعظم البراهين .

فما غزا الرسول ﷺ غزوة ولا انتصر على عدو ولا فتح الصحابة شرق الأرض وغربها وصاروا سادة العالم وبيدهم صولجان العز والسيادة إلا بالايمان الصحيح والاسلام الحق الذى كان نور هدايتهم وشمس سيرهم وبه تقدموا علماً وعملاً وسياسة وسيادة . ان خالدا بن الوليد بطل الاسلام وسيف الله الذى لم يغمد فاتح العراقين وبطل الشام ما شرب السم سم الساعة الذى كان مع مفاوضه الفارسى فلم يضره إلا بقوة الايمان والاسلام . وذلك اليماني — وأظنه أبا خالد الدالاني — الذى أُلقى فى النار فلم تحرقه وفرح به عمر بن الخطاب حينما رآه وقال ما معناه : الحمد لله الذى أراني في أمة محمـد

من صارت عليه النار بردا وسلاما كابراهيم ما أطفئت عنه النار إلا بقوة الايمان وصدق الاسلام. وهذا شيخ الاسلام ابن تيمية من أعرف الناس بالمعقول والمنقول ماتحدى شيخ الرفاعية فى زمانه بدخول النار وإياه ليتبين الصادق من الكاذب فى دعوى الولاية والكرامة إلا بالايمان الحق والاسلام الصحيح .

وختاما هل كان الكاتب جادا حينما مدح الشيخ محمد بن عبدالوهاب فى كتابه بالنجاح ومعرفة الحياة ثم وصف أتباعه الذين نجح فيهم ص ١٤ «بأنهم يعدون بين الشعوب نموذجا رائعا للهوان والضعف والجهل والمسكنة» وعناهم بقوله ص ٧٦ « وكلنا يعلم أن بلدا إسلاميا مستقلا لا يزال اليوم يعيش على هامش الحياة وعلى الفطرة الأولى يعنى أنهم بكونهم على هامش الحياة ليسوا فيها حقيقة بل هم إلى الموت أقرب من الحياة وكذلك مدح جلالة الملك ابن السعود — وهو أهل للمدح ثم قال ص ٧٨ بعد ما وصف بعض قادة الأمم وأن كثيرا منهم كانوا يعملون على أن يحولوا بين شعوبهم وبين العلم ويحرمونه عليهم لأنهم يخافون امتناعهم عليهم وعسر طاعتهم لهم إذا تعلموا، ثم قال : « وحتى فى هذا العصر لا يزال يوجد فريق من هؤلاء القادة الذين يخشون العلم. ومما يؤلم أنه يوجد اليوم فى إحدى البلاد العزيزة علينا من لا يكافئون المتعلمين إلا بالسجن والعذاب والمطاردة » فمن يعنى الكاتب بهذا وهل يظن الناس لا يفهمون مغامزه ولماذا هذا الابهام والتستر بالغلائل التى لا تستر والرمى من وراء جدران الجبن؟

وقف القلم هنا ليعود فى فرصة أخرى والحمد لله أولا وآخرا